بسم الله الرحمن الرحيم [رب يسِّر]

الحمد لله العزيز الغفَّار، القوى القهَّار، المتعالى عن أن تدركه الأبصار، أو تحيط به الخواطر والأفكار، أحمده على أنعمه المتوالية الغزار، وأصلّى على رسوله محمد المنتجب من أشرف نِجَار (١)، المخصوص بأعظم فخار، وعلى آله الأكرمين الأطهار، وأصحابه البررة الأخيار.

وبعد ؛ فهذا كتاب أوردت فيه أخبار ملوك بنى أيوب ، وجملة من محاسنهم ومناقبهم ، إذ كانوا أعظم ممن تقدمهم من الملوك شأنا ، وأجلهم سلطانا ؛ فتح الله تعالى بهم القدس الشريف من أيدى الكافرين ، وأذل بسيوفهم أعناق الملحدين ، وطهّروا الديار المصرية من بدع الباطنية (٢)، وشيّدوا بها أركان الملة الحنفية ، فشكر الله سبحانه سعيهم ، وقدّس أرواحهم الشريفة ، وأنالهم من الآخرة أعلا الرتب المنيفة .

وخدمتُ به خزانة الجناب (٣) الكريم المولوى الأميرى الكبيرى العضدى

---

(١) النجار الأصل ، ويوجد أمام هذا اللفظ فى الهامش مايلى : « نجار : Color, Natura, Radix, Diversitas » ويبدو أن أحد المستشرقين الذين اطلعوا على هذه النسخة فى مكتبة جامعة كمبردج استعصى عليه فهم لفظ « نجار » فكتب أمامها معانيها المختلفة فى اللغة اللاتينية .

(٢) يقصد المؤلف أن الأيوبيين قضوا على الدولة الفاطمية الشيعية التى ظلت تحكم مصر نحو قرنين من الزمن .

(٣) كان للألقاب الاسلامية فى العصر المملوكى خاصة نظام دقيق عرفه ديوان الانشاء وحذقه كتابه ، وأفرد القلقشندى الجزء السادس من كتابه صبح الأعشى للحديث عن هذا النظام ، وقسمها ابتداء من ص ١٣٠ إلى خمس درجات : الدرجة الأولى درجة المقر ، والدرجة الثانية درجة الجناب ، وأورد أمثلة مما كان يكتب لنواب الشام مما يبدأ بلفظ جناب ، وهى لا تختلف كثيراً عن هذه الألقاب التى لقب بها المؤلف هنا الملك المنصور صاحب حماة الذى ألف الكتاب باسمه .

النصيرى الاسفهسلارى [١] العالمى العادلى المظفرى المؤيدى ، ملك الأمراء ، مقدّم الجيوش ، مبارز الدين ، سيد الغزاة والمجاهدين ، الملكى المنصورى [٢] أعز الله أنصاره ، وضاعف اقتداره ؛ إذ كان الله سبحانه قد خصّه من بين سائر أمراء عصره بالرأى الصائب ، والفكر الثاقب ، والفضل الغزير الباهر ، والعقل الرصين الوافر ، والأخلاق الكاملة الرضية ، والمحاسن الجميلة السنية ، ومحبة العلم والعلماء ، وإيثار الفضيلة والفضلاء ؛ وسمّيته : «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» وبالله المستعان ، وعليه التكلان .

---

(١) اسفهسلار كلمة مكونة من لفظين ، أحدهما فارسى وهو « أسفه » ومعناه المقدم ، والثانى تركى وهو «سلار» ومعناه العسكر ؛ فكأن معناها : « مقدم العسكر » ، وقد استعمل هذا المصطلح فى مصر فى عهد الدولة الفاطمية ، وكان حامله صاحب وظيفة تلى صاحب الباب وهو كما ذكر (القلقشندى : ج ٣ ، ص ٤٨٣) : « زمام كل زمام ، وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم ، وفى خدمته وخدمة صاحب الباب تقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم » ، ثم أصبح هذا اللقب فى العصر المملوكى مما يختص به أمراء الطبلخاناة أو من هم فى مرتبتهم ، ويذكر القلقشندى أن الأمراء فى زمانه تركوا استعمال هذا اللقب لأن العامة اعتادوا أن يقولوا لبعض من يقف بباب السلطان من الأعوان « اسباسلار » فكره الأمراء « مشاركة بعض الأعوان فيه ، فأضربوا عنه لذلك ، أو لم يفهموا معناه فتركوه » . (صبح الأعشى : ج ٦ ، ص ٧ و ٨) .

(٢) هو الملك المنصور الثانى سيف الدين محمد صاحب حماة ، من نسل الملك المظفر الأول تقى الدين عمر بن شاهنشاه — ابن أخى صلاح الدين — ؛ ولى المنصور الثانى حكم حماة سنة ٦٤٢ هـ وظل على عرشها إلى أن توفى سنة ٦٨٣ ، وكان عالما محبا للعلماء ، فعاش ابن واصل سنين طويلة فى كنفه ، وله ألف كتابين من أهم كتبه : مفرج الكروب هذا — كما يتضح من النص — ، وشرح كتاب الأغانى .

ذكر نسب بنى أيوب

لا خلاف فى أن الملك الأفضل نجم الدين أيوب — رحمه الله — والد الملوك ، وأخاه الملك المنصور أسد الدين شيركوه ، وهما ابنا شاذِى[1] بن مروان ، ثم قيل إن مروان هو ابن محمد بن يعقوب ، وقيل مروان هو ابن يعقوب نفسه . واختلف فى أصلهم : فذكر عز الدين بن الأثير — المؤرخ الموصلى — أن أصلهم من الأكراد الرَّوَّاديَّة[2] ، وهم فخذ من الهذبانيه .

وأنكر جماعة من ملوك بنى أيوب النسبة إلى الأكراد ، وقال : « إنما نحن عرب ، نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم » [٢] . وادعى بعضهم النسب إلى بنى أمية.

وكان الملك المعز إسماعيل[3] بن سيف الإسلام ظهير الدين

(١) هكذا ضبطه (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ١٥٢) ، وقال إن هذا الاسم عجمى ومعناه بالعربى فرحان .

(٢) فى الأصل : « الرداديه » ، وقد صحح اللفظ بعد مراجعة : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٢٨) و (أبو شامه : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٩) و (المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤) و (ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٦ ، ص ٤) ، والحديث عن نسب بنى أيوب وأصلهم الكردى أو الأموى العربى طويل ، أنظر لهذا ولذاك : (ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ١٨٧) و (المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص٨٩) و (الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ١٣ — ب) و (Enc. Isl. *Art. Kurds.*)

(٣) خرج من مصر فى أوائل عهد صلاح الدين (٥٦٩ = ١١٧٣) جيش أيوبى لفتح اليمن ، وقد تولى هذا الفتح الملك المعظم تورانشاه الأخ الأكبر لصلاح الدين ، وقد تولى هذا الملك حكم اليمن بعد فتحها (٥٦٩ — ٥٧٧ = ١١٧٣ — ١١٨١) ثم خلفه أخ آخر هو سيف الاسلام طغتكين (٥٧٧ — ٥٩٣ = ١١٨١ — ١١٩٦) ، وبعد موته خلفه ابنه الملك المعز إسماعيل (٥٩٣ — ٥٩٨ = ١١٩٦ — ١٢٠١) .

أنظر : (Lane-Poole: *Nohammadan Dynasties, p. 98.*) و (Zambaur: *Manuel de Genealogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam. p. 98.*)

وسيؤرخ ابن واصل فيما يلى لفتح اليمن ولكل ملك من هؤلاء فى شىء من التفصيل .

طُغْتِكِين [١] بن أيوب — صاحب اليمن بعد أبيه سيف الإسلام ظهير الدين — يَدَّعى ذلك ، وسمى نفسه : « المعز لدين الله » ، وخطب لنفسه بالخلافة [٢] فى اليمن ، وذلك فى أيام عمه الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، فأنكر ذلك الملك العادل — رحمه الله — وقال : « لقد كذب إسماعيل ، ما نحن من بنى أمية أصلا » .

والذين ادَّعوا هذا النسب قالوا : « أيوب ، بن شاذى ، بن مروان ، بن الحكم ، ابن عبد الرحمن ، بن محمد ، بن عبد الله ، بن محمد ، بن محمد ، بن عبد الرحمن ، ابن الحكم ، بن هشام ، بن عبد الرحمن الداخل ، بن معاوية ، بن هشام ، ابن عبد الملك ، بن مروان ، بن الحكم ، بن أبى العاص ، بن أمية ، بن عبد شمس ، ابن عبد مناف » ؛ وفى عبد مناف يجتمع نسب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ونسب بنى أمية . فهذا قول من جعل نسبهم فى بنى أمية .

وجماعة آخرون أثبتوا نسبهم فى بنى مرة بن عوف ؛ وممن أثبت ذلك الحسن ابن غريب [بن عمران] الحرسى [٣] ، فإنه أوصل نسبهم إلى على بن أحمد

---

(١) ضبط هذا اللفظ بعد مراجعة : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ٤٢٥ — ٢٦) ولكنه لم يعرفه وإنما قال : « وهو اسم تركى » ، وقد ضبطه صاحب (شفاء القلوب ص ٥٤ ب) : « طُغْتَكين » وذكر أنه يقال له أيضا « طغدكين » .

(٢) ذكر هذه الحقيقة عنه كثرة المؤرخين ، فما ذكره (الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ١٧٤) مثلا أنه « ادعى أنه أموى ، ورام الخلافة ، ولبس ثيابها ، وكان طول الكم نحو عشرين ذراعاً ، وسمى نفسه المهدى ، وأرسل إليه عمه العادل ينهاه عن ذلك ، وينكر فعله ، وقيل إنه ادعى النبوة » . انظر أيضاً : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧١ — ترجمة صلاح الدين) ، (المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢) .

(٣) فى الأصل : « حسن بن عريب الحريثى » ، وفى (شفاء القلوب ، ص ١٣ — ب) : « ابن غريب » فقط ، وقد صحح الأسم وأضيف مابين الحاصرتين بعد مراجعة : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧١) فهو أول من نقل هذا النسب عن هذا المؤرخ النسابة ، الحسن بن غريب حيث قال : « ورأيت مدرجا رتبه الحسن بن غريب الحرسى يتضمن أن أيوب ابن شادى بن مروان . . . الخ » وعن ابن خلكان نقل هذا النسب المؤرخون اللاحقون كابن واصل وغيره ، هذا ولم أعثر فيما بين يدى من مراجع على ترجمة أو تعريف للحسن بن غريب =

المرِّى (١) الذى امتدحه المتنبى بقوله :

شَرِق الجوُّ بالغبار إذا سا ... ر علىُّ بنُ أحمدَ القَمقَامُ

وأحضر هذا النسب إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى ، بن الملك العادل — صاحب دمشق — ، فسمع النسب عليه ، وأسمعه ولده الملك الناصر صلاح الدين داود ، فى سنة تسع عشرة وستمائة .

والنسب هو هذا :

« أيوب ، بن شاذى ، بن مروان ، بن أبى على ، بن عشيرة (٢) ، بن الحسن ، ابن على ، [بن أحمد بن على] (٣) ، بن عبد العزيز ، بن هُدْبة ، بن الحُصين ، ابن الحرث ، بن سنان ، بن عمرو ، بن مُرَّة ، بن عَوف » . ثم اختلف النسابون بعد ذلك ، فالأكثرون قالوا :

« عوف ، بن سعد ، بن ذُبيان ، بن بَغِيض ، بن رَيْث ، بن غَطَفان ، بن سعد ، ابن قَيْس [بن] عَيْلان (٤) ، [بن إلياس] (٥) ، بن مُضر ، بن نزار ، بن مَعَدّ ، ابن عدْنان » وبعضهم قالوا :

= الحرسى هذا . ثم قال ابن خلكان بعد أن ذكر الخبر والنسب : « هذا آخر ما ذكره فى المدرج ، وكان قد قدمه إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق ، وسمعه عليه هو وولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود بن الملك المعظم ، وكتب لهما بسماعهما عليه فى آخر رجب سنة تسع عشرة وستمائة » .

(١) لعله يقصد أنه ينتهى بنسبه إلى مرة بن عوف ، وإلا فان نص ابن خلكان — وهو المصدر الذى ينقل عنه ابن واصل هنا — هو : « إن على بن أحمد بن على بن عبد العزيز يقال إنه ممدوح المتنبى ويعرف بالخراسانى ، وفيه يقول من جملة قصيدة . . الخ » .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى (شفاء القلوب ، ص ١٣) : « عتيرة » ، وفى (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ص ٤٧١) : « عنترة » : أنظر أيضا : (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٣ هامش ٣) .

(٣) فى الأصل : « ابن الحسن بن أبى على بن عبد العزيز » وقد صححت وأضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة : (ابن خلكان) و (النجوم الزاهرة) ، الاجزاء والصفحات المذكورة فى الهامش السابق .

(٤) فى الاصل : « قيس غيلان » وقد صححت بعد مراجعة : (ابن خلكان ، الوفيات) و (ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة) .   (٥) ما بين الحاصرتين عن الوفيات والنجوم .

« عَوْف ، بن لُؤَىّ ، بن غالب ، بن فِهر ، بن مالك ، بن النَضْر — وهو الذى ينتمى إليه نسب قريش كلهم — ابن كِنانة ، بن خُزَيمة ، بن مُدْرِكة ، بن إلياس ، بن مُضَرْ ، ابن نِزار ، بن مَعَدّ ، بن عَدْنان » . والنسابون مختلفون فيما وراء ذلك ، أى عدنان .

والذى ذكره صاحب السيرة ، أنه : « عدنان ، بن أُدد ، بن مُقَوِّم ، [بن ناحور] (١) ، بن تيرح (٢) ، بن يعرب ، بن يشجب (٣) ، بن نابت ، ابن إسماعيل [٣] ، بن ابراهيم الخليل — صلوات الله عليهما — بن تارخ ، وهو آزَر ، ابن ناحور ، بن شاروخ ، بن أرغُو ، بن فالغ ، بن عابر ، بن أرْفَخْشَذ ، بن سام ، ابن نوح — عليه السلام — بن لمك ، بن متوشلخ ، بن أُخنوخ — وهو إدريس عليه السلام — بن يرد (٤) ، بن مهليل (٤) ، بن قينان ، بن أنوش ، بن شيث ، ابن آدم — أبى البشر عليه السلام — » .

فهذا جملة ما قيل فى نسبهم (٥) ، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك .

---

(١) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة : (السيرة لابن هشام ، ص ٥ ؛ ابن قتيبة : المعارف ، ص ٢٩ ؛ الذهبى : تاريخ الاسلام ، ج ١ ، ص ١٩ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٠٦ — ٣٠٧) .

(٢) فى الاصل : « نبرح » وقد صححت بعد مراجعة المراجع المذكورة فى الهامش السابق .

(٣) فى الاصل : « نشخب » ، وقد صححت بعد مراجعة المراجع السابقة .

(٤) فى الاصل : « بن البارد بن مهلاييل » والتصحيح عن المراجع السابقة .

(٥) واضح من دراسة موطن الأيوبيين الأصلى ونشأتهم الأولى أنهم أكراد الجنس ؛ أما نسبتهم إلى أصل عربى فواضح أيضا أنها مسألة طارئة جدت بعد قيام دولتهم وإقامة ملكهم ، يؤيد هذا أسانيد تاريخية كثيرة ، منها ما يرويه ابن خلكان عن شيخه وأستاذه بهاء الدين بن شداد — مؤرخ صلاح الدين — فقد ذكر أنه سمع شيخه بهاء الدين يحكى عن السلطان صلاح الدين أنه عندما سمع هذا النسب العربى أنكره ، وقال : « ليس لهذا أصل أصلا » ومنها ما ذكره (المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٧٨) فقد سرد هذا النسب العربى المدعى ثم علق عليه بقوله : « وهذه أقوال الفقهاء لهم ممن أراد الحظ لديهم لما صار الملك إليهم » ؛ أنظر أيضا : (الدكتور محمد مصطفى زياده ، المؤرخون فى مصر فى القرن ١٥ ، ص ١١) .

ذكر ابتداء أمر نجم الدين أيوب
وأخيه أسد الدين شيركوه

كان أسد الدين شيركوه (١) أكبر سناً من نجم الدين أيوب ، وكانا من أهل مدينة دَوِين (٢) — وهى بلد من بلاد العجم قريب من أَخلاط (٣) — فاتفق أنهما سافرا منها ، وقصدا العراق ، وخدما الأمير مجاهد الدين بِهْرُوز (٤) الخادم ، وكان شِحْنَة (٥) ببغداد من قبل السلاطين السلجوقية ؛ وكانت تَكْرِيت (٦)

(١) شيركوه كلة فارسية تتكون من لفظين : شير ومعناها أسد ، وكوه ومعناها جبل ؛ فالكلمة فى جملتها تعنى أسد الجبل .

(٢) هكذا ضبطها (ياقوت ، معجم البلدان) وعرفها بأنها بلدة من نواحى أرّان فى آخر حدود أذربيجان بقرب من تفليس ، منها ملوك الشام بنو أيوب ؛ ولكن (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧٠) ضبطها دُوِين . وعرفها بما لا يختلف كثيراً عن ياقوت ، قال : هى بلدة فى آخر عمل أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج .

(٣) هكذا ضبطها (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٥٣) ، ويقال فيها أيضاً خِلاط ، وهى إحدى مدن إرمينية الكبرى .

(٤) هكذا ضبطه (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧٢) . وقال إنه لفظ عجمى معناه يوم جيد على التقديم والتأخير على عادة كلام العجم ، وذلك أن به معناها جيد ، وروز معناها يوم ؛ وقد كان مجاهد الدين بهروز بن عبد الله الغياثى خادما روميا أبيض اللون ، تولى شحنة بالعراق من جهة السلطان مسعود السلجوقى . وكان صاحب همة فى عمل المصالح الجليلة وعمارة البلاد ، واسع الصدر والصبر فى البذل والانفاقات والمطاولة والمراجعة إذا امتنع عليه الغرض ، وبنى فى بغداد رباطاً وقف عليه وقفاً جيداً ، ومات فى رجب سنة ٥٤٠

(٥) جاء فى اللسان : « وشحن البلد بالخيل ملأه ، وبالبلد شحنة من الخيل أى رابطة ، قال ابن برى : وقول العامة فى الشحنة إنه الأمير غلط » غير أنّ هذا الغلط هو ما كان يستعمله الناس دائما ويتردد فى كتب التاريخ العربية فى العصور الوسطى ، فالشحنة — ويقال الشحنكية — رياسة الشرطة ، أو محافظ المدينة أو الأمير المشرف على حراستها ؛ ويجمع هذا اللفظ على : شِحَن ، وشحانى . انظر أيضاً : (المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٩٧٩ ، ٩٨٢ : Dozy: *Sup. Dict. Arab*) .

(٦) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال : والعامة تقول : تَكْرِيت ، وذكر أنها بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، وهى إلى بغداد أقرب ، ولها قلعة حصينة فى طرفها الأعلى راكبة على دجلة ، وهى غربى دجلة .

إقطاعه فتقدما عند مجاهد الدين ، وفوّض [مجاهد الدين] إلى نجم الدين أيوب دُزْدارِيّة (١) تَكْرِيت ، فسارا إليها ، ونزلا بقلعتها ، فأقاما بها مدة .

ولما وقعت الحرب بين الخليفة المسترشد بالله (٢) والأمير عماد الدين زنكى ابن آق سنقر سنة ست وعشرين وخمسمائة — على ما سنذكره — وكسر الخليفة عماد الدين زنكى ، خدم نجم الدين أيوب أتابك زنكى ، وأقام له السفن حتى عبر هناك دجلة ، واتبعه أصحابه ، وأحسن نجم الدين أيوب وأخوه (٣) أسد الدين شيركوه صحبته . وكان هذا أول المعرفة بين عماد الدين زنكى وبين نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه ، ومبدأ سعادتهما ، ولكل شىء سبب .

ثم جرى لنجم الدين أيوب ما أوجب صرفه عن ولاية تَكْرِيت ، فقيل : كان السبب أن أسد الدين شيركوه قتل إنساناً بتكريت ظلماً ، فعزل مجاهدُ الدين أخاه [نجم الدين] (٤) لذلك ؛ وقيل : إن نجم الدين أيوب رمى مملوكاً من مماليك مجاهد الدين بِهْرُوز بسهم فقتله ، فخشى نجم الدين ، فتوجّه نحو الموصل ومعه أخوه أسد الدين ، فخدما عماد الدين زنكى بن آق سنقر — صاحب الموصل — فأحسن إليهما ، وقربهما ، ورعى لهما خدمتهما له ، وبالغ فى إكرامهما ، وأقطعهما إقطاعات جليلة وتَرَقَّتْ [٤] أحوالهما عنده ، فلما فتح عماد الدين زنكى بعلبك ، جعل نجم الدين أيوب

---

(١) كلمة فارسية مكونة من لفظين : دُزْ — ويقال دِزْ — أى قلعة ، ودار الحافظ أو المسك ، فكأن معناها صاحب القلعة أو متوليها ؛ انظر : (الجواليقى : المعرب ، ص ٢٦٧ ؛ ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧٢ ؛ Dozy : *Sup. Dict. Arab*) .

(٢) المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله (٥١٢ — ٥٢٩) ؛ انظر تفاصيل هذه الحرب بينه وبين زنكى فى : (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٨٩ ؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧) .

(٣) فى الأصل : « وأخاه » .

(٤) أضفنا ما بين الحاصرتين ليتضح المعنى .

دِزْدَاراً فيها ، فلم يزل متوليها إلى أن قُتل عماد الدين زنكى على قلعة جعبر سنة إحدى[1] وأربعين وخمسمائة — على ما سنذكره .

وكان صاحب دمشق إذ ذاك مجير الدين أَبَق[2] ، بن جمال الدين محمد ، ابن تاج الملوك بُورى[3] ، بن ظهير الدين طُغْتِكين ؛ وكان طُغْتِكين هذا أتابك الملك شمس الملوك دُقَاق ، بن تاج الدولة تُتُش ، بن السلطان أَلْب أرسلان السلجوقى ؛ فلما مات دُقَاق استقل طُغْتِكين بملك دمشق ، وملك بعده ابنه تاج الملوك بورى ، ثم ملك بعد تاج الملوك ابنه شمس الملوك إسماعيل ، فقتلته والدته ، وملَّكت أخاه شهاب الدين محمود ، بن بُورى[3] ؛ ثم قُتل شهاب الدين ، وولى أخوه جمال الدين محمد ؛ ثم توفى جمال الدين ، وملك بعده ولده مجير الدين أَبَق[2] ، وكان أتابكه والقيِّمَ بأمره معينُ الدين أُنَر[4] — مملوك جده طُغْتِكين — .

فلما قُتل عماد الدين زنكى على قلعة جَعْبَر ، راسل مجيرُ الدين وأتابكه معينُ الدين نجمَ الدين أيوب ليسلم إليهما بعلبك ، على أن يعطوه إقطاعاً جليلاً بدمشق ، فأجابهما إلى ذلك ، وسلَّم إليهما بعلبك ، ونزل نجم الدين أيوب بدمشق ، وتسلم الإقطاع الذى عُيِّن له ؛ وقد ذُكر أن تسليم نجم الدين أيوب بعلبك

(١) فى الأصل : « أحد » .

(٢) فى الأصل : « أتق » ، وقد صحح الاسم بعد مراجعة : (Zambaur, Op. Cit. P. 225) ومجير الدين أبق هو سادس وآخر من حكم دمشق من بنى بورى ، حكمها فى سنة ٥٣٤ ، وظل يحكمها إلى أن عزله عنها نور الدين محمود بن زنكى فى سنة ٥٤٩

(٣) فى الأصل « نورى » .

(٤) تكاد تجمع المراجع على ضبط هذا الاسم هكذا « أُنَر » ولكن الذهبى انفرد بضبطه كما فى المتن ونص عليه « على الألف ضمة وفتح النون » وقد توفى معين الدين أنر فى سنة ٥٤٤ ، ودفن بدمشق بقبته بين دار البطيخ والشامية ، وبنى فى دمشق مدرسته المعينية لتدريس المذهب الحنفى . انظر : (النعيمى : الدارس فى المدارس ، ج ١ ، ص ٥٨٨ ؛ (Zambaur: Op. Cit. P. 30, 225)

إلى صاحب دمشق كان سببه أنه راسل الأمير سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى — وهو أكبر من أخيه نور الدين محمود — رحمه الله — ليسلم إليه بعلبك ويرسل إليه من يحفظها ، فأبطأ عليه بسبب اشتغال سيف الدين بترتيب الممالك الشرقية ، وخاف نجمُ الدين أن تؤخذ منه عنوة ، ويناله أذى ، فسلَّمها إلى صاحب دمشق بسبب ذلك .

واتصل الأمير أسد الدين شِيرْكوه بن شاذى — أخو نجم الدين أيوب — بخدمة نور الدين محمود ، بن عماد الدين زنكى ، وصار من أخص أصحابه ، ومقدماً على سائر أمرائه ، لما عرفه من شهامته وشجاعته ، وإقدامه فى الحرب على ما لا يقدم عليه غيره ؛ ولم يزل حاله ينمو عنده إلى أن أقطعه مدينتىْ حمص والرحبة .

ولما قويت أطماع نور الدين محمود بن زنكى فى ملك دمشق [٥] وأخذها من صاحبها مجير الدين أبَق بن محمد ، أمر أسد الدين شيركوه بمكاتبة أخيه نجم الدين أيوب ، وكان بها مقيماً ، وطلب منه مساعدته على ما هو بصدده ، فطلب هو وأخوه نجم الدين أيوب من الإقطاع شيئاً كثيراً ببلد دمشق ، فبذل لهما نور الدين ما طلبا ، وحلف لهما على ذلك فساعد نجمُ الدين فى تسليم البلد إلى نور الدين ، فتسلمه ، ووفى لهما بما حلف لهما عليه ، وصارت منزلتهما عنده فى أعلا الرتب ؛ وصار أسد الدين شيركوه مقدم جيوشه وعساكره .

ثم كان من قصد أسد الدين الديار المصرية بعساكر نور الدين ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ولما كان ابتداء أمر نجم الدين وأخيه أسد الدين مبنيا على الدولة الأتابكية كان الأولى الابتداء بذكر الدولة الأتابكية .

ذكر ابتداء الدولة الأتابكية

كان قسيم الدولة آق سُنْقُر الحاجب . جَدُّ نور الدين محمود بن زَنْكِي — مملوكاً للسلطان العادل عضد الدولة ألب أرْسَلان ، بن داود ، بن ميكاييل ، بن سلجوق ، فربى مع ولده السلطان العادل جلال الدولة ملكشاه ، واستمر فى صحبته إلى حين كبره ، وإفضاء السلطنة إليه ، فجعله من أعيان دولته ، وأكابر أمرائه ، وأخص أوليائه ، واعتمد عليه فى أموره كلها ، وعلت مرتبته ومنزلته إلى أن لُقِّب : « قسيم الدولة » .

وفى سنة ست وسبعين وأربعماية سيّر السلطانُ جلالُ الدولة [ملكشاه] فخرَ الدولة بن جهير (١) إلى ديار بكر ليتسلمها ، وأعطاه الكوسات (٢) ، وسيّر معه العساكر ، فسار إليها ، ونزل بنواحى آمد .

وفى سنة سبع وسبعين وأربعمائة أردفه السلطان بجيش كثيف من جملتهم الأمير أُرْتُق بن أكْسَب (٣) — أبو الملوك الأُرْتُقية — وكان صاحبها وهو ابن مروان

---

(١) هو أبو نصر فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير ، ولى الوزارة للخليفتين القائم والمقتدى ، وتوفى سنة ٤٨٣ ؛ انظر أخباره فى : (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٩ ، ص ٢ وما بعدها ؛ ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٦٠ — ٢٦٤) .

(٢) عرفها (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٩ و ١٣) بأنها صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ، ومن يتولى ذلك يسمى الكوسى ؛ ويشبه أن يكون المقصود بها موسيقى الجيش أو (الطبلخاناة) — كما كانت تسمى فى مصطلح العصور الوسطى — ؛ وفى (المنتظم : ج ٩ ، ص ٦) جملة توضح هذا المعنى وتؤكده ، قال : « وعقد للوزير فخر الدولة على ديار بكر ، وخلع عليه الخلع ، وأعطى الكوسات ، وأذن له فى ضربها أوقات الصلوات الخمس بديار بكر ، والصلوات الثلاث : الفجر والمغرب والعشاء فى المعسكر السلطانى » .

(٣) فى الأصل : « أكشت » ، وقد ضبط الاسم بعد مراجعة (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ١٠٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٤ ؛ (Lane-Poole: *M. Dynasties*, P. 166) وذكر ابن خلكان أنه يقال فيه أيضاً : « أكسك » وبهذا النطق أخذ (Zambaur: Op. Cit. P. 230) فرسمه هكذا : "Ortoq b. Eksek") ؛ أنظر ترجمة حياته وبياناً بأفراد أسرته فى هذه المراجع جميعاً نفس الأجزاء والصفحات .

الكردى(١) — لما نازلته العساكر السلطانية قد مضى إلى الأمير شرف الدولة مسلم ابن قريش بن بدران العقيلى — صاحب الموصل — راغباً فى أن ينصره ويساعده على من قصده، على أن يسلم إليه آمد، فأجابه إلى ذلك، واتفقا عليه، وتحالفا، واجتمعا على حرب فخر الدولة بن جهير.

فلما رأى فخر الدولة اجتماعهما مال إلى الصلح، وقال: « لا أوثر [٦] أن يحل بالعرب بلاء على يدى. » فعلم التركمان ما قد عزم عليه، فركبوا ليلاً، وأتوا إلى العرب، واحتاطوا بهم، وذلك فى ربيع الأول من هذه السنة؛ والتحم القتال واشتد، وانهزمت العرب، ولم يحضر هذه الوقعة فخر الدولة، ولا أُرْتُق؛ وغنم التركمان حلل العرب ودوابهم، وانهزم شرف الدولة، وحمى نفسه حتى دخل إلى آمِد، فانحصر فيها، ونازله فخر الدولة ومن معه، فراسل شرفُ الدولة [مسلم بن قريش] الأميرَ أُرْتُق، وبذل له مالا، وسأله أن يمن عليه بنفسه(٢) ويمكنه من الخروج [من آمد(٣)] وكان هو على حفظ الطرق [والحصار(٣)]، فأذن له فى الخروج، فخرج لتسع(٤) بقين من ربيع الأول، وقصد الرقة وأرسل إلى الأمير أُرْتُق

---

(١) ابن مروان المذكور هنا هو واحد من بنى مروان حكام ميافارقين وآمد فى القرن الخامس الهجرى، وهو أبو المظفر منصور بن نظام الدين أبو القاسم نصر بن نصر الدولة أبى نصر أحمد بن مروان الكردى، حكم ميافارقين وآمد فى المدة بين سنتى ٤٧٢ و٤٧٨، (Zambaur: Op. Cit. P. 136).

(٢) فى الأصل: « أن يمن على نفسه »، وما هنا عن (ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٥٤). ويلاحظ أن المؤلف ينقل هذه الحوادث عن ابن الأثير نقلا حرفياً فى معظمه وبايجاز يسير فى أقله دون أن ينص على ذلك؛ والرأى عندى أن ابن واصل إما أنه ينقل عن ابن الأثير للتشابه التام بين النصين وإما أنه ينقل عن المرجع الذى أخذ عنه ابن الأثير، وذلك لأن ابن الأثير لم يكن معاصراً لهذه الحوادث.

(٣) ما بين الحاصرتين زيادات عن ابن الأثير للايضاح.

(٤) فى ابن الأثير: « فخرج منها فى الحادى والعشرين من ربيع الأول »، وما فعله ابن واصل فى المتن نموذج لأسلوبه فى الايجاز عن ابن الأثير أو عن مرجع ابن الأثير.

ابن أَكْسَبْ بما [كان (١)] وعده [به (١)] ، ثم سار فخر الدولة بن جهير إلى ميافارقين ، ومعه الأمير بهاء الدولة [منصور (١)] بن مزيد — صاحب الحلة — وابنه الأمير سيف الدولة صدقة ، ففارقوه ، وعاد إلى العراق . ثم نازل فخرُ الدولة خِلاط .

ولما بلغ السلطان جلال الدولة (ملكشاه) انهزام شرف الدولة وحصره بآمد ، لم يشك فى أسره ، فخلع على الوزير عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير ، وسيَّره فى جيش كثيف إلى الموصل ، وسيَّر معه من الأمراء : الأمير قسيم الدولة آق سنقر الحاجب — المقدم ذكره — ؛ وكان الأمير أرتق قد رجع إلى السلطان ، وعاد صحبته (٢) عميد الدولة من الطريق ، ونازلوا الموصل وأرسلوا إلى أهلها يشيرون عليهم بطاعة السلطان ، ففتحوا البلد وسلموه إليهم ؛ وسار السلطان بنفسه إلى بلاد شرف الدولة ليملكها ، (٣ وكانت بلاده الموصل ، وديار ربيعة أجمع ، ومدينة حلب ، ومنبج ، وما بينهما من البلاد الجزرية والفراتية ٣) ؛ فأتاه الخبر بحركة أخيه تكش بخراسان ، ورأى شرف الدولة قد خرج من الحصر ، فأرسل مؤيد الملك بن نظام الملك إلى شرف الدولة — وهو مقابل الرحبة — فأعطاه العهود والمواثيق ، فحضر إلى عند السلطان — وهو بالبَوَازِيج (٤) — فخلع عليه ، وذلك سلخ رجب ، وكانت أمواله قد ذهبت ، فاقترض ما خدم به [٧] ، وحمل للسلطان خيلاً رائقة (٥) ،

(١) ما بين الحاصرتين زيادات عن ابن الاثير للايضاح .

(٢) فى الأصل : « وعاد عن صحبه عميد الدولة » . والتصحيح عن : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٥٤ — ٥٥) .

(٣) هذه الجملة غير موجودة فى ابن الأثير ، وإنما أضافها ابن واصل للايضاح ، وهكذا اعتاد عند ذكر أسماء الأعلام والبلدان أن يضيف اليها ما يعرف بها .

(٤) فى الأصل : « البواريج » ، وقد ضبطت بعد مراجعة ابن الأثير وياقوت ، وقد عرفها الأخير فى (معجم البلدان) بأنها بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب فى دجلة ، ويقال لها بوازيج الملك وهى من اعمال الموصل ؛ ثم قال : وبوازيج الأنبار موضع آخر .

(٥) فى الأصل : « رابعة » ، والتصحيح عن ابن الأثير .

من جملتها فرسه بشار — وهو فرسه المشهور الذى نجّاه من المعركة على ما هو مذكور فى أخباره — وكان لا يجارى ؛ فأمر السلطان أن يُسابَق به الخيلُ ، فجاء سابقاً لها كلها ، فقام السلطان قائماً لما تداخله من العجب .

وأقر السلطان شرف الدولة على بلاده ، وأعاد إليه الموصل ، وهذا كله مذكور فى موضع آخر يليق به ، وإنما سقناه هنا لتتصل أخبار آق سنقر التى نحن بصددها .

وكان صاحب قونية وأقصرا وما يتصل بهما من البلاد الرومية الملك سليمان ابن قطلمش — وهو ابن عم السلطان جلال الدولة ملكشاه — فقصد فى هذه السنة — أعنى سنة سبع وسبعين وأربعمائة — مدينة أنطاكية وهى بيد الروم — وكان ملكوها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة — .

وكان صاحبها الفردوس الرومى قد سار عنها إلى بلاد الشام ، ورتّب فيها شِحْنَة ، — وكان الفردوس سيىء السيرة فى رعيته وفى جنده جداً — ، وكاتب (سليمانُ) الشحنة وابن الفردوس . لأن أباه (الفردوسَ) كان قد حبسه ؛ فكاتبهما سليمان ليسلموا البلد إليه ، وركب البحر وقصدها فى ثلاثمائة فارس ، وراجل كثير ، ثم خرج من البحر ، وسار فى جبال وعرة ومضايق شديدة حتى وصل إليها للموعد . فنصب عليها السلاليم باتفاق من الشحنة وابن الفردوس ، وصعد السور ، واجتمع بالشحنة ، ودخل البلد ، وذلك فى شعبان ، فقاتله أهلها ، فهزمهم (مرة) بعد أخرى ، وقُتل كثير من أهلها ، ثم عفا عنهم ، وتسلم القلعة المعروفة بالقُسَيَّان (١) ، وأخذ من الأموال ما يجاوز الإحصاء وأحسن الى الرعية وعدل فيهم ، وأمر بعمارة ماخُرِّب ، ومنع أصحابه من النزول فى دورهم ومخالطتهم ، وأرسل الى السلطان جلال الدولة ملكشاه يبشره بذلك .

---

(١) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها واد ولم يزد .

وأرسل الأمير شرف الدولة [مسلم بن قريش[١]] – صاحبُ حلب والموصل — إلى الملك سليمان يطلب منه ما كان الفردوس يحمله من المال ، ويُخوِّفه معصية السلطان ، فأجابه : « أما الطاعة للسلطان فهى شعارى ودثارى ، والخطبة له والسكة فى بلادى [٨] وقد كاتبته بما فتح الله على يدى بسعادته من هذا البلد [وأعمال الكفار[١]] ، وأما المال الذى كان يحمله صاحب أنطاكية [قبلى[١]] فهو كان كافراً ، وكان يحمل جزيته وجزية أصحابه ، وأنا بحمد الله مؤمن ، ولا أحمل شيئاً » ، فنهب شرف الدولة بلد أنطاكية ، فنهب سليمان بلد حلب ؛ ووقعت بينهما فتنة[٢] اقتضت أنهما التقيا فى يوم الجمعة الرابع والعشرين من صفر فى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فانهزم شرف الدولة وأصحابه بعد أن قتل بين يديه أربعمائة غلام من أحداث حلب [ثم قُتل شرف الدولة مسلم بن قريش فى نفس اليوم — الرابع والعشرين من صفر[٣] —] .

[ولما قُتل شرف الدولة سار سليمان بن قتلمش إلى حلب] ، فحصرها إلى خامس ربيع الآخر ، فلم يبلغ منها غرضاً ، فرحل عنها . وكان [سليمان بن قتلمش[٣]]

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادات عن ابن الأثير للايضاح .

(٢) انظر تفاصيل هذه الفتنة فى (ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٦) فقد تجاوز ابن واصل عنها هنا إيجازاً .

(٣) النص هنا لا يستقيم مع المعنى ، لأن شرف الدولة قتل فى هذه السنة بعد هزيمته مباشرة ، والذى تولى حصار حلب بعد موته هو سليمان بن قتلمش ؛ والراجح عندى أن المؤلف لم يلتفت إلى هذا الخلط وهو يوجز عن ابن الأثير ، أو أن هنا سقطا من عمل الناسخ سبب هذا الاضطراب فى المعنى ، وقد أضفنا ما بين الحاصرتين للتصحيح والايضاح بعد مراجعة (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٥٧) ، وقد ترجم هناك لشرف الدولة بعد ذكر موته ترجمة مختصرة مفيدة نؤثر نقلها هنا إتماماً للفائدة ، قال : « وكان أحول ، وكان قد ملك من السندية التى على نهر عيسى إلى منبج من الشام وما والاها من البلاد ، وكان فى يده ديار ربيعة ومضر من أرض الجزيرة والموصل وحلب ، وما كان لأبيه وعمه قرواش ، وكان عادلا حسن السيرة ، والأمن فى بلاده عام والرخص شامل ، وكان يسوس بلاده سياسة عظيمة بحيث يسير الراكب =

قد أرسل إلى ابن الحتيتى (١) العباسى — مقدم حلب — يطلب منه تسليمها إليه ، فأنفذ إليه مالاً ، واستمهله إلى أن يكاتب السلطان جلالَ الدولة ملكشاه ، وأرسل ابن الحتيتى إلى الملك تاج الدولة تُتُش ابن السلطان العادل عضد الدولة ألْب أرسلان — أخى السلطان — وهو يومئذ صاحب دمشق ، يعده أن يسلم إليه حلب ، فسار تاج الدولة [تُتُش] طالباً حلب ، وذلك فى (٢) سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، فسار إليه ابن عمه سليمان بن قُطُلُمُش (٣) ، ومع تاج الدولة الأمير أُرْتُق بن أكْسَب ، وكان قد فارق ابن جَهِير خوفاً أن ينهى إلى السلطان إطلاق شرف الدولة من آمد — كما ذكرنا — وصار إلى خدمة تاج الدولة ، فأقطعه البيت المقدس وما يتصل به . ثم التقى العسكران ، فانهزم أصحاب الملك سليمان ، وثبَت هو فى القلب ، فلما رأى انهزام عساكره قيل إنه أخرج سكيناً [كانت] معه فقتل بها نفسه ، وقيل بل قُتل فى المعركة ، واستولى تاج الدولة على معسكره .

وكان سليمان فى السنة الماضية — فى صفر — أنفذ جثة شرف الدولة ملفوفة فى إزار على بغل ، وطلب من أهل حلب أن يسلموها إليه ، وفى هذه السنة — فى صفر — أرسل الملك تاج الدولة جثة الملك سليمان فى إزار على بغل ، وطلب من أهل حلب أن يسلموها إليه ، فأجابه [ابن] الحتيتى أنه يكاتب السلطان ، ومهما أمره فعل ، فحصر تاج الدولة البلد ، وضيَّق على أهله ، وسلم ابن الحتيتى كل برج من أبراجها

= والراكبان فلا يخافان شيئاً ، وكان له فى كل بلد وقرية عامل وقاض وصاحب خبر بحيث لا يتعدى أحد على أحد » .

أنظر أيضاً : (Zambaur: O p. Cit. p. 135.)

(١) فى الأصل : « الحيتى » والتصحيح عن ابن الأثير .

(٢) فى الأصل : « وذلك فى » وبها انتهى السطر ، ثم بدأ السطر التالى بقوله : « وفى سنة تسع وسبعين الخ » وقد صححت بعد مراجعة (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٦٠) .

(٣) رسم هذا اللفظ فى الأصل تارة بالتاء وتارة بالطاء .

إلى رجل من أعيان البلد ليحفظه ، [٩] وسلَّم برجاً من أبراجها إلى إنسان يعرف بابن الراعوني[١].

ثم إن ابن الحتيتي أوحش هذا الرجل بكلام أغلظ له فيه ، وكان شديد القوة ، ورأى ما الناس فيه من ضيق الحصار ، فراسل تاج الدولة يستدعيه ، وواعده ليلة برفع الرجال إلى السور فى الحبال ، فأتى تاج الدولة [تُتُش[٢]] للميعاد ، فأصعد الرجال فى الحبال والسلالم ، وملك تاج الدولة البلد .

واستجار ابن الحتيتي بالأمير أُرْتُق فشفع فيه ، وكان بالقلعة سالم بن مالك ابن بدران العقيلي — وهو ابن عم شرف الدولة [مسلم بن قريش[٢]] — فأقام تاج الدولة يحصر القلعة سبعة عشر يوما ، ثم بلغه وصول مقدمة أخيه السلطان ، فرحل عنها إلى دمشق .

وكان ابن الحتيتي قد كاتب السلطان [ملكشاه[٢]] ليسلم إليه حلب ، فسار إليه من أصفهان ، وعلى مقدمته الأمير برسق ، وبُزَان[٣] ، وغيرهما من الأمراء ؛ وجعل طريقه على الموصل ، فوصلها فى رجب ، وسار عنها ووصل إلى حَرّان فسلمها إليه ابن الشاطر ، فأقطعها الأمير محمد بن شرف الدولة بن بدران ، ثم سار إلى الرُّها — وهى بيد الروم — فحصرها وملكها ، وكانوا قد اشتروها من ابن عطير .

ثم سار إلى قلعة جَعْبَر ، فحصرها يوماً وليلةً وملكها ، وقتل جمعاً من بنى قُشَيْر[٤] ، وأخذ جَعْبَراً صاحب القلعة[٥] — وكان شيخاً أعمى — وولدين له ، وكانوا يقطعون الطريق ويخيفون السبيل ، ثم عبر منها الفرات ، فملك مدينة منبج فى طريقه

(١) كذا فى الأصل ، وفى ابن الأثير : « ابن الرعوى » .
(٢) أضفنا ما بين الحاصرتين للايضاح .
(٣) كذا فى الأصل ، وفى ابن الأثير : « بوزان » .
(٤) فى الأصل : « بشير » ، والتصحيح عن : (ياقوت : معجم البلدان ، مادة جعبر) .
(٥) ذكر (ياقوت : معجم البلدان) أن جعبر قلعة على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين ، وكانت قديما تسمى « دوسر » فملكها رجل من بنى قشير أعمى يقال له جعبر بن مالك ، ولما قصد السلطان جلال الدين ملك شاه بن أرسلان ديار ربيعة ومضر نازلها وأخذها من جعبر ونفى عنها بنى قشير .

ولما قارب حلب رحل أخوه تاج الدولة — كما ذكرنا — على البرية ، ومعه الأمير أُرْتُق ، وكان أشار أُرْتُق على تاج الدولة أن يكبس السلطان ، وكانوا قد وصلوا ، وبهم وبدوابهم من التعب ما لم يبق معه امتناع ، ولو فَعَل لظفر بهم ؛ فقال تاج الدولة : « لا أ كسر جاه أخي الذى أنا مستظل بظله ، فإنه يعود علىّ بالوهن أولا » . وسار إلى دمشق .

ولما وصل السلطان إلى حلب تسلم المدينة ، وسلم إليه شمسُ الدولة سالمُ ابن مالك [١] بن بدران القلعةَ على أن يعوِّضه عنها قلعة جعبر ، وكان قد امتنع بالقلعة أولا [١٠] فأمر السلطان أن يرمى إليه بالنشاب رشقاً واحدا ، فرمى الجيش كله عن يد واحدة ، فكادت الشمس أن تحتجب من كثرة النشاب فعوضه السلطان عنها قلعة جعبر ، ولم تزل بيده ويد أولاده إلى أن أخذها منهم الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى [٢] — رحمهم الله — على ما سنذكره .

وأرسل الأمير نَصْر [٣] بن على بن منقذ الكنانى — صاحب شَيْزَر — إلى السلطان ، ودخل فى طاعته ، وسلم إليه اللاذقية ، وكفر طاب ، وفامية ، [فأجابه إلى المسالمة ، وترك قصده ، وأقرّ عليه شَيْزَر [٤]] .

---

(١) فى الأصل « مالك بن سالم » ، والتصحيح عن ابن الأثير و (Zambaur: Op. Cit. p. 135)

(٢) ولى شمس الدولة سالم بن مالك بن بدران العُقَيلى قلعة جعبر من سنة ٤٧٩ إلى ٥١٩ ، ثم وليها من بعده شهاب الدولة مالك بن على بن سالم إلى سنة ٥٦٤ حيث ملكها نور الدين محمود ، أنظر : (Zambaur: Op. Cit, P. 135) .

(٣) فى الأصل : « نصير » وهو الأمير عز الدولة أبو مرهف نصر بن على بن نصر بن منقذ . (Zambaur: Op. Cit. p.104)

(٤) مابين الحاصرتين زيادة عن ابن الأثير للايضاح ، وقد أسقطها المؤلف عند الاختصار ، هذا وفى ابن الأثير فقرة أخرى — أسقطها المؤلف أيضاً — تشير إلى مصير ابن الحتيتى ، وقد آثرنا ذكرها هنا لتتم الفائدة ، قال : « وأما ابن الحتيتى فكان واثقاً باحسان السلطان ونظام الملك اليه ، فانه استدعاهما ، فلما ملك السلطان البلد طلب أهله أن يعفيهم من ابن الحتيتى ، فأجابهم إلى ذلك واستصحبه معه ، وأرسله إلى ديار بكر ، فافتقر وتوفى بها على حالة شديدة من الفقر ، وقتل ولده بأنطاكية ، قتله الفرنج لما ملكوها » .

ذكر استيلاء الأمير قسيم الدولة آق سنقر الحاجب على مدينة حلب

ولما تسلم السلطان حلب سلمها إلى حاجبه الأمير قسيم الدولة آق سنقر فى هذه السنة — أعنى سنة تسع وسبعين وأربعمائة — وقيل بل سلَّمها إليه سنة ثمانين ، فاستولى عليها وعلى أعمالها : كمنبج ، واللاذقية ، وكفر طاب ؛ وأقطع السلطان مدينة الرُّها مجاهد الدولة بُزَان [١] ، وأقطع أنطاكية الأمير ياغى سيان [٢] ؛ وظهرت كفاءة الأمير قسيم الدولة وحمايته ، وعظمت هيبته فى جميع بلاده .

ثم إن السلطان استدعاه إلى العراق فتقدم عليه فى تجمل عظيم ، ولم يكن فى عسكر السلطان من يقاربه ، فاستحسن ذلك منه ، وعظم محله عنده ، ثم أمره بالعود إلى حلب ، فعاد إليها ، ورخصت الأسعار فى أيام الأمير قسيم الدولة ، وأقيمت الحدود الشرعية ، وعمرت الطرقات ، وأمنت السبل ، وقتل المفسدون بكل فج ، وكان كلما سمع بمفسد أو بقاطع طريق أمر بصلبه على أبواب المدينة .

وفى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة جمع الأمير قسيم الدولة عسكره ، وقصد شَيْزَر وحاصرها وصاحبها نصر بن على بن منقذ ، وضايقها ونهب ربضها ، ثم صالحه صاحبها وعاد إلى حلب .

---

(١) هو أبو الفوارس مجاهد الدين بوزان بن مامين الكردى ، توفى سنة ٥٥٥ ؛ أنظر أخباره وترجمته فى : (ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٩ والصفحات المذكورة فى الفهرس الأبجدى) .

(٢) فى الأصل : « باغى سيار » ، وقد ضبط الاسم بعد مراجعة : (ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١٧) ؛ وهو فى (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ١١٣) : « باغيسيان » وفى (ياقوت : معجم البلدان ، مادة أنطاكية) : « بغيسغان » ؛ وعن أخباره واستيلاء الفرنج على أنطاكية أثناء حكمه لها أنظر : (حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ج ٤٨ وما بعدها وما به من مراجع) .

وفى سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة أسس القاضى أبو الحسن بن الخشاب (١) منارة حلب ، وكان بحلب بيت معبد نار ، قديم العمارة ، وصار بعد ذلك أتون حمام ، فأخذ ابن الخشاب حجارته ، وبنى بها المنارة ، فأنهى بعض حُسّاده إلى الأمير قسيم الدولة خبره ، فغضب على القاضى ابن الخشاب ، فاستحضره وقال : « هدمت معبداً هو لى وملكى » . فقال : « أيها الأمير ، هذا معبد للنار ، وقد صار أتوناً [١١] فأخذت حجارته لأعمِّر بها معبداً للإسلام ، يُذكر فيه اللهُ وحده لا شريك له ، وكتبتُ اسمك عليه ، وجعلت الثوابَ لك ، فإن رسمتَ غرمت ثمنه لك (٢) ، ويكون الثواب لى ، فعلتُ » . فأعجب الأمير كلامُه ، واستصوب رأيه ، وقال : « بل الثواب لى ، وافعل ماتريد » . فشرع فى عمارة المنارة وانتهى فى سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة .

منازلة قسيم الدولة حمص واستيلاؤه عليها

فى هذه السنة نازل الملك جلال الدولة تُتُش بن السلطان ألب أرسلان ، والأمير قسيم الدولة آق سنقر ، والأمير مجاهد الدولة بُزَان (٣) — صاحب الرُّها — حِمصَ ، وسبب

---

(١) هو القاضى أبو الحسن محمد بن يحيى بن محمد بن الخشاب ؛ والمؤلف لاينقل هنا عن ابن الأثير ، وإنما ينقل قطعا عن تاريخ حلب لابن العديم ، فقد نقل هذا النص عنه ابن الشحنة فى :(الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ، ص ٦٦ — ٦٧) ، وعليه راجعنا النص هنا وصححناه لأننا لم نتمكن من مراجعة تاريخ ابن العديم فانه لم يطبع بعد ؛ وأنظر ترجمة القاضى أبى الحسن فى : (ابن الشحنة ، ص ٦٨) .

(٢) النص فى ابن الشحنة : « فان رسمت لى أن أغرم ثمن الأحجار ويكون الثواب لى فعلت » وانظر هناك أخباراً تفصيلية عن هذه النار وتاريخها .

(٣) فى الأصل : « مجاهد الدولة بن ألب أرسلان » وهو خطأ ، والصحيح ماذكرناه بعد مراجعة : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٨٣) أنظر أيضاً ما فات ، ص ١٩ ، هامش ١

ذلك أنها كانت بيد سيف الدولة خلف بن ملاعب الأشهبى [١] ، فأساء السيرة ، ونزل على سَلَمِيَة ، وأخذ الشريف إبراهيم الهاشمى ، ورماه بالمنجنيق إلى برج سَلَمِيَة ، وأخذ قوماً من بنى عمه مأسورين ، فمضى من بقى منهم واستغاثوا إلى السلطان جلال الدولة ملكشاه ، فخرج أمر السلطان إلى أخيه تاج الدولة — صاحب دمشق — وقسيم الدولة — صاحب [حلب — ومجاهد الدولة بُزَان — صاحب [٢]] الرُّها — بالنزول على حمص ، والقبض على ابن ملاعب وتسييره ؛ فنزلوا على حمص وحاصروها ، وأخذوه وسيّروه إلى السلطان ، فأقام فى الحبس إلى أن توفى السلطان ، فأطلقته خاتون زوجة السلطان . وتسلم آق سنقر قلعة حمص ومدينتها ، ولما خلص ابن ملاعب من الحبس صار إلى مصر ثم عاد منها وتسلم حصن أفامية ، وبقيت فى يده سبع عشرة سنة وكان مدة ملكه بحمص سبع عشرة سنة .

وفى سنة أربع وثمانين وأربعمائة تسلم قسيم الدولة حصن أفامية .

ثم سار تاج الدولة ، ومعه قسيم الدولة آق سنقر ، إلى طرابلس ، فحاصرها ، وبها صاحبها جلال الملك بن عمار ، فرأى جيشاً لا يُدفع بحيلة ، ولم يرَ فيهم مطمعا ، وكان مع الأمير قسيم الدولة آق سنقر وزيرٌ [٣] فراسله ابن عمار ، فرأى فيه لينا ، فأتحفه وأعطاه ، فسعى مع صاحبه قسيم الدولة فى إصلاح حاله ، ليدفع عنه ، ويحمل إليه ثلاثين ألف دينار وتحفاً بمثلها ، وعرض عليه [١٢] المناشير التى بيده

---

(١) كذا بالأصل ، ولم أجد أحداً من المؤرخين نعته هذا النعت غير ابن واصل ، وإنما اتفقوا جميعاً على تسميته بخلف بن ملاعب الكلابى ، أنظر : (ابن القلانسى ، ص١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٤٩) و (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٨٣ وما بعدها) و (كرد على : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٢٦٩ وما بعدها) .

(٢) ما بين الحاصرتين ورد بهامش الأصل ، وأشير إلى مكانه بعلامة فى المتن .

(٣) فى الأصل : « وزيرا » وقد ذكر (ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ٨٣) أن هذا الوزير كان اسمه : « زرين كمر (؟) » .

من السلطان بالبلد ، والتقدم إلى النواب بتلك البلاد بمساعدته ، والشدّ معه [١] والتحذير من مخالفته ؛ فقال قسيم الدولة لتاج الدولة : « لا أقاتل مَنْ هذه المناشير بيده » . فأغلظ له تاج الدولة ، وقال : « هل أنت إلا تابع لى ؟ » فقال قسيم الدولة : « أنا أتابعك ، إلا فى معصية السلطان فلا » . ورحل من الغد عن موضعه ، فاضطر تاج الدولة إلى الرحيل ، فرحل غضبان ، وعاد مجاهد الدولة بُزَان إلى بلاده .

وفى سنة خمس وثمانين وأربعمائة اجتمع مع الأمير شرف الدين إبراهيم ابن قريش بن بدران العقيلى — صاحب الموصل — عرب كثير ، وكان معتقلا فى قبضة أخيه ، فلما قتل استبد بالأمر ، وانضاف إليه خلق كثير من العرب ، وكان محبوباً كريماً ، فلقيه الملك جلال الدولة ، والأمير قسيم الدولة ، فهزموه ، ونهبوا من معه من العرب ، وسبوا نساءهم [٢] .

وفى هذه السنة توفى السلطان جلال الدولة ملكشاه ببغداد ، فطمع أخوه [٣] تاج الدولة — صاحب دمشق — فى السلطنة ، واستمال قسيمَ الدولة — صاحب حلب — ، ومجاهدَ الدولة بُزَان — صاحب الرُّها — ، وكان تاج الدولة — قبل ذلك — فى خدمة أخيه ببغداد ، فلما انفصل راجعاً إلى بلاده ، بلغته وفاة أخيه وهو بهَيْت ، فسار إلى دمشق ، وتجهز وجمع العساكر ، وأنفق الأموال ، وسار نحو حلب ، فخرج قسيم الدولة إلى خدمته ، ودخل فى طاعته ، وأرسل إلى ياغيسيان [٤] — صاحب أنطاكيه — ، وبُزَان — صاحب الرُّها — وأشار عليهما بالدخول فى طاعة السلطان تاج الدولة حتى يروا ما يكون من أولاد السلطان ملكشاه ،

---

(١) فى الأصل : « منه » ، والتصحيح عن ابن الأثير .

(٢) أنظر أخبار ابراهيم بن قريش بن بدران العقيلى التفصيلية من سنة ٤٨٢ إلى أن تمت عليه الهزيمة فى هذه السنة ٤٨٥ فى : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩١) .

(٣) فى الأصل : « أخاه » .

(٤) فى الأصل : « باغى سيار » ؛ أنظر ما فات ، ص ١٩ ، هامش ٢

فإنه كان بينهم يومئذ حلف كبير ، ففعلوا ذلك ، ودخلوا تحت طاعته ، واتفقوا على الخطبة له على منابر بلادهم ، ثم قصدوا الرحبة ، وحاصروها ، وملكوها فى المحرم [١] سنة ست وثمانين وأربعمائة ، وخطب لنفسه بالسلطنة ، ثم سار إلى نصيبين — وبها نواب إبراهيم بن قريش بن بدران العقيلى — صاحب الموصل — فحصرها وفتحها عنوة [١٣] وقتل من أهلها خلقاً كثيراً ، ونهب الأموال ، وفعل الأفعال القبيحة ، ثم سلمها إلى الأمير محمد بن شرف الدولة بن بدران ، وسار يريد الموصل .

وكان الأمير إبراهيم بن قريش بن بدران قد استدعاه السلطان ملكشاه سنة اثنتين وثمانين ليحاسبه ، فلما حضر عنده اعتقله ، وأنفذ فخر الدولة بن جهير إلى البلاد ، فملك الموصل وغيرها ، وبقى إبراهيم مع ملكشاه ، وسار معه إلى سمرقند ، وعاد إلى بغداد ، فلما مات السلطان [ملك شاه] أطلقته زوجته تركان [٢] خاتون ، فسار إلى الموصل .

وكانت صفية — عمة السلطان [ملكشاه [٣]] وزوجة شرف الدولة [٤] ، [ولها منه ابنه [٥]] على — ثم تزوجت بعد شرف الدولة بأخيه إبراهيم ، فأقطعها

---

(١) يتفق هذا التاريخ مع ماجاء فى (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩١) فهو ينقل عنه نقلا يكاد يكون حرفياً ، أما (Zambaur, Op. Cit. P. 30) فيذكر أن السلاجقة استولوا على الرحبة ونصيبين فى سنة ٤٨٥ .

(٢) فى الأصل : « بركات » ، والتصحيح عن : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩١) و (أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٢٠٣) .

(٣) أضفنا مابين الحاصرتين عن ابن الأثير للايضاح .

(٤) فى الأصل : « شرف الدين » والتصحيح عن ابن الأثير ، أنظر أيضاً السطور التالية هنا .

(٥) فى الأصل : « وابنه على » وبها يفسد المعنى ، والتصحيح عن : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩١) حيث ينقل عنه ابن واصل هنا نقلا يكاد يكون حرفياً .

السلطان [مدينة [١]] بَلَد ؛ فلما مات السلطان قصدت الموصل ومعها ابنها على ، فقصدها محمد بن شرف الدولة ، وأراد أخذ الموصل ، فافترق العرب فرقتين : فرقة معه ، وفرقة مع صفية — عمة السلطان — وابنها على ؛ فاقتتلوا بالموصل عند الكناسة ، فظهر [٢] على ، وانهزم محمد ، وملك سعد الدولة على بن شرف الدولة الموصل .

فلما وصل إبراهيم إلى جهينة — وبينه [٣] وبين الموصل أربعة فراسخ — سمع أن الأمير علياً — ابن أخيه — قد ملك الموصل ، ومعه أمه صفية خاتون — عمة السلطان [ملكشاه [١]] — ، فأقام مكانه ، وراسل صفية ، وترددت الرسل بينهما ، فسلمت إليه البلد ، فأقام به ، فلما ملك تاج الدولة [تُتُش [١]] نصيبين ، أرسل إليه يأمره أن يخطب له بالسلطنة ، ويعطيه طريقاً إلى بغداد لينحدر إليها ، [ويطلب الخطبة بالسلطنة [١]] فامتنع إبراهيم من ذلك ، فسار إليه تاج الدولة ، وتقدم [إبراهيم أيضاً [٤]] نحوه ، فالتقوا بالمضيع [٥] — من أعمال الموصل — فى ربيع الأول ؛ وكان إبراهيم فى ثلاثين ألفا ، وتاج الدولة فى عشرة آلاف ؛ وكان قسيم الدولة فى الميمنة ، وبُزَان فى الميسرة ، فتمت الهزيمة على العرب ، وأُسر إبراهيم ، وجماعة من أمراء العرب ، فقتلوا صبرًا ، وأُخذت أموالهم ، وسُبيت نساؤهم ، وقتل كثيرٌ من نساء العرب أنفسهن ، خوفا من الفضيحة .

وملك تاج الدولة [تُتُش] الموصل ، وولاها للأمير سعد الدولة على بن شرف الدولة — ابن عمته — ، وأرسل إلى بغداد يطلب من الخليفة المقتدى

---

(١) أضفنا ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير للايضاح .
(٢) فى ابن الاثير « فظفر » .
(٣) فى الأصل : « وبينها » ، والتصحيح عن ابن الأثير .
(٤) فى الأصل : « تاج الدولة » ولا يستقيم المعنى به ، والتصحيح عن ابن الأثير .
(٥) فى الأصل : « بالمصنع » وما هنا عن ابن الأثير ، ولم أجد لهذا المكان تعريفا فيما بين يدى من مراجع .

بأمر الله الخطبة [١٤] له بالسلطنة ، — وكان الشحنه ببغداد كوهرائين —[1] وقيل لرسوله : « إنما ننتظر وصول الرسل من العسكر » . وعاد إلى تاج الدولة الجواب .

ثم سار السلطان تاج الدولة تُتُش فملك ميَّافارقين ، وديار بكر أجمع ، وقويت شوكته ، وعظم أمره ، وسار إلى أذربيجان ؛ وكان ابن أخيه — السلطان ركن الدين بركيارق بن ملكشاه — قد قوى ، وصارت بيده الرىّ وهمذان وما يليهما ، فسار بالعساكر ليمنع عمه من البلاد ، ففارق قسيمُ الدولة آق سنقر ومجاهدُ الدين بزانُ تاجَ الدولة ، وانحازا إلى السلطان ركن الدين بركيارق ، فعاد تاج الدولة إلى الشام .

ذكر مقتل الأمير قسيم الدولة آق سنقر

ولما عاد السلطان تاج الدولة من أذربيجان لم يزل يجمع العساكر حتى عظمت جموعه ، وكثر حشده ، فسار فى جمادى الأولى[2] سنة سبع وثمانين وأربعمائة [عن دمشق[3]] نحو حلب ، فحشد الأمير قسيم الدولة والأمير مجاهد الدين [بوزان[3]] — صاحب الرُّها — وأمدهما السلطان بركيارق بالأمير كِرْبُوقَا[4] ،

(١) فى الأصل : « كوهراوتين » ، والتصحيح عن ابن الأثير ؛ وقد رسم هذا الاسم فى (صدر الدين أبو الحسن على بن ناصر : أخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد إقبال ، ص ٥١ ، ٥٤ ، ٧٢) « كهرائين » . أنظر ترجمة سعد الدولة الكوهرائين بالتفصيل فى : (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٩ ، ص ١١٥ — ١١٦) .

(٢) فى الأصل : « جمادى الآخر » ، والتصحيح عن (ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ٩٥) فهو الاصل الذى ينقل عنه ابن واصل . أنظر أيضا ما يأتى ص ٢٦

(٣) ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير للايضاح .

(٤) فى الأصل : « كرنوقا » والتصحيح عن ابن الاثير ، وهو أبو سعيد قوام الدولة كربوقا أو كربوقا حاكم الموصل ، أنظر أخباره فى : (ابن القلانسى ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٤٠) و (Zambaur, Op. Cit. P. 38) وقد توفى كربوقا سنة ٤٩٤

فالتقى الجمعان بمكان يعرف بنهر سَبْعين [١] ، قريباً من تل السلطان [٢] ، بينه وبين حلب ستة فراسخ ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فخاس بعض العسكر الذين مع قسيم الدولة ، فانهزموا ، وتمت الهزيمة بسبب انهزامهم ؛ وأُخذ آق سنقر أسيراً ، وأُحضر بين يدى السلطان تاج الدولة ، فقال : « لو ظفرت بى ما كنت صنعت بى ؟ » قال : « كنت أرى قتلك » . قال : « فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم علىّ » ، فقتله صبراً .

وسار [تاج الدولة] نحو حلب ، وكان قد دخلاها [٣] : كِرْبُوقَا ، وبُزَان [٤] ، فحفظاها ، فحصرها تاج الدولة ، ولجّ فى حصرها ، فسلمها إليه المقيم بقلعة الشريف [٥] ، ومنها دخل البلد ؛ وكانت الوقعة التى قُتل فيها قسيم الدولة يوم السبت لتسع مضين من جمادى الأول ، وكان نزوله على حلب يوم الأحد غد هذا اليوم ، ومعه رأس قسيم الدولة ، وتسلمها العصر من ذلك اليوم ، وبات بقلعة الشريف ، وتسلم قلعة حلب يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة مضت من جمادى [الأولى] ، وأُخذ بُزَان

---

(١) ضبط هذا اللفظ بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) ، ولكنه لم يذكر أنه نهر ، وإنما عرفه بقوله : سبعين قرية بباب حلب كانت إقطاعا المتنبي من سيف الدولة .

(٢) كان يعرف هذا المكان قبلُ بالمرج الأحمر ، وإنما عرف بتل السلطان بعد ذلك لأن السلطان ألب أرسلان السلجوقى خيم به مدة فنسب إليه ، هكذا ذكر (ابن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ، ص ١٣٦) .

(٣) كذا فى الأصل ، ويلاحظ أن ابن واصل كثيرا مايلتزم مذهب « أكلونى البراغيث » فيستعمل الفعل المثنى والفعل الجمع مع وجود الفاعل ، ولم نشأ نحن أن نغير ما التزمه المؤلف محافظة على أسلوبه .

(٤) فى الأصل : « كرنوقا وزاب » والتصحيح عن (ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٩٦) أنظر أيضا ما فات .

(٥) لم أجد لهذا المكان تعريفا فى المراجع التى بين يدى ، والظاهر أنها كانت إحدى القلاع الهامة القائمة فى حلب وقتذاك ، فقد قال (ابن القلانسى ، ص ١١٨) فى حوادث سنة ٤٧٨ : « وفيها شرع فى عمارة القلعة الشريف بحلب وترميم ما كان هدم منها وإعادتها إلى ما كانت عليه فى حال عمارتها » .

وكِرْبُوقَا [١٥] أسيرين ، وبعث إلى حرّان والرُّها ، — وكانتا لبزان — أن [يسلمهما من بهما (١)] إليه ، فامتنع أهلها من التسليم ، فقتل بُزان ، وأنفذ رأسه إليهم ، وتسلم البلدين ، وبُعث كِرْبُوقَا إلى حمص ، فحبس بها ، وكانت لآق سنقر ، فتسلمها ، وسلّمها إلى جناح الدولة حسين أتابك ولده الملك فخر الملك رضوان ، فلما قُتل تاج الدولة أخرج الملك رضوان كِرْبُوقَا من الحبس .

ذكر سيرة الأمير قسيم الدولة (٢) — رحمه الله —

[كان] أميراً عادلاً ، حسن السيرة ، جميل السياسة ، وكان شرط على أهل كل قرية من بلاده أنهم متى أُخذ عندهم قَفَل أو أحد من الناس ، غرّمهم جميع ما يؤخذ من الأموال — قليل أو كثير — ، فكانت السيّارة إذا بلغوا قرية من بلاده ، ألقوا رحالهم ، وناموا ، وحرسهم أهل تلك القرية إلى أن يرحلوا ، فأمنت السبل .

وكان عنده وفاء عظيم وحسن عهد ، ومروءة غزيرة ، وإنما كان قتله وفاء لسلطانه ورب نعمته جلال الدولة ، وحفظا لولده من بعده ، وإنما صار مع تاج الدولة فى تلك المدة خوفاً منه ، ولأن بنى صاحبه لم يكن بينهم اتفاق ، فلما استفحل أمر السلطان بركيارق — ولد صاحبه — انحاز إليه وقُتل فى هواه .

(١) فى الأصل : « وكانت لبزان أن يسلمها إليه » ، وهو خطأ فضلا عن أنه اختصار مخل بالمعنى ، وقد صححت العبارة وأضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة ابن الأثير .

(٢) أنظر ترجمته فى : (ابن خلكان : ج ١ ، ص ١٣٩) .

ذكر أخبار عماد الدين زنكى

ابن قسيم الدولة آق سنقر – رحمه الله –

لم يخلف [آق سنقر] من الولد غير أتابك زنكى ، وكان عمره حين توفى والده عشر سنين ، فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه ، وفيهم الأمير زين الدين على كُوجُك بن بِكْتِكِين (١) ، وهو صبي أيضاً ؛ ولما تخلص كِرْبُوقا من سجن حمص — بعد مقتل تاج الدولة تُتُش — توجه إلى حَرّان ، واجتمع إليه جماعة ، فملكها ، وملك نصيبين ، ثم ملك الموصل وماردين ، وعظم شأنه وأحضر مماليك قسيم الدولة آق سنقر ، وأمرهم بإحضار عماد الدين زنكى ، وقال : « هو ابن أخى ، وأنا أولى الناس به وبتربيته » . فأحضروه عنده ، وأقطعهم الإقطاعات السنية ، وجعل عماد الدين زنكى مماليك أبيه ، واستعان بهم فى حروبه ، وأقام عماد الدين فى صحبة كِرْبوقا إلى أن توفى فى سنة أربع وتسعين وأربعمائة .

وملك الموصل موسى التركمانى (٢) ، ثم شمس الدولة جِكِرْمِش (٢) — أحد مماليك السلطان [١٦] جلال الدولة ملكشاه — فقرّب عماد الدين زنكى ، واتخذه ولداً إلى أن توفى جِكِرْمِش فى سنة خمسمائة .

ثم ولى بعد جِكِرْمِش جَاوَلى سَقّا ، واتصل به عماد الدين زنكى .

---

(١) فى الأصل هنا وفيما يلى دائما « على كوجل بن بلتسكين » وقد ضبط الاسم بعد مراجعة : (ابن القلانسى ، ص ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٣٠٧ ، ٣٣٧ ، ٣١٦) و (Zambaur, Op. Cit. P. 38) وسنوالى ضبط الاسم كما بالمتن كلما ورد ذكره بعد ذلك دون الاشارة .

(٢) ملك الموصل ستة شهور من سنة ٤٩٥ ، ثم أخذها منه جكرمش (Djekermish) فى ذى الحجة من نفس السنة وظل يتولاها إلى سنة ٥٠٠ ؛ أنظر : (Zambaur, Op. Cit. p. 38) .

ثم ولى الموصل الأمير مودود(١) — من نسل السلطان غياث الدين محمد ابن ملكشاه — وصحبه عماد الدين زنكى ، وحضر معه حروبه .

ثم قُتل مودود بدمشق ، فأقطع السلطانُ الموصل لجيوش بك ، وسيّر معه الملكَ مسعود — ولده — ، وسيّر قسيم الدولة اسباسلار(٢) البُرْسُقى(٣) آق سنقر فى الجيوش لقتال الفرنج(٤) ، وكانوا قد ملكوا سواحل الشام وفتحوا البيت المقدس ؛ فسار وصحبته عماد الدين زنكى ، فحاصروا الرُّها ، وأخربوا بلاد سرّوج وسنجار وميساط ، ثم عادوا ، وأقام عماد الدين زنكى بالموصل فى صحبة الملك مسعود بن السلطان محمد ، والأمير جيوش بك .

وفى سنة إحدى عشرة وخمسمائة وُلد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ، وفيها توفى السلطان محمد ، فأقر ولدُه السلطان محمود بن محمد أخاه مسعوداً(٥) بالموصل مع جيوش بك .

وفى سنة أربع عشرة وخمسمائة خرج مسعود عن طاعة أخيه السلطان محمود ، فخطب لنفسه بالسلطنة ، ثم التقى الاخوان ، فكُسر مسعود ، وأمّنه السلطان ، وأمّن جيوش بك ، وأقطع الموصل قسيم الدولة آق سنقر البُرْسُقى سنة خمس عشرة

---

(١) وليها من سنة ٥٠٢ إلى سنة ٥٠٧ ؛ أنظر المرجع بالهامش الثانى من الصفحة السابقة .

(٢) أنظر مافات ص ٢ هامش ١

(٣) فى الاصل هنا وفيما يلى : « البرسيقى » وقد ضبط الاسم بعد مراجعة : (ابن خلكان ، الوفيات ، ج ١ ، ص ١٤٠) ، وهو أبو سعيد سيف الدين قسيم الدولة آق سنقر البرسقى : صاحب الموصل ، ملكها بعد قتل الأمير مودود سنة ٥٠٧ ، وقتل البرسقى سنة ٥٢٠ فملك الموصل بعده ابنه عز الدين إلى أن مات فى سنة ٥٢١ فملكها بعده عماد الدين زنكى ، وسيضبط الاسم فيما يلى دون الاشارة إلى ذلك فى الهوامش .

(٤) فى الأصل : « لقتال آق سنقر الفرنجى » وهو لاشك خطأ من الناسخ .

(٥) فى الأصل : « مسعود » .

وخمسمائة ، وأمر السلطانُ آق سنقر [البُرْسُقى] بحفظ عماد الدين زنكى وتقديمه والوقوف عند إشارته ، ففعل ذلك .

وفى سنة ست عشرة وخمسمائة أُقطع عماد الدين زنكى شِحْنَكِيَّة (١) البصرة وواسط ، وعظم شأنه ، وهابه الأمير دُبَيْس بن صدقة — صاحب الحلة — وهمّ دُبَيْس بقصد بغداد ، فسار إليه آق سنقر البُرْسُقى بنفسه ، وتبعه الخليفة المسترشد بالله ، فانهزم عسكر دُبَيْس ، وقُتل منهم وأُسر خلق كثير ، وكان لعماد الدين أثر حسن فى هذه الوقعة ، وذلك فى أول المحرم سنة سبع عشرة وخمسمائة

ولحق دُبَيْس بالسلطان طُغْرُل بن السلطان محمد ، [١٧] وكان معه عاصياً على السلطان محمود ، وأمر السلطان لآق سنقر البُرْسُقى أن يرجع إلى الموصل فعاد ، فقال عماد الدين لأصحابه : « قد ضجرنا مما نحن فيه ، كل يوم يملك البلد أمير ، ويؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته ، فتارة نحن بالعراق ، وتارة بالشام ، وتارة بالموصل ، وتارة بالجزيرة » . فسار من البصرة إلى السلطان محمود ، وأقام عنده ، فكان يقف إلى جانب تخت الملك عن يمينه ، لا يتقدم عليه أحد ، وهو مقام والده قسيم الدولة [آق سنقر] من قبله ، وبقى لعقبه من بعده .

ثم بلغ السلطان أن العرب قد اجتمعت ، ونهبت البصرة ، فأعلم عماد الدين زنكى بالمسير إليها ، وأقطعه إياها ، لما بلغه عنه من الحماية لها فى العام الماضى وقت اختلاف العساكر والحروب ، ففعل ذلك ، فعظم عند السلطان ، وزاد محله عنده ، وكان جرى بين برتقش (٢) الزكوى — شِحْنَة (١) بغداد — وبين الخليفة المسترشد بالله نفرة ، فتهدده المسترشد ، فسار عن بغداد إلى السلطان شاكياً

---

(١) أنظر مافات ، ص ٧ ، هامش ٥

(٢) كذا فى الأصل ، وفى (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٩ ، ص ٢٤٩) : « برنقش » .

من المسترشد ، وحذّر السلطانَ جانبه ، وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازماً على منعه من العراق ، فسار السلطانُ إلى بغداد ، وجرت حروب ووقائع ، ليس هذا موضع (١) ذكرها .

ذكر تولى الأمير عماد الدين زنكى (٢) شحنكية (٣) بغداد

ثم نظر السلطان محمود بن محمد فيمن يصلح لِشْحنَكِيَّة العراق ، بحيث يأمن معه من الخليفة ، ويضبط الأمور ، فرأى أن زنكى أصلح الناس لذلك ، فولاَّه الشحنكية — مضافاً إلى ما بيده من البلاد والإقطاع — وسار السلطان من بغداد .

وفى سنة عشرين وخمسمائة قُتل آق سنقر البُرْسُقى ، قتلته الباطنية (٤) ، وكانت بيده الموصل وحلب .

ذكر استيلاء عماد الدين زنكى على الموصل

لما توفى البُرْسُقى فوّض السلطان الأمر بعده بالموصل إلى ولده الأمير عز الدين مسعود بن آق سنقر [البرسقى] ، فلم تطل أيامه ، وتوفى فى سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ، وولى بعده أخ له ، وقام بتدبير أمره مملوك لأبيه ، يقال له جاولى ، فأرسل إلى السلطان محمود [١٨] يطلب تقرير البلاد على ولد آق سنقر البُرْسُقى ،

(١) أنظر تفاصيل هذه الحروب والوقائع فى (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٩ ، ص ٢٤٩ وما بعدها) .

(٢) أنظر ترجمته فى : (ابن خلكان : الوفيات ج ١ ، ص ٣٤٣ — ٣٤٤) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧ وما بعدها) .

(٣) أنظر ما فات ، ص ٧ ، هامش ٥ .

(٤) أنظر تفاصيل قتله فى : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ١٤٠) .

وبذل الأموال الكثيرة على ذلك ، وكان الرسول فى ذلك القاضى بهاء الدين أبو الحسن على بن القاسم الشهرزورى ، وصلاح الدين محمد الياغيسيانى [١] — أمير حاجب البرسقى — فحضرا دَرْكاة [٢] السلطان ليخاطباه فى ذلك ، وكانا يخافان [٣] جاولى ولا يرضيان بطاعته ، فاجتمع صلاح الدين [محمد الياغيسيانى] ونصير الدين جقَر [٤] ، وكانت بينهما مصاهرة ، وذكر له صلاح الدين ما ورد فيه ، وأُفشى [٥] إليه سره ، فخوّفه نصير الدين [من [٦]] جاولى ، وقبّح عنده طاعته ، وقرّر فى نفسه [أنه [٦]] إنما أُبقاه وأمثاله لحاجته إليهم ، ومتى أُجيب إلى مطلوبه لا يبقى على أحد منهم .

وتحدث معه صلاح الدين فى أن يخاطب السلطان فى ولاية عماد الدين زنكى ، وضمن له الولايات والإقطاع الكثير ، وكذلك للقاضى بهاء الدين بن الشهرزورى ، وخاطباه فى ذلك ، وضمنا له كلما أراده ، فوافقهما على ما طلبا .

وركب هو وصلاح الدين إلى دار الوزير شرف الدين أنوشروان [بن [٧]] خالد ، فقالا : « إنه قد علمت أنت والسلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها ،

---

(١) فى الأصل : « الباغنسانى » ، أنظر مافات ص ١٩ ، هامش ٢

(٢) الدركاة — والجمع دركاوات — عرفها (Dozy, *Supp Dict Arab.*) فقال إنها لفظ فارسى معناه الفضاء أو الممر المؤدى إلى مدخل قصر أو بناء كبير : (Cour devant un palais, vestibule, portique. porte) .

(٣) فى الأصل : « يخافا » .

(٤) هو نصير الدين جقر بن يعقوب نائب عماد الدين زنكى على الموصل إلى سنة ٥٣٩ حيث قتل ، وقد رسم هذا الاسم فى (Zambaur, Op. Cit. P. 38) هكذا : « نصير الدين تشغرا Naṣiraddin Tschaghra » ، أنظر بعض أخباره فى : (ابن القلانسى : ص ٢١٧ ، ٢٦٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨١) .

(٥) فى الأصل : « وأفشا » بالألف .

(٦) أضفنا ما بين الحاصرتين عن : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٤) وذلك للايضاح .

(٧) مابين الحاصرتين عن ابن الاثير ، نفس الجزء والصفحة ، وهو شرف الدين أنو شروان ابن خالد بن محمد الكاشانى ، ولى الوزارة للسلطان محمود السلجوقى فى العراق من ربيع الثانى سنة ٥٢١ إلى رجب سنة ٥٢٢ ، أنظر : (Zambaur, Op. Cit. P. 225) .

وقد قويت شوكتهم فاستولوا على أكثرها ، وقد أصبحت ولايتهم من حدّ ماردين إلى عريش مصر — ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين — ، وقد كان البُرْسُقى — مع شجاعته — يكفُّ بعض عاديتهم ، فمذ قُتل زاد طمعهم ، وولده طفل ، ولا بد للبلاد من رجل شهم شجاع ذى (١) رأى وتجربة يذبُّ عنها ويحمى حوزتها ، وقد أنهينا الحال إليك لئلا يجرى خلل أو وهن على المسلمين ، فيختص اللوم بنا ، ويقال لنا : لم لا أنهيتم إلينا جلية الحال » . فأنهى الوزير ذلك إلى السلطان ، فشكرهما عليه ، وأحضرهما ، واستشارهما (٢) فيمن يصلح للولاية ، فذكرا (٣) جماعة ، منهم : عماد الدين زنكى ، وبذلا عنه — تقربا إلى خزانة السلطان — مالاً جليلاً ، فأجاب [السلطان] إلى ذلك ، لما يعلمه من كفايته لما يَلِيه ؛ وولاَّه البلاد كلها ، وكتب منشوره بذلك (٤ وضم إليه ولده الملك ألب أرسلان — المعروف بالخفاجى — وجعله أتابكه ، فمن ثم قيل لزنكى : « أتابك (٥) » ، فسار أتابك زنكى ٤) .

---

(١) فى الأصل : « ذو » .

(٢) فى الأصل : « واستشاره » والتصحيح عن ابن الأثير حيث ينقل عنه هنا ابن واصل نقلا يكاد يكون حرفياً مع تغييرات طفيفة فى اللفظ دون المعنى .

(٣) فى الأصل : « فذكروا » والتصحيح عن ابن الأثير .

(٤) هذه الجملة لا توجد فى ابن الاثير وإنما أضافها ابن واصل من عنده للايضاح ، وهو إيضاح له أهميته لتحديد التاريخ الذى لقب فيه عماد الدين بلقب أتابك وهو اللقب الذى ميز الدولة التى حكمت من نسله .

(٥) « أتابك » لقب يتكون من لفظين تركيين : أطا بمعنى أب ، وبك بمعنى أمير ؛ وذكر صاحب (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٨) أن أول من لقب بهذا اللقب هو نظام الملك وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ) حين فوض اليه ملكشاه تدبير المملكة ؛ ثم أصبح ملوك السلاجقة يطلقون هذا اللقب على كبار قواد جيشهم الذين يولونهم الوصاية على أبنائهم القاصرين . وكثيراً ما كان الأمير الأتابك يتزوج أم الطفل الموصى به ، وبذلك تصبح العلاقة بينه وبين هذا السلطان القاصر علاقة شبه أبوية . أنظر أيضا : (Demombynes: *La Syrie à l'Époque des Mamlouks*, *Pref P. XXVII, LVI*) و (دائرة المعارف الاسلامية : مادة أتابك) .

وبدأ بالبَوازِيج[1] [١٩] فملكها ، وتقوى بها ، وجعلها وراء ظهره ، لأنه خاف من جاولى أنه ربما صدّه عن البلاد ، ثم سار من البَوازِيج إلى الموصل ، فلما سمع جاولى بقربه من البلد ، خرج إلى تلقيه ، ومعه سائر العسكر ، فلما رآه جاولى نزل عن فرسه ، وقبّل الأرض بين يديه ، وعاد فى خدمته إلى الموصل ، فدخلها فى رمضان ، وأقطع [عمادُ الدين زنكى] جاولى الرحبة ، وسيّره إليها ، وأقام بالموصل يصلح أمورها ويقرر قواعدها ، وولّى نصير الدين جَقَر دِزْدَارية[2] [القلعة[3]] بالموصل ، وجعل إليه دِزْدَارية سائر القلاع ، وجعل صلاح الدين محمداً أميراً حاجباً[4] ، وبهاء الدين قاضى القضاة فى البلاد جميعها .

ذكر استيلاء عماد الدين

على جزيرة ابن عمر[5]

ثم سار عماد الدين إلى جزيرة ابن عمر ، وبها مماليك البُرْسُقى ، فامتنعوا من التسليم ، فحصرهم وراسلهم ، وبذل لهم البذول الكثيرة على أن يجيبوه ، فلم يجيبوا ، فجدّ فى قتالها ، وبينه وبين البلد دجلة ، فأمر الناس بإلقاء أنفسهم فى الماء ، ليعبروا إلى البلد ، ففعلوا ، وعبر بعضهم سباحة ، وبعضهم فى السفن ،

---

(١) عرفها (ياقوت : معجم البلدان) بأنها بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب فى دجلة ، ويقال لها بوازيج الملك ، وهى الآن (أى فى زمن ياقوت) من أعمال الموصل ؛ ثم قال : وبوازيج الأنبار موضع آخر .

(٢) أنظر ما فات ص ٨ ، هامش ١

(٣) ما بين الحاصرتين عن (ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥) .

(٤) فى الاصل : « أمير حاجب » والتصحيح عن ابن الاثير .

(٥) عرفها (ياقوت : معجم البلدان) بأنها بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلال ، ثم قال : وأحسب أن أول من عمرها الحسن بن عمر ابن الخطاب التغلبى وكانت له امرأة بالجزيرة .

وبعضهم فى الأكلاك [١] ، وتكاثروا على أهل الجزيرة ، وكانوا قد خرجوا من الجزيرة إلى أرض بين الجزيرة ودجلة ، تعرف بالزلاّقة ، ليمنعوا من يريد عبور دجلة ، فلما عبر العسكر إليهم قاتلوهم ومانعوهم ، فتكاثر عسكر عماد الدين عليهم ، فانهزم أهل البلد ، وتحصنوا بأسواره ، واستولى عماد الدين على الزلاّقة ، فلما رأى ذلك أهل البلد علموا أن لا خلاص لهم منه ، فسلموا إليه البلد بالأمان ، فدخل إليه هو وعسكره ، وزادت دجلة فى تلك الليلة زيادة منكرة ، بحيث لحقت [٢] سور البلد ، وامتلأت الزلاّقة ماء ، ولو أنهم أقاموا ذلك اليوم ، ولم يتفق لهم الدخول للبلد ، لغرقوا ولم يسلم منهم أحد ، فعلم الناس أن ذلك بداية سعادة ، وأن أمر هذه الدولة لعظيم .

استيلاء عماد الدين زنكى على نصيبين

ثم سار عماد الدين زنكى إلى نصيبين ، وكانت للأمير حسام الدين تِمُرْتاش ابن إيلغَازى ابن أُرْتق [٣] — صاحب ماردين — فلما نازلها سار حسام الدين إلى ابن عمه ركن الدولة [٤] داوود ابن معين [٢٠] الدين [سُقْمان [٥]] بن أُرْتُق

(١) الكَلَك — والجمع كلكات أو أكلاك — لفظ فارسى معناه السفينة الصغيرة وجاء فى (محيط المحيط) : « الكلك مركب يركب فى أنهر العراق ويعرف بالطوف » أنظر أيضاً : (Dozy : *Supp, Dict. Arab.*) حيث ذكر أن هذا اللفظ استعمل فى قصة السندباد البحرى ، وللايضاح كذلك أنظر : (قاسم الدجيلى فى مجلة لغة العرب ، الأجزاء ١ و٢ و٣ سنة ١٩٠١) و(Kindermann : *Schiff im Arabischen*) وما به من مراجع . وراجع أيضا : (البطريرك أغناطيوس أفرام الأول : الألفاظ السريانية فى المعاجم العربية . بحث نشر فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، أعداد سنة ١٩٥٠) حيث يرى أن اللفظ من أصل سريانى .

(٢) فى س « أخفت » ، وما هنا من ابن الأثير .

(٣) فى الأصل « برتق » ، وقد صححت بعد مراجعة (Zambaur . Op.cit. p. 228, 230). وقد حكم حسام الدين هذا ماردين من سنة ٥١٦ إلى ٥٤٧ هـ .

(٤) فى الأصل : « الدين » والتصحيح عن : (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥) و (Zambaur. p. 228)

(٥) فى الأصل : « شهاب الدين بن أرتق » والتصحيح عن المرجعين المذكورين فى الهامش السابق . وقد حكم ركن الدولة داود هذا حصن كيفا من سنة ٥٠٢ إلى سنة ٥٣٩ هـ .

صاحب حصن كيفا ، فوعده النجدة ، وجمع العسكر ، وعاد حسام الدين إلى ماردين ، وأرسل رقاعا على جناح طائر إلى نصيبين ، يعرّف من بها من العسكر أنه وابن عمه سائران إليهم فى العسكر الكثير ، ويأمرهم بحفظ البلد خمسة أيام ؛ فسقط الطائر على خيمة عماد الدين ، فقرأها ، وأمر أن يكتب بطاقة غيرها ، مضمونها : إنى قصدت ابن عمى ركن الدولة (١) ، وقد وعدنى النصرة ، وجمع العساكر ، وما نتأخر عن الوصول أكثر من عشرين يوماً ، ويأمرهم بحفظ البلد هذه المدة إلى أن يصل ، وجعل البطاقة فى الطائر وأرسله ، فوقع بنصيبين ، فلما وقف أهل البلد على البطاقة أسقط فى أيديهم ، وعلموا عجزهم عن حفظ البلد هذه المدة ، فسلموا البلد إلى عماد الدين ، فتسلمه ، وهذا من غرائب الاتفاق .

استيلاء عماد الدين زنكى على سنجار والخابور

ثم سار إلى سنجار ، فامتنع من بها عليه ، ثم صالحوه ، وسلموها إليه ، وسيّر منها الشّحن إلى الخابور ، فملكه جميعه ، ثم سار إلى حرّان .

استيلاؤه على حرّان

ولما قاربها ، خرج أهلها مذعنين له بالطاعة ، لأنهم كانوا فى ضر عظيم وضيق من الفرنج — لعنهم الله — فإنه كانت بأيديهم يومئذ الرُّها وسَرُّوج والبيرة ، وتلك البلاد ، وتلك النواحى جميعها .

ولما ملك حرّان أرسل إلى جوسلين — صاحب الرُّها وتلك البلاد — وهادنه مدة يسيرة ، ليتفرغ لإصلاح البلاد ، وتجنيد الأجناد ، وكان أهم الأمور إليه أن يعبر الفرات ويملك البلاد الشامية .

---

(١) فى الأصل : « الدين » أنظر ماقات ص ٣٥ ، هامش ٤

ذكر استيلاء الشهيد عماد الدين زنكى
على مدينة حلب

وكان آق سنقر البُرْسُقى قد ملك حلب ، فلما قُتل آق سنقر [هذا (١)] بالموصل كان ولده عز الدين مسعود بقلعتها (٢) فسار إلى الموصل وملكها ، واستناب بقلعتها رجلا يقال له : « قومان (٣) » ، ولما استتب أمره (٤) سار إلى الرحبة ليحاصرها .

وورد إلى حلب غلام السلطان محمود ، يقال له : « خُتْلُغْ أَبَه (٥) » أتى بتوقيع من الأمير عز الدين يتضمن تسليم حلب إليه ، وصحبته سنقر [٢١] الطويل الملقب عمدة الدين — صاحب حَرّان — المعروف بدران (٦) ، فسلّم التوقيع إلى قومان (٣) ، فلم يقبل واحتج بعلامة بينه و بين عز الدين لم يتضمنها التوقيع ، واعترف بالخط ، وكان بينهما العلامة صورة غزال ، لأن عز الدين كان أحسن الناس نقوشاً وتصاوير ، وكان مفرط الذكاء ، وطال الأمر على خُتْلُغْ أبَه ، ولم يسلم إليه البلد ، فأشير إليه بالعود ، فعاد ، وكان عز الدين محاصراً الرحبة ، فوصل [ختلغ (١)] فى خمسة أيام ، فوجد مسعوداً قد مات ، وهو مطروح على قطعة بساط ، والعسكر مشغولون عن دفنه ،

---

(١) أضفنا مابين الحاصرتين للايضاح .

(٢) الضمير هنا يعود على حلب .

(٣) فى الأصل: «تومان» ، والتصحيح عن(ابن الأثير)و(Zombaur: Op. Cit. p. 34)

(٤) الضمير هنا عائد على عز الدين مسعود بن آق سنقر البرسقى صاحب حلب .

(٥) كذا فى الأصل ، ويرسم أيضاً « قتلغ » أنظر المرجعين بهامش ٣

(٦) كذا فى الأصل ، ولم أستطع تحقيق الاسم بعد مراجعة المراجع المتداولة هنا فى الحواشى ، ويلاحظ أن ابن واصل لاينقل فى هذا الجزء عن ابن الأثير ، وفيما أورده هنا عن الاستيلاء على حلب تفاصيل كثيرة لاتوجد فى الكامل لابن الأثير أو ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى أو المختصر لأبى الفدا . وأغلب الظن أنه ينقل هنا عن تاريخ حلب لابن العديم وإن كنت لم أطلع عليه فهو لايزال مخطوطاً ، وهذا الاختلاف حيناً والاتفاق حيناً آخر بين النصين يؤكد ماذهبنا إليه من أن المؤرخين يأخذان عن مرجع واحد .

وقد نهب بعضهم بعضا، فعاد خُتْلُغ أَبَه إلى حلب فى ثلاثة أيام، وعرّف الناس موته، فأدخله الرئيس فضائل بن بديع — رئيس حلب — المدينة، واستنزلوا قومان من القلعة بعد ماصح عنده وفاة صاحبه، فصانعهم على ألف دينار، وسلّم القلعة إلى خُتْلُغ أبَه، واستحلفه الحلبيون، واستوثقوا منه.

وطلع [خُتْلُغ] إلى القلعة لست بقين من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وخمس مائة، فبقى أياماً يظهر منه شر عظيم وفسق كبير، فتشوشت قلوب الرعايا منه، وحمله قوم على الطمع، فصار يختم على تركة من يموت، ويرفعها إليه، ولا يكشف: هل له ورثة أم لا؟ فاشتدت نفرة الناس منه وعرف الرئيس فضائل والأمير بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أُرْتُق — الذى كان قبل ذلك صاحب حلب — أنه قد عزم على قبضهما، فتحالفا، واتفقا، واتفق معهما أحداث حلب، فثاروا ليلة الثلثاء ثانى شوال من هذه السنة، وكان خُتْلُغ أبَه وحجابه وخواصه فى قلة، وكلهم يشربون فى البلد عند أصحابهم، لأنه عشية يوم العيد، فقبض عليهم الحلبيون، وملأوا منهم الحبوس والمساجد ودار ابن الاقريطشى، وقيدوهم، وزحف الناس إلى باب القلعة، وحاصروها، فقاتلوهم النهار أجمع، ولما كان الليل نزل وأحرق القصر، فتلفت سقوفه وأبوابه، وذهبه وأخشابه ورخامه.

وهجم الناس [٢٢] صبيحة تلك الليلة، وأخذوا منه ماقدروا عليه، وقتل خلق كثير من الناس، ووصل الأميران حسن وحسّان — ابنا البعلبكى صاحبا مَنْبِج — من بُزاعة [1] سابع شوال، فساماه الخروج، فأبى، ثم وصل الجوسلين — ملك الفرنج — فى مائتى فارس إلى بانقوسا، ونفذ رسوله يصانعوه فدفعوه.

(١) فى (ابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٦) : « فوصل إلى حلب حسان صاحب منبج وحسن صاحب بزاعة ».

وفى آخر شوال وصل الملك إبراهيم بن رضوان بن تاج الدولة تُتُش ، فأدخله أهل حلب البلد ، ونادوا بشعاره ، ثم وصل بيمند الافرنجى — صاحب أنطاكية — وضايق البلد ، فركب الملك إبراهيم و بدر الدولة سليمان بن أُرْتُق والرئيس فضائل ابن ربيع فى خلق من الحلبيين ، وترددت الرسل بينهم حتى استقر الأمر على المدنة مدة ، وحمل إلى بيمند ما اقترحه بعد أن أشرف البلد على الهلاك .

وطال الحصار على خُتُلُغ أبَه إلى نصف ذى الحجة ، فوصل الأمير سنقر دراز والأمير حسن قراقوش ، ومع سنقر وحسن توقيع سلطانى لعماد الدين زنكى بالموصل والجزيرة والشام ، ومعهما جماعة من الأمراء ، واتفق الأمر على أن يسير خُتُلُغ أبَه و بدر الدولة [بن عبد الجبار] إلى الأمير عماد الدين زنكى فمن ولى استقر الأمر [(١)] ؛ فمضيا إلى باب عماد الدين ، وبقى فى البلد حسن قراقوش والياً ولاية مستعارة .

ولما مضى بدر الدولة وخُتُلُغ أبَه إلى عماد الدين أصلح بينهما ، ولم يوقع لأحد ، وطمع فى البلد ، وسيّر جيشاً مع الأمير صلاح الدين الياغيسيانى — حاجبه — فصعد إلى قلعة حلب ، ورتّب الأمور فيها .

ثم سار الأمير عماد الدين إلى الشام — فى جيوشه وعساكره — فملك بزاعة ومنبج فى طريقه ، وخرج أهل حلب إليه ، فالتقوه واستبشروا بقدومه ، ودخل البلد ، واستولى عليه ، ورتّب أموره ، ثم قبض على خُتُلُغ أبَه ، وسلّمه إلى ابن بديع ، فكحله [(٢)] بداره بحلب ، فمات ، فاستوحش ابن بديع ، فهرب إلى قلعة جعبر ، واستجار بصاحبها فأجاره .

---

(١) كذا فى الأصل ، والمعنى غير واضح ، والمقصود أن أى الرجلين يولى عماد الدين يستقر له الأمر .

(٢) فى الأصل : « فصله » والتصحيح عن (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٧٧) حيث يعود النص هنا فيتفق ونص ابن الأثير اتفاقا كبيراً .

وولّى عماد الدين رياسة حلب أبا الحسن على بن عبد الرزاق ، وكان دخول عماد الدين مدينة حلب واستقراره بها فى [٢٣] جمادى الآخرة من سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة .

ثم سار من حلب إلى خدمة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه — فى تجمل عظيم — ، وعاد من عنده إلى الموصل فى سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، ومعه منشوره بالجزيرة والشام وما اتصل بهما ، بعد أن يحمل إلى السلطان وأصحابه ما يزيد على مائة ألف وعشرين ألف دينار .

وفى مستهل رجب سنة أربع وعشرين وخمسمائة وصل عماد الدين زنكى إلى الفرات ، وفتح قلعة السن (١) ، وسيّر عسكراً أغاروا على بلد عَزَّاز (٢) — وهى للفرنج — وعاثوا فى بلد جوسلين ، وذلك لليلتين بقيتا من رجب ؛ وخيّم عماد الدين ظاهر حلب ، وترددت الرسل بينه وبين الفرنج ، واصطلحوا مدة ؛ ولعشر بقين من شعبان تزوج الأمير عماد الدين خاتون بنت الملك رضوان ابن تتش .

---

(١) كذا فى الأصل ، ولم أستطع تحقيق هذا الموقع لأن أخبار استيلاء عماد الدين على هذه القلعة وعلى عزاز ثم خبر زواجه لم ترد جميعاً فى حوادث سنة ٥٢٤ فى المراجع الكثيرة المتداولة فى هذه الحواشى ، ولعل المقصود قلعة البيرة فهى واقعة على الفرات .

(٢) عزاز — وربما قيلت بالألف فى أولها — بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالى حلب ، بينهما يوم . (ياقوت : معجم البلدان) .

ذكر استيلاء الأمير عماد الدين
على مدينة حماة

وكانت حماة للأمير ظهير الدين[1] أتابك طُغْتِكين — صاحب دمشق — قد تسلمها عقيب موت صاحبها شهاب الدين محمود بن قَراجا[2] سنة سبع عشرة وخمسمائة، ثم سلَّمها الأميرُ ظهير الدين إلى الأمير بهاء الدين إبراهيم بن سوّار، ثم توفي إبراهيم بعد موت ظهير الدين، فولَّى تاجُ الملوك بوري بن طغتكين — صاحب دمشق — حماة ولده بهاء الدين سِونْج بن بُوري.

ولما كانت هذه السنة — أعنى سنة أربع وعشرين وخمسمائة — أرسل عماد الدين زنكى إلى تاج الملوك بورى بن طغتكين — صاحب دمشق — يستنجده على الفرنج، وأظهر العزم على الجهاد، فأجابه إلى ذلك، وأرسل من أخذ له العهود والمواثيق، ثم جرَّد عسكراً من دمشق مع جماعة من الأمراء، وأرسل إلى ابنه سِونْج — صاحب حماة — يأمره بالتقدمة على العسكر والمسير بهم إلى خدمة عماد الدين زنكى، فساروا بأجمعهم إليه، فأكرمهم وأحسن ملتقاهم؛ وكان عنده الأمير صمصام الدولة خترخان[3]

---

(١) هو أبو سعيد سيف الاسلام ظهير الدين معتمد الدولة طغتكين — أتابك دُقاق بن تُتُش — توفى فى صفر سنة ٥٢٢ هـ (Zambour, Op. Cit. p. 225).

(٢) ترجم لهذا الحاكم (ابن القلانسى، ص ٢١٠) فى شيء من التفصيل، قال فى حوادث سنة ٥١٧ : « وفى هذه السنة ورد الخبر بأن محمود بن قراجه (كذا) والى حماة خرج فى رجاله، وقصد ناحية أفامية وهجم ربضها، فأصابه سهم من الحصن فى يده، ولما قلع منه عملت عليه وتزايد أمرها فمات منه؛ وكان ظاهرا ظالما متمردا، وقتل جماعة من أعيان حماة ظلما وتعديا بسعاية بعضهم على بعض، ولما عرف ظهير الدين ذلك أنهض إلى حماة من تسلمها وتولى أمرها من ثقاته».

(٣) كذا فى الأصل، وقد أورد (ابن القلانسى، ص ١٨٢، ١٩١، ٢٠٩، ٢٢٨، ٢٥٢) هذا الاسم على أشكال ثلاث : (خترخان، خيرخان، قرخان)، وهو فى (ابن الأثير : ج ١٠، ص ٢٨١) : « قرجان »، ولقبه صمصام الدين أو الدولة، وقد ولى حمص بعد وفاة أبيه قراجا فى سنة ٥٠٥ هـ.

ابن قَراجا — صاحب حمص — فحسّن لعماد الدين الغدر ببهاء الدين سِونج، والقبض عليه وعلى أصحابه، وأخذ حماة [1]، ففعل ذلك، وارتكب أمراً قبيحاً أنكره الناس عليه، ولا شيء أقبح من الغدر؛ [٢٤] ولما عزم على تلك الفعلة الشنعاء استفتى الفقهاء فى ذلك، فأفتاه منهم من لا دين له، وجوّز له ما لا يحل ولا يحسن شرعاً وعرفاً، فقبض على بهاء الدين وعلى جماعته، وأنهب الخيل والخيم، وقبض على جميع أصحابه، واعتقل الأمراء بالقلعة والجند بحلب.

ثم سار فى العشر الأول من شوال إلى حماة وتسلمها، ثم غدر بصمصام الدين خترخان، وسيّره إلى حلب، وحُبس بقلعتها.

وسار إلى حمص فنازلها، وطلب عماد الدين من أولاد صمصام الدين خترخان تسليم قلعة حمص، فامتنعوا، فألح فى حصارها، ونقب النقابون القلعة، فبطل عليهم النقب، وأمر بنصب المجانيق عليها فبطلت، وطالت مدة الحصار، وهجم الشتاء، فعاد بالعسكر إلى حلب، وترددت الرسل بين تاج الملوك بورى — صاحب دمشق — وعماد الدين زنكى فى إطلاق ولده بهاء الدين سِونج وأصحابه، فاستقر الأمر على خمسين ألف دينار، فأجاب تاج الملوك إلى حماها، ولم ينتظم بينهم أمر.

وفى منتصف ذى الحجة من هذه السنة سيّر عماد الدين زنكى ألفى فارس، وهجمت مَعَرّة مَصْرِين [2] — وهى للفرنج — ونهبت وقتل من فيها، وشن الغارة على تل

---

(١) حديث ابن واصل هنا عن أخذ عماد الدين لحماة فيه إسهاب وتفصيل أكثر مما ورد فى المراجع المختلفة المتداولة فى هذه الحواشى كابن القلانسى وابن الأثير وأبى الفدا . . . الخ ولا عجب فحماة وطن ابن واصل ومسقط رأسه، وسنلاحظ عنايته الدائبة بذكر تاريخها مفصلا كلما ورد ذكرها فيما يلى .

(٢) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها بليدة وكورة بنواحى حلب، ومن أعمالها، بينهما نحو خمسة فراسخ؛ أنظر أيضاً : (ابن الشحنة : الدر المنتخب، الصفحات المذكورة بالفهرس).

باشر (١) والأثارب (٢)، وأوقع بخيل من الأثارب، فقتل منهم جماعة كبيرة، وذكر ابن الأثير (٣) أنه فتح فى هذه السنة حصن الأثارب .

وفى المحرم سنة خمس وعشرين وخمسمائة توجه الأمير عماد الدين زنكى راجعاً إلى الموصل، وفى ربيع الآخر من هذه السنة رد السلطان محمود أمر العراق إلى عماد الدين مضافاً إلى ما بيده من الشام والموصل والجزيرتين؛ وفى هذه السنة فتح الأمير عماد الدين قلعة للأكراد حصينة يقال لها جهيمر (٤) .

ذكر قبض الأمير عماد الدين

على دُبَيْس بن صَدَقَة المَزْيَدى (٥) صاحب الحِلَّة (٦)

وكان السلطان محمود قدم بغداد سنة ثلاث وعشرين من عند عمه السلطان سَنْجَر بن ملكشاه — صاحب خراسان — ، ومعه الأمير دُبَيْس بن صَدَقَة، ليصالح

(١) ذكر (ابن الشحنة ، ص ١٦٩) أنها كانت من أعمال حلب ولها قلعة معمورة وبساتينها كثيرة .

(٢) ذكر (ياقوت : معجم البلدان) أنها كانت قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية ، بينها وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ ، ثم قال : وهذه القلعة الآن (القرن السابع الهجرى) خراب وتحت جبلها قرية تسمى باسمها .

(٣) هذه ثانى مرة يشير فيها ابن واصل إلى مرجع من المراجع التى أخذ عنها ، انظر ما فات هنا ص ٣ ، وفى (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٨٢) تفاصيل وافية عن فتح عماد الدين زنكى لحصن الأثارب فى سنة ٥٢٤ هـ .

(٤) لم تشر المراجع المختلفة إلى استيلاء عماد الدين على هذه القلعة ، ولهذا لم أتمكن من ضبطها .

(٥) فى الأصل : « المزيدى » ، وقد ضبط الاسم كله بعد مراجعة : (ابن القلانسى ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٥ — ٢١٠ ، ٢٣٠ ، ٢٥١) و (Zambour. Op. Cit. p. 137) وقد حكمت أسرة مزيد الأسدى مدينة الحلة ابتداء من سنة ٤٠٣ ، أما دبيس المذكور هنا فهو نور الدولة دبيس الثانى أبو الأعز بن سيف الدولة صدقة الأول المزيدى ، حكم الحلة من سنة ٥٠١ إلى ذى الحجة سنة ٥٢٩ ، وقد قتل فى أوائل سنة ٥٣٠ ، قتله السلطان مسعود بن محمد السلجوقى .

(٦) عرفها (ياقوت : معجم البلدان) بقوله : الحلة علم لعدة مواضع ، وأشهرها حلة بنى مَزْيَد ، مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد ، كانت قبل تسمى الجامعين ، وكان أول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن على بن مزيد الأسدى .

بينه وبين الخليفة المسترشد بالله، فتأخر دُبَيْس عن السلطان، ثم وصل دُبَيْس، ونزل بدار السلطان، فاسترضى السلطانُ الخليفةَ عنه، فامتنع أن يُوَلّى دُبَيْس [٢٥] شيئاً من الأعمال، وبذل الخليفة للسلطان مائة ألف دينار لأجل ذلك، وبلغ الأميرَ عماد الدين أتابك زنكى أن السلطان قد عزم على تولية دُبَيْس الموصل، فسافر إلى خدمة السلطان — كما قدمنا —، ولم يشعر السلطان به إلا وهو عند الستر، وبذل الجملةَ العظيمةَ التى ذكرناها، وخلع عليه، وأعيد إلى بلاده — كما ذكرنا —.

ثم رحل السلطان عن بغداد، ومرض، وبلغ دُبَيْساً (١) مرضُه، فطمع وجمع جمعاً كثيراً، وقصد الحِلَّة، وكان بها بِهْروز — شِحْنَة بغداد —، فهرب، ودخلها دُبَيْس، فعاث فى البلاد، فسيَّر إليه السلطانُ [آق سنقر (٢)] الأحمديلى ليكف شره، فأرسل دُبَيْس يستعطف الخليفة، وقال: «إن رضيتَ عنى رددتُ أضعاف ما أخذتُه»، وترددت الرسل فى ذلك، ودُبَيْس يجمع ويحشد، فاجتمع إليه عشرة آلاف فارس؛ ثم سار السلطان إلى بغداد فأهدى له دُبَيْس هدايا جليلة، من جملتها ثلاثمائة حصان منعولة بالذهب، ومائتا ألف دينار ليرضى عنه الخليفة والسلطان، فلم يُجَبْ إلى ذلك.

ولما دخل السلطان بغداد قصد دُبَيْس البصرة، وأخذ منها أموالا جليلة، فسيَّر إليه [السلطان] عشرة آلاف فارس، ففارق البصرة، ودخل البرية، وسار متوجها إلى الشام، فقيل إنه قصد قلعة صرخد، لأن سرِيَّةً (٣) لصاحبها

(١) فى الاصل: «دبيس».

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن (ابن القلانسى، ص ٢٣٨).

(٣) ذكر (ابن الأثير: ج ١٠، ص ٢٨٤) أن صاحب صرخد توفى فى هذه السنة وكان خصيا، وخلف جارية سرية له فاستولت على القلعة وما فيها، وعلمت أنها لا يتم لها ذلك إلا بأن تتصل برجل له قوة ونجدة، فوصف لها دبيس بن صدقة وكثرة عشيرته، وذكر لها حاله وما هو عليه بالعراق، فأرسلت تدعوه إلى صرخد لتتزوج به وتسلم القلعة وما فيها من مال وغيره إليه، فأخذ الأدلاء معه وسار من العراق إلى الشام، فضل به الأدلاء بنواحى دمشق.

كتبت إليه وأطمعته فيها ، وضلّ به الأدلاء الطريق بنواحى دمشق ، فنزلت(١) بناس من كلب كانوا شرقى الغَوطة ، فقبضوا عليه ، وحملوه إلى تاج الملوك بورى ابن طغتكين — صاحب دمشق — فحبسه عنده ، وبلغ ذلك عمادَ الدين زنكى ، فأرسل إلى تاج الملوك يطلب دُبَيْساً ، على أن يطلق ولدَه بهاء الدين سِونِج وَمَنْ عنده من المأسورين ، فإنه إن امتنع من تسليمه سار إلى دمشق وحصرها ، فأجابه تاج الملوك إلى ذلك ، فأرسل دُبَيْساً ، وأرسل إليه عمادُ الدين بهاء الدين سِونِج وأصحابه ، وتسلّم عمادُ الدين دُبَيْس بن صَدَقَة ، فأحسن إليه عماد الدين ، ودفع إليه من الأموال والسلاح مالم يكن فى ظن دُبَيْس .

فأرسل [٢٦] الخليفة المسترشد بالله لما سمع بالقبض على دُبَيْس سديد الدولة ابن الأنبارى(٢) وأبا بكر بن بشر الجَزَرِى(٣) ، يطلبان من تاج الملوك دُبَيْساً ، لما بينه و بين الخليفة من العداوة ، فسمع سديد الملك — وهو فى الطريق — بمصير دُبَيْس إلى عماد الدين ، فسار إلى دمشق ولم يرجع ، ووقع فى عماد الدين وذمَّه ، واستخف به ، و بلغ ذلك عمادالدين فأرسل إلى طريقه من يأخذهما إذا عادا ، فلما رجعا من دمشق قبضوا عليه(٤) وعلى ابن بشر ، وحملوهما إليه فأطلق ابن بشر ، وسجَنَ ابنَ الأنبارى ثم أطلقه .

وكان مصير دُبَيْس إلى عماد الدين سنة خمس وعشرين وخمسمائة . وفيها مات السلطان محمود بن محمد .

---

(١) الضمير هنا يعود على الأدلاء .

(٢) هو سديد الدولة أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن الأنبارى ، كان كاتباً للخليفة المسترشد ، أنظر : (ابن القلانسى ، ص : ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٦٠) .

(٣) ذكر (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٨٥) أنه سمى هكذا نسبة إلى موطنه جزيرة ابن عمر .

(٤) الضمير هنا عائد على ابن الأنبارى .

وكان الأمير عماد الدين زنكى قد عبر الفرات[١] ، ووصل إلى مدينة حلب فى أول شوال ، ثم توجه إلى حمص ، فحاصرها يوماً واحداً ، وتوجه نحو أطراف الشام ، وتسلم دُبَيْساً ، وأطلق سِونْج — كما ذكرنا — وبلغه وفاة السلطان وهو بالقرْيَتَين[٢] — من عمل حمص — لأربع عشرة بقيت من شوال ، فسمع عمادُ الدين ودُبَيْسُ بن صَدَقَة —[٧] وكان عنده ولدان للسلطان[٣] محمود — أحدهما ألْب أرْسلان الخفاجى ويكنى أبا طالب وهو الذى جعله[٤] السلطان أتابكه — وقد ذكرناه[٥] — والآخر[٦] عند دُبَيْس[٧] .

فأرسل الأمير عمادُ الدين إلى الخليفة المسترشد بالله يسومه أن يخطب ببغداد لأبى طالب ألْب أرسلان بن السلطان محمود ، فاعتذر المسترشد بالله بأنه صبى ، وأن السلطان عهد بالسلطنة لولده داوود بن محمود — وهو بأصبهان — وقد وردت رسل الأطراف بالخطبة له ، ونحن منتظرون كتاب السلطان سَنْجَر بن ملكشاه ، فإنه عَمُّ القوم .

---

(١) فى الأصل « الفراة » .

(٢) «القريتان» قرية كبيرة من أعمال حمص فى طريق البرية بينها وبين سُخْنَة وأَرَك ، أهلها كلهم نصارى (ياقوت : معجم البلدان) .

(٣) فى الأصل : « السلطان » وقد صححت كما بالمتن ليتضح المعنى .

(٤) الضمير هنا عائد على عماد الدين زنكى ، والمقصود أن السلطان جعل عماد الدين أتابكا لابنه أبى طالب ألب أرسلان الخفاجى .

(٥) أنظر ماقات ، ص ٣٣

(٦) لم يذكر اسم الابن الثانى ، والمعروف أن السلطان محموداً كان له أولاد خمسة : ألب أرسلان وفروخ زاد ، وداود ، وملك شاه الثانى ، ومحمد . أنظر القوائم اللاحقة بكتاب (Zambaur) .

(٧) هذه الجملة لازالت مضطربة المعنى ، ولم أستطع تقويمها أكثر من ذلك ، فهى مما اعتاده ابن واصل زيادته عند النقل عن غيره رغبة فى التعريف والايضاح .

ذكر الوقعة الكائنة بين الخليفة المسترشد بالله وبين عماد الدين زنكى

لما مات السلطان محمود خُطب بهمذان وأصفهان والجبال وأذربيجان لولده السلطان داوود ، وسار من همذان إلى زَنْكان (١) ، وكان عمه السلطان مسعود ابن محمد قد سار من جرجان ووصل إلى تبريز(٢) ، فاستولى عليها ، فسار إليه داوود فى ذى [٢٧] القعدة من هذه السنة — أعنى سنة خمس وعشرين وخمسمائة — ، وحصره بها ، وجرى بينهما قتال إلى سلخ المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة ، ثم اصطلحوا وتأخر داوود مرحلة ، وخرج السلطان مسعود من تبريز (٢) واجتمعت إليه العساكر ، وسار إلى همذان .

وكانت رسل داوود تقدمت فى طلب الخطبة ، فأجاب الخليفة : «إن [الحكم فى(٣)] الخطبة للسلطان سَنْجَر ، من أراد خُطِبَ له» وأرسل السلطان سَنْجَر : أن لا يأذن لأحد فى الخطبة ، وأن الخطبة ينبغى أن تكون له وحده ؛ وأرسل السلطان مسعود إلى عماد الدين زنكى يطلب مساعدته ، فوعده النصرة .

وسار السلطان سلجوق شاه — ومعه أتابكه قراجا الساقى صاحب بلاد فارس وخوزستان — فى عسكر كثيف إلى بغداد ، ونزل بدار السلطنة ، فأكرمه الخليفة ،

---

(١) ضبطت هكذا بعد مراجعة ياقوت ، ولم يعرفها بأكثر من قوله إنها موضع ، وفى (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٨٧) أنه سار إلى زنجان لارمكان .

(٢) فى الأصل : « تورين » ، والتصحيح عن (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٨٧) .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير) للايضاح ، ويلاحظ أن النص هنا يعود فيتفق كثيراً ونص ابن الأثير .

واستحلفه لنفسه ؛ ثم وصل السلطان مسعود يطلب الخطبة ، ويتهدده إن منعها ، فلم يُجَبْ إلى ما طلَب ، فنزل عباسيّة[١] الخالص .

وبرز الخليفة وسلجوق شاه وقَراجا الساقى عازمين على قتال مسعود ، وتوجه عماد الدين زنكى إلى بغداد — ومعه دُبَيْس بن صَدَقَة — ، وكانت رسل السلطان سَنْجَر قد وردت إلى عماد الدين بتوليته شِحْنَكِيَّة بغداد ، وإقطاع الحِلَّة لدُبَيْس ، وبلغ الخليفة وقراجا الساقى وصول عماد الدين إلى المَعْشُوق[٢] ، فعبر قراجا إلى الجانب الغربى ، وتقدم إلى الملك سلجوق شاه بمرافقة أخيه السلطان مسعود إلى أن يفرغا من حرب عماد الدين ، وسار الخليفة فى يوم وليلة إلى المعشوق ، فواقع عماد الدين زنكى فهزمه ، وأسر كثيراً من أصحابه .

وسار عماد الدين إلى تكريت ، وعبر منها دجلة ، وكان الدزدار بتكريت يومئذ نجم الدين أيوب بن شادى — والد صلاح الدين يوسف — فأقام لعماد الدين المعابر[٣] ، فلما عبر أمن الطلب ، وسار لإصلاح بلاده ، فكان هذا الفعل من نجم الدين سبباً

(١) فى الأصل : « عباسة » والتصحيح عن ابن الأثير ، وقد ذكر ياقوت جملة مواضع تحمل اسم العباسية إحداها كانت محلة ببغداد بين الصراتين قرب المحلة المعروفة بباب البصرة وتنسب إلى العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وقد كنت أحسبها هذه ، لولا أن الأستاذ المحقق الدكتور مصطفى جواد تفضل فكتب إلى : أن « عباسية الخالص » قرية على نهر الخالص فى الجانب الشرقى من دجلة ، وقد ذهب اسم القرية مع كثير من قرى الخالص ، أما النهر فلا يزال من أنهار المقاطعات فى شرق بغداد ، وإنى أنتهز هذه الفرصة لأشكر الدكتور مصطفى جواد لتفضله بتعريفى ببعض المواقع العراقية التى استفسرت منه عنها .

(٢) عرفه (ياقوت : معجم البلدان) بأنه قصر عظيم بالجانب الغربى من دجلة قبالة سامراء فى وسط البرية ، بينه وبين تكريت مرحلة ، عمره المعتمد على الله ، ولا تزال بقاياه قائمة حتى العصر الحاضر .

(٣) المِعبَر والمِعبَرة — والجمع معابر — من أسماء السفن العربية ، وقد عرفه صاحب اللسان بأنه ما عُبِر به النهر من فُلْك أو سفينة أو قنطرة أو غيره . راجع كذلك : (ابن سيده : المخصص ، ج ١٠ ، ص ٢٦) ومخطوطتنا التى لم تطبع بعد (معجم السفن العربية) و (Kindermann ; *Schiff im Arabischen.* pp. 62, 102.)

للسعادة التي آلت به إلى أن صار ولده ملوك الأرض ، فلينظر العاقل إلى ثمرة الجميل وفعل الخير .

وسار السلطان مسعود من العباسية إلى الملكية (١) ، ووقعت الطلائع بعضها على بعض ، وآل الأمر [٢٨] إلى أن اصطلح الأخوان مسعود وسلجوق على أن تكون السلطنة لمسعود ، وسلجوق ولى عهده ، وأن العراق يكون للخليفة (٢) ، وتحالفوا على ذلك واتفقوا .

وعاد السلطان مسعود إلى بغداد ، ونزل بدار السلطنة ، ونزل سلجوق بدار الشحنكية ، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ست وعشرين وخمسمائة .

وأما السلطان سنجر فإنه سار من خراسان إلى همذان — وصحبته ابن أخيه السلطان طغرل بن محمد — مريداً تملكه ، لأنه كان قد لازمه ، فوصلا إلى الري ثم إلى همذان ، فلما بلغ ذلك الخليفة والسلطان مسعود ، تجهزا وسارا إلى لقائه ، ومعهما قراجا الساقي وسلجوق شاه ، ثم تأخر عنهما الخليفة خوفاً من عماد الدين زنكي لما بلغهم أنه على قصد بغداد ، فاستعد للمدافعة ، وجنّد الأجناد ، ومضى الباقون فكانت الوقعة بينهم وبين السلطان سنجر بِغَوْلان (٣) بقرب الدِّينَوَرْ ، فانكسر السلطان مسعود وأخوه سلجوق شاه ، وأُخذ قراجا الساقي أسيراً ، فقتله السلطان سَنْجَر صبراً ، وأُحضر ابن أخيه السلطان مسعود ، فأكرمه ، وعاتبه على مخالفته ،

---

(١) لم أجد لها تعريفاً في المراجع الجغرافية ، وإنما ذكر لي الدكتور مصطفى جواد في خطاب منه أن « الملكية » ضيعة من ضياع الخالص بشرق دجلة قرب بغداد ، وقد ذكرها ابن الأثير أيضاً في حوادث سنة ٦١٤ مع مواضع الجانب الشرقي التي أغرقتها دجلة .

(٢) في (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٨٨) : « وأن يكون العراق لوكيل الخليفة » .

(٣) في الأصل « بنولان » وفي (ابن الأثير) : « بعولان » ، ولم يعثر ياقوت إلى أيهما ، وإنما ورد فيه « غولان » وعرفها بأنها موضع ولم يزد .

وأعاده إلى كَنْجَة (١) ، وأجلس ابن أخيه السلطان طغرل بن محمد فى السلطنة ، وأمر بالخطبة له فى جميع البلاد ، وكانت هذه الوقعة فى ثامن رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة .

ثم عاد السلطان سَنْجَر إلى نيسابور ، وكان السلطان سَنْجَر قد كاتب الأمير عماد الدين ودُبَيْس بن صَدَقَة ، وأمرهما بقصد العراق ، فقصدا بغداد ، وبلغ الخليفة المسترشد ذلك ، فأسرع العود إليهما ، وعبر إلى الجانب الغربى ، وسار فنزل بالعباسية ونزل عماد الدين زنكى بالمنارية من دُجَيْل ، ثم التقيا فى السابع والعشرين من رجب بمكان يقال له عَقْرَقُوف (٢) ، واقتتلوا قتالا كبيراً ، فحمل الأمير عمادُ الدين على ميمنة الخليفة ، — وفيها جمال الدين (٣) إقبال — فانهزموا ، وحمل نظر الخادم — وكان فى ميسرة الخليفة — على [ميمنة] (٤) عماد الدين ودُبَيْس ، وحمل [٢٩] الخليفة بنفسه ، واشتد القتال ، فانهزم دُبَيْس ، ورأى الأمير عماد الدين تفرق الناس عنه ، فانهزم ، وقُتل من العسكر جماعة ، وأُسر جماعة ، وبات هناك الخليفة ليلة ، وعاد إلى بغداد .

حكى الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن على بن منقذ فى كتاب ألفه ، وذكر فيه شهامة الخليفة المسترشد بالله وشجاعته ، قال : « كان الإمام المسترشد بالله يلحق بالصدر الأول من سلفه فى علو الهمة ، وحسن السياسة ، والإقدام العظيم ، فإنه لما التقى هو وعماد الدين زنكى بن آق سنقر فى المصاف بعقرقوف وأنا حاضر المصاف ، ضرب له خيمة أطلس أسود ، ووُضع له فيها تخت ، وجلس عليه ،

---

(١) عرفها (ياقوت) بأنها مدينة عظيمة وهى قصبة بلاد أرّان ، وهى من نواحى لرستان بين خوزستان وأصبهان ، وأهل الأدب يسمونها جنزة .

(٢) قرية من قرى دجيل بينها وبين بغداد أربعة فراسخ (ياقوت) . والذى ذكره (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٨٩) أنهما التقيا بحصن البرامكة . أنظر خريطة العراق الحديث

(٣) فى ابن الأثير : « جمال الدولة » .

(٤) ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير .

والخيل تطرد، فكسر عسكر أتابك، وذلك يوم الاثنين السابع والعشرين من رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة، فاستولى على كل ما فيه، وانهزم أتابك زنكى إلى الموصل، وذلك الإقدام العظيم كان سبب تلفه».

قلت: إن الخلفاء كان قد ضعف أمرهم من أيام المتقى بالله (١)، واستولت عليهم الملوك، خصوصاً فى أيام المستكفى بالله (٢)، فإن بنى بويه الديلم ملكوا العراق وغيرها من الممالك، وصارت الخلفاء تحت حجرهم، ثم ظهرت السلاطين السلجوقية، فتغلبوا أيضاً وتحكموا، وهلم جرا إلى أيام المسترشد، فاتفق وقوع الخلف بين السلاطين السلجوقية، واغتنم ذلك الخليفة المسترشد، فكانت نفسه أبية، وشجاعته عظيمة، فجنّد الجنود، وباشر القتال بنفسه، وأدى ذلك إلى أن أسره السلطان مسعود، وقُتل فى معسكره — كما سنذكره إن شاء الله تعالى —.

وبويع ببغداد لولده الراشد، ووصل السلطان إلى بغداد، فهرب الراشد، وأقعد السلطانُ عمّه المقتفى، وحكم عليه إلى أن مات السلطان مسعود، ثم بعد ذلك قوى المقتفى، وملك العراق، وقامت حشمة الدولة العباسية، واستمرت قوتها إلى أن زالت بالتتار الملاعين سنة ست وخمسين وستمائة، والمسترشد بالله شعر يدل [٣٠] على قوة نفسه وبعد همته، وهو:

أَنَا الْأَشْقَرُ الْمَوْعُودُ بِي فِي الْمَلَاحِمِ ... وَمَنْ يَمْلِكُ الدُّنْيَا بِغَيْرِ مُزَاحِمِ
سَتَبْلُغُ أَرْضَ الرُّومِ خَيْلِي وَتَنْتَهِي (٣) ... بِأَقْصَى (٤) بِلَادِ الصِّينِ بِيضُ صَوَارِمِي

(١) حكم بين سنتى ٣٢٩ و ٣٣٣ (٩٤٠ — ٩٤٤).
(٢) ولى بعده من ٣٣٣ إلى ٣٣٤ (٩٤٤ — ٩٤٦).
(٣) فى (السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص ٢٨٧): « وتنتفى ».
(٤) فى الأصل: « بأقصا ».

وكان الأمير إبراهيم [١] بن سُقْمَان بن أُرْتُقْ — صاحب حصن كيفا — لما سمع بقصد عماد الدين بغداد قد خرج من حصن كيفا نجدة للخليفة ، فى جمع كثير ، وأغار على نصيبين .

ذكر منازلة الخليفة المسترشد بالله مدينة الموصل

وفى العشرين من رمضان سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، حصر الإمام المسترشد بالله مدينة الموصل ، وكان السبب فى ذلك ما تقدم من الفتنة بينه وبين عماد الدين ، فقصد باب الخليفة المسترشد — رحمه الله — جماعة من الأمراء السلجوقية ، وخدموه ، وقوى بهم لا سيما واتفق اشتغال السلاطين بالخلف الواقع بينهم ، فأرسل الخليفة الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الاسفراييني — الواعظ — إلى عماد الدين برسالة فيها خشونة ، وزادها أبو الفتوح — زيادة فى الحجة — ثقة بقوة الخليفة وناموس الخلافة ، فقبض عليه عماد الدين زنكى ، وأهانه ولقَّاه ما يكره .

ولما كان فى شعبان سار الخليفة عن بغداد فى ثلاثين ألف مقاتل ، فلما قرب من الموصل فارقها عماد الدين زنكى ببعض عسكره ، وترك الباقى بها مع نائبه نصير الدين جَقَر — دزدارها والحاكم فى دولته — فنازلها الخليفة ، وضيَّق على من بها ، وسار عماد الدين إلى سنجار ، وكان يركب فى كل ليلة ، ويقطع الميرة عن العسكر ، ومتى ظفر بأحد من العسكر أخذه ونكَّل به ، فضاقت على العسكر الأمور ، وتواطأ جماعة من الجصاصين [٢] بالموصل على تسليم البلد ، فسعى بهم ،

---

(١) حكم حصن كيفا بعد أبيه سقمان ، وذلك من سنة ٤٩٨ إلى سنة ٥٠٢ ؛ وقد ظل حصن كيفا تحت حكم الأرتقيين إلى أن استولى عليه الملك الكامل محمد الأيوبى فى سنة ٦٢٩ ، أنظر : (Zambaur, Op. Cit. P. 228, 230). و (ابن القلانسى ، ص ١٣٧ — ١٣٨ نقلا عن الفارق) .

(٢) فى (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢) : « الخصاصين » .

فأُخذوا وصُلبوا ، ودام الحصار نحو ثلاثة أشهر فلم يظفر الخليفة منها بشيء ، فعاد إلى بغداد ، وقيل كان سبب رحيله أنه بلغه أن السلطان مسعوداً (١) قصد بغداد ، فعاد لذلك ، والله أعلم .

استيلاء شمس الملوك صاحب دمشق على حماة
وأخذها من عماد الدين

وفى هذه السنة — أعنى سنة [٣١] سبع وعشرين وخمسمائة — قصد شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بورى — صاحب دمشق — مدينة حماة ، وكان والده تاج الملوك قد توفى سنة ست وعشرين ، وجلس [هو] فى الأمر مكانه .

وكنا قد ذكرنا أن حماة كانت لبهاء الدين سِونج — أخى شمس الملوك — وأن عماد الدين قبض عليه وأخذ منه حماة ، فلما نزل شمس الملوك على حماة حاصرها ، وذلك فى العشر الأخر من رمضان من هذه السنة ، وكان الوالى بها ، وهو سنقر — غلام صلاح الدين محمد بن الياغسيانى (٢) — مقطعها قد سمع الخبر ، فاستكثر من الرجال والذخائر ، فزحف إليها شمس الملوك يوم العيد ، ثم عاد عنها ذلك اليوم وزحف إلى البلد من جميع جوانبه ، فملكه قهراً ، وأمّن أهله ، وحصر القلعة ، ولم تكن يومئذ حصينة على ما هى اليوم ، وإنما عمّرها بعد ذلك الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، فعجز الوالى عن حفظ القلعة ، فسلّمها إليه ، ثم رحل عنها إلى شيزر فحصرها ، ونهب بلدها ، فصانعه صاحبها ابن منقذ(٣) بمال ، فرجع .

---

(١) فى الأصل : « مسعود » .

(٢) فى الأصل : « الباغستانى » ، أنظر ماسبق هنا ، ص ١٩ ، هامش ٢

(٣) كان صاحب شيزر فى تلك السنة هو مجد الدين أبو سلامة مرشد بن على بن مقلد بن نصر ابن منقذ — والد المؤرخ المشهور أسامة — ولد سنة ٤٦٠ وتوفى سنة ٥٣١ ؛ انظر : (Zambaur, Op. Cit, p, 104) و [محمد أحمد حسين : أسامة بن منقذ ، ص ٧ وما بعدها]

ذكر الوقعة بين عماد الدين وصاحب حصن كيفا

سنة ثمان وعشرين (١) وخمسمائة

اجتمع الأمير عماد الدين أتابك زنكى والأمير حسام الدين تِمُرْتاش بن إيلغازى ابن أُرْتُق [صاحب ماردين (٢)] وقصدا مدينة آمد وحاصراها ، فأرسل صاحبها — وهو [سعد الدولة أبو منصور ايكلدى بن فخر الدولة إبراهيم (٣)] إلى الأمير ركن الدين [داود (٤)] بن سُقْمَان بن أُرْتُق يستنجده ، فجمع العساكر ، وسار ليرحلهما عنها ، فالتقوا على باب آمد ، واقتتلوا ، فانهزم ركن الدين ، وعاد مفلولا ، وقُتل من أصحابه جماعة كثيرة ، وأقام عماد الدين [زنكى] وحسام الدين [تمرتاش] على آمد محاصرين لها ، وقطعا الشجر ، وشَعّثا البلد ، ثم عادا عنها من غير بلوغ غرض .

(٥ استيلاء عماد الدين على قلعة الصور

ثم قصد عماد الدين قلعة الصور من ديار بكر ، فحاصرها وضايقها ، ثم ملكها فى رجب من هذه السنة ٥) .

---

(١) فى الأصل : « وخمسين » وهو خطأ واضح .
(٢) فى الأصل : « يرتق » ، وقد صححت وأضيف ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير .
(٣) فى الأصل : « ابن ابراهيم بن كيكلدى » وقد صحح الاسم بعد مراجعة (Zambaur, Op. Cit. P. 139) وقد حكم سعد الدولة هذا حصن آمد من سنة ٥٠٣ إلى سنة ٥٣٦
(٤) أضيف ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥) للايضاح .
(٥) ما بين القوسين ورد فى الهامش وأشير إلى مكانه فى المتن بعلامة .

استيلاء عماد الدين على قلاع [الأكراد(١)] الحُمَيْدِيَّة(٢)

وفى هذه السنة تملك عماد الدين قلعة العَقْر(٢)، وقلعة شُوش(٣)، وغيرهما، وكان عماد الدين قد أقرَّ الأمير عيسى الحُمَيْدِى — صاحب هذه القلاع — عليها، لما ملك البلاد، فلما نازل الخليفةُ المسترشدُ بالله الموصلَ، نزل عيسى إلى خدمة الخليفة، وحشد له [٣٢] الأكرادَ، فلما رحل الخليفةُ أمر عمادُ الدين بمنازلة القلاع، فنوزلت وملكت فى هذه السنة.

استيلاء عماد الدين على قلاع الهكَّارِيَّة(٤)

كان صاحب هذه القلاع الأمير أبا الهيجاء بن عبد الله وكانت له آشِب(٥)، والجُدَيْدَة(٦) وتوشى(٧) وجبل لهيجة، فأرسل عماد الدين من استحلفه وحمل إليه مالا، ثم سافر عماد الدين، وأخرج معه من آشِب ولده أحمد — وهو والد الأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب الذى سنذكره فى أخبار صلاح الدين رحمه الله —

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير، ج ١١، ص ٥) للايضاح.

(٢) بغير ضبط فى الأصل، وقد ذكر (ياقوت) أكثر من مكان كان يسمى بالعقر، أحدها هو المقصود هنا، وعرفه بقوله: العقر قلعة حصينة فى جبال الموصل أهلها أكراد وهى شرق الموصل، تعرف بعقر الحميدية، أى انها تنسب إلى الحميدية وهم طائفة من الأكراد.

(٣) شوش قلعة عظيمة عالية جداً قرب عقر الحميدية من أعمال الموصل، قيل هى أعلى من العقر وأكبر ولكنها فى القدر دونها. (ياقوت: معجم البلدان).

(٤) طائفة من أكبر طوائف الأكراد. (انظر عباس العزاوى: العشائر الكردية).

(٥) بدون ضبط فى الأصل، وهى قلعة قديمة للأكراد، عمرها عماد الدين زنكى فى سنة ٥٣٧ فنسبت إليه وسميت منذ ذاك بالعمادية. وهى — كما وصفها ياقوت — قلعة حصينة مكينة فى شمالى الموصل، ومن أعمالها.

(٦) ضبطت بعد مراجعة ياقوت حيث عرفها بأنها قلعة فى كورة بين النهرين التى بين نصيبين والموصل، وأكثر ما تكون لصاحب الموصل، وأعمالها متصلة بأعمال حصن كيفا.

(٧) فى الأصل: «بوشى» وفى (ابن الأثير): «نوشى»، وقد ضبطت بعد مراجعة: (محمد أمين زكى: خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، ص ١٥٤).

وإنما فعل ذلك خوفاً من أن يتغلب عليها ، وأعطاه توشى ، واستخلف أبو الهيجا بآشب كرديا يقال له باو الأرجى[1] .

ولما قدم أبو الهيجا على عماد الدين توفى عنده بالموصل ، فسار من توشى إلى آشب ليملكها ، فمنعه باو وأراد حفظها لولد صغير لأبى الهيجا اسمه على ، ثم نازل عماد الدين آشب فملكها ، وذلك أنه استجرّهم[2] لما نازلهم ، وانهزم من بين أيديهم حتى أبعدوا عن القلعة ، ثم عطف عليهم فانهزموا ، فوضع السيف فيهم ، وأكثر القتل والسبى ، ثم سار عنها .

وفى غيبته استولى نائبه نصير الدين [جَقر[3]] على جبل لهيجة وتوشى وقلعة الجُلاَّب[4] ، وحاصر جميع حصون الهَذَبانِيَّة[5] : وهى قلعة الشعبانى[6] ، وفرح ، وكَوَاشِى[7] ، والزعفرانى ، وغيرها[8] فملك الجميع ، واستقام الجبل ، وأمنت الرعايا بأمن الأكراد ، فإنهم كانوا معهم فى ضر عظيم .

---

(١) فى الأصل : « باد » وما هنا عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥) .

(٢) الضمير هنا عائد على أهل آشب ، وصيغة ابن الأثير أكثر وضوحاً وهى : « وسبب ملكها أن أهلها نزلوا كلهم إلى القتال فتركهم زنكى حتى قاربوه واستجرهم حتى أبعدوا عن القلعة ثم عطف عليهم فانهزموا . . الخ » .

(٣) أضيف مابين الحاصرتين عن ابن الأثير للايضاح .

(٤) ضبطت بعد مراجعة ياقوت ، قد ذكر أن جلاب اسم نهر بمدينة حران التى بالجزيرة مسمى باسم قرية يقال لها جلاب .

(٥) فرقة أخرى من أكبر فرق الأكراد .

(٦) ذكرها (محمد أمين زكى : خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ، ص ١٥٤ و ٣٩٠) وذكر لى الدكتور مصطفى جواد فى خطابه أن مؤلف (إجابة السائل) المخطوط بباريس ذكرها باسم « الشعبانية » .

(٧) فى ابن الأثير : « كوشر » ، وما هنا هو الصحيح ، والضبط عن ياقوت ، حيث ذكر أنها قلعة حصينة فى الجبال التى فى شرق الموصل ليس إليها طريق إلا لراجل واحد وكانت قديماً تسمى « أُودمُشْت » .

(٨) أردف ابن الاثير هذه الاسماء بقوله : « وهى حصون الهرانية » ، والهرانية قبيلة من قبائل الأكراد .

وباقى بلاد الهكّارية فتحها قَرَاجانجنا(١) صاحب العمادية بعد قتل عماد الدين وهذا قراجا أقطعه الأمير زين الدين بلاد الهكّارِيَّة بعد زنكى ، ولما فتح عماد الدين آشِب بنى قلعة العمادية ، وهى التى كانت تسمى قليعة الُجلاَّب ، وإنما سميت العمادية (٢) نسبة إلى عماد الدين .

منازلة عماد الدين دمشق

وسبب ذلك أن صاحب دمشق شمس الملوك إسماعيل بن بورى بن طغتكين كان ظالما سيئ السيرة إلى الغاية القصوى ، مع بخل زائد ودناءة نفس ، فكرهه أصحابه وأهله ورعيته ، ولما استشعر بغض أصحابه له ، وخاف منهم راسل الأمير عماد الدين زنكى يحثه على سرعة [٣٣] الوصول إلى دمشق ليسلمها إليه ، وأخلى(٣) المدينة من الذخائر والأموال ، وحملها إلى صرخد ، وتابع الرسل إلى عماد الدين يحثه على الوصول ، ويقول : « إن أهملت المجئ سلمتُ المدينة إلى الفرنج » .

وتحقق ذلك أصحابه ، فواطأوا أمه على قتله فقتلته وانضاف إلى ذلك سبب(٤) آخر هو مذكور فى أخباره ، ولما قتلته أمه أقامت فى الأمر بعده أخاه شهاب الدين محمود بن بورى ، وحلّفت الناس له .

ووصل عماد الدين زنكى إلى دمشق ، ونازلها فى جمادى الأولى [سنة تسع وعشرين وخمسمائة](٥) ، وكان لما عبر الفرات أرسل رسلاً فى تقرير

(١) كذا فى الاصل ، وهو فى ابن الاثير : « قراجا » فقط ، ولم أتمكن من ضبط الاسم الثانى .

(٢) هذا يختلف مع تعريف ياقوت للعمادية وآشب ، انظر ما فات ، ص ٥٥ ، هامش ٥

(٣) فى الأصل : « اخلا » .

(٤) ذكر هذا السبب الآخر (ابن الاثير : ج ١١ ، ص ٨) وخلاصته أن أم شمس الملوك اتهمت باتصالها بأحد القواد فأزمع شمس الملوك قتلها فأسرعت هى بقتله .

(٥) أضيف ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير للايضاح .

قواعد التسليم ، فرأوا الأمر قد فات فسار إلى دمشق لحصرها ، وكان نزوله أولا من شماليها ، ثم انتقل إلى ميدان الحصى[1] ، وزحف وقاتل ، فرأى قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة ، وكان القائم بأعباء هذه الحروب معين الدين أُنُر[2] مملوك طغتكين ، فقام فى حفظ البلد قياما مشهوداً .

وبينما عماد الدين يحاصر البلد إذ ورد عليه أبو بكر بن بشر الجزرى رسولا من الراشد بالله بن المسترشد ، ليتوجه إليه وينجده على السلطان مسعود ، ويأمره بصلح صاحب دمشق ، والرحيل عنها ، فصالحهم ، وخطبوا بدمشق للملك ألب أرسلان بن السلطان محمود ، وكانت الخطبة له فى جميع بلاد عماد الدين .

ذكر مقتل المسترشد وخلافة الراشد بالله

حكى الأمير مؤيد الدين سديد الدولة أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم ابن الأنبارى[3] — كاتب الانشاء — قال :

كان وقع بين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وبين الخليفة المسترشد بالله خلف ، وخرج الخليفة لقتاله مرتين وكُسر ، فلما مات السلطان محمود وولى السلطنة أخوه السلطان مسعود بن محمد ، استطال نوابه بالعراق ، وعارض الخليفة فى إقطاعه ، فوقعت بينهما وحشة ، فتجهز المسترشد بالله وعزم على الخروج ، وجدَّ فى ذلك ،

(١) فى الأصل : « الحصا » .

(٢) فى الأصل : « آنز » ، انظر مافات ص ٩ ، هامش ٤

(٣) عاش ابن الأنبارى بين سنتى ٤٦٩ و٥٥٨ (١٠٧٦ — ١١٦٣) ، وأقام كاتبا للانشاء نيفا وخمسين سنة ، وناب فى الوزارة ، وبعث رسولا إلى الملك سنجر وغيره ، وكان بينه وبين الحريرى صاحب المقامات مكاتبات ومراسلات . أنظر ترجمته فى : (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٠٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٤٧ ؛ وابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٥ ، ص ٥٦٤ ؛ والزركلى : الأعلام ، ج ٣ ، ص ٩١٩) ، ولا يعرف عن ابن الانبارى أنه ألف فى التاريخ أو غيره ، وأغلب الظن أن هذا الخبر روى عنه شفاها .

فدخل إليه الوزير شرف الدين على بن طراد الزينبي[١] وكمال الدين[٢] صاحب المخزن[٣]، وأنا معهما، وكان المسترشد قد طرد نواب السلطان عن البلاد، ورتّب صاحب المخزن للنظر فى المظالم[٤]، فقال له الوزير شرف الدين: «يامولانا، فى نفس المملوك [٣٤] شئ، فهل يؤذن له فى المقال؟» فقال: «قل»، فقال: «إلى أين نمضى وبمن نعتضد وإلى من نلتجئ ومقامنا ببغداد أمكن لنا، ولا يقصدنا أحد، والعراق ففيه لنا الكفاية، فإن الحسين بن على — عليهما السلام — لما خرج إلى العراق جرى عليه ما جرى، ولو أقام بمكة ما اختلف عليه أحد من الناس؟».

فقال لى الخليفة: «ما تقول يا كاتب؟» فقلت: «يا مولانا، الصواب المقام، وما رآه الوزير فهو الرأى، ولا يقدم علينا أحد، وليت العراق يبقى لنا».

فقال لصاحب المخزن: «يا وكيل، ما تقول؟» فقال: «فى نفسى ما فى نفس مولانا». فأنشد الخليفة قول المتنبى:

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز أن تموت جبانا

ثم إنه تجهّز وجمع وحصل فى خدمته جماعة من أمراء الأتراك، فأعطاهم مالاً عظيما، ثم خرج، وخرجنا معه، فلما قاربنا همذان، ووقع المصاف بين الخليفة

(١) هو وزير المسترشد والمقتفى، انظر ترجمته فى: (ابن طباطبا: الفخرى، ص ٢٧١، ٢٧٥).

(٢) فى الفارقى (بهامش ابن القلانسى، ص ٢٥٥): «جمال الدين طلحة».

(٣) لم أعثر على تعريف لهذه الوظيفة، وإنما سمى متوليها فى (ابن الساعى: الجامع المختصر) بصدر المخزن المعمور وذكر هناك فى أكثر من موضع أنه عند توليها كان يخلع عليه قميص أطلس نفطى وبقيار بمغربى، ويحمل وراءه ثلاثة أسياف على أيدى مماليك ترك رجالة ويركب فى جمع كثير من حجاب الديوان العزيز وحاشية المخزن المعمور (المرجع المذكور ص ١٤٣، ١٤٤، ٢٢٠). ويبدو من النص هنا أنها كانت وظيفة كبيرة تلى فى الأهمية وظيفتى الوزارة وكتابة الانشاء.

(٤) للتعريف بهذه الوظيفة انظر: (الماوردى: الأحكام السلطانية، ص ٦٤، والقلقشندى: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٢٧٧).

المسترشد بالله والسلطان مسعود بن محمد بمكان يسمى وادى مرك [١] — وهو قريب من جبل بَهِسْتُون [٢] بالقرب من هَمَذَان — ، فلما اصطفت العساكر فرّ من معسكرنا جميع الأتراك ، ومالوا إلى ناحية السلطان ، ثم وقع القتال ، فانهزم الخليفة ومن بقى معه ، ونُهب عسكره ، وقُبض على الخليفة وأرباب المناصب ، وحمل الوزير وصاحب المخزن وأنا ونقيب العلويين إلى قلعة سَرْجَهَان [٣] — بالقرب من قزوين والرى — وبقى الخليفة مع السلطان وسار معه فى بلاد أذربيجان إلى أن وصلوا إلى مراغة ؛ وهجم على الخليفة ثلاثة نفر من الملاحدة الباطنية ، وهو فى خيمته ، فقتلوه ، وقتلوا معه [أبا عبد الله [٤]] ابن سكينه — وكان يصلى به — ، وذلك يوم الخميس لأربع بقين من ذى القعدة [٥] سنة تسع وعشرين وخمسمائة [٦] .

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى (ابن الأثير : ج ١١ ، ص ١٠) : « دايمرج » ولم يرد لها ذكر فى ياقوت .

(٢) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها قرية وجبل ، أما القرية فبين همذان وحلوان ، تبعد عن همذان أربع مراحل ، أما الجبل فرتفع ممتنع لا يرتقى إلى ذروته لأنه أملس كأنه منحوت .

(٣) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها قلعة حصينة على طرف جبال الديلم تشرف على قاع قزوين وزنجان وأبهر ، ونص على أنه رآها فوجدها من أحصن القلاع .

(٤) مابين الحاصرتين عن ابن الأثير وابن الجوزى .

(٥) كذا فى الأصل ، وفى (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٤٩) ؛ (وابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٠) أنه قتل يوم الخميس سابع عشر ذى القعدة .

(٦) انفرد ابن واصل بنقل هذا الحديث — هنا وفيما يلى — عن ابن الأنبارى كاتب إنشاء المسترشد ، ولهذا الحديث أهمية خاصة لأن ابن الأنبارى كان شاهد عيان لهذه الحوادث جميعا كما أنه شارك فيها ، ولم يرد لهذا الحديث أى ذكر أو إشارة فى كل المراجع الهامة التى كتبت عن هذا العصر والتى أشير إليها دائما فى هذه الحواشى ، وهى المنتظم لابن الجوزى ، والكامل لابن الأثير ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى ؛ وإنما استطعت أن أحقق أنه نقله عن تاريخ الفارقى ، فقد نقل نصه عنه آمدروز فى هوامش كتاب (ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى ، ص ٢٥٠ — ٢٥١) وعليه عارضنا نص ابن واصل لتصحيحه ، وقد نص الفارقى على أن هذا الحديث جرى بينه وبين ابن الانبارى ، قال : « ولقد سألت السعيد مؤيد الدين أبا عبد الله محمد بن عبد الكريم الأنبارى رحمه الله فى سنة ٥٣٤ ببغداد حين نزلت إليه فى هذه السنة عن حال المسترشد والوقعة وماجرى ، فقال رضى الله عنه : إلخ » ثم روى الحديث كما جاء هنا .

قلت [١] : وصل فى اليوم الذى قتل فيه الخليفة رسول إلى السلطان مسعود من عمه السلطان سَنْجَرشاه بن ملكشاه — صاحب خراسان — برسالة ظاهرها التقدم إليه بتعظيم الخليفة ورده إلى سرير ملكه ، وباطنها التدمير عليه والراحة منه ، ووردت الملاحدة صحبة الرسول ، فلما قتل الخليفة أظهر [٣٥] السلطان مسعود الجزع العظيم والحزن الكثير ، ودفن الخليفة بمراغة .

ووصل الخبر بذلك إلى العراق ، فحزن الناس عليه حزنا عظيما وبويع بالخلافة ولده الراشد بالله ببغداد ، واستقرت خلافته بها ، ثم قدم السلطان وضرب عنق دُبَيْس ابن مَزْيَد صاحب الحِلَّة .

قال مؤيد الدين أسعد الدولة بن الأنبارى : (لما قُتل الخليفة المسترشد بالله أحضرنا السلطان مسعود — وكان نقيب العلويين قد مات بقلعة سَرْجَهان ، ودُفن هناك — فلما حضرنا عنده ، قال : « ما الرأى وما التدبير فى أمر الخلافة ، ومن ترون ؟ » فقالوا : « يامولانا ، الخلافة لولى العهد — يعنى الراشد بالله — ، وقد بايعه الناس ببغداد ، وجلس واستقر ، وبويع له من قبل قتل أبيه بولاية العهد ، وبويع له الآن بالخلافة » . فقال السلطان : « ما إلى هذا سبيل ، ولا أقره عليها ، فإنه يحدث نفسه بالخروج مثل أبيه المسترشد ، ومن حين تولى أبيه لم يترك الخروج علينا ؛ كان قد خرج على أخى محمود مرتين ، وعلىّ مرة ؛ وهذه أخرى ، وتم عليه ما تم ، وبقيت علينا شناعة عظيمة وسبة إلى آخر الدهر ، فإنه يقال : قتلوا الخليفة ، وهم كانوا السبب فى عود الخلافة إلى هذا البيت ، ولا أريد يلى الأمر إلا رجل لا يدخل نفسه فى غير أمور الدين [٢] ، ولا يجند ، ولا يجمع ولا يخرج علىّ

(١) هذا تعليق من المؤلف قطع به حديث ابن الانبارى ، وسيعود إليه مرة ثانية .

(٢) هذا نص واضح يدل على مبلغ ما وصلت إليه مكانة الخليفة العباسى فى ذلك العهد السلجوقى أن « لا يدخل نفسه فى غير أمر الدين » .

ولا على أهل بيتى ، وفى دار الخلافة جماعة ، فاعتمدوا على شيخ منهم صاحب عقل ورأى وتدبير ، يلزم نفسه ما يجب من طاعتنا ، ولا يخرج من داره ؛ ولا تُعرِّجوا عن هارون بن المقتدى بأمر الله ، فهو شيخ كبير ، ولا يرى الفتنة ، وقد أشار به عمى سَنْجَر » .

وكان فى دار الخلافة فى ذلك الوقت سبعة من أولاد المقتدى بأمر الله ، وهم أعمام المسترشد بالله بن المستظهر بالله بن المقتدى بأمر الله ، وبقى من السبعة من هو حى إلى سنة نيف وخمسين وخمسمائة ؛ وكان فى الدار من أولاد المستظهر بالله — أخوة المسترشد بالله — سبعة ، وهم : الأمير أبو عبد الله محمد ، وأبو طالب ، وأبو نصر ، وأبو القسم ، وأبو على ، وإسماعيل ، ويحيي ؛ ولهم أولاد جماعة ؛ وكان للمسترشد أولاد جماعة ، منهم الراشد بالله ؛ وللراشد نيف وعشرون ولداً ، أكبرهم [٣٦] حملت أمه به وعمر الراشد تسع سنين ، وهذا من أعجب الأشياء ؛ فحكى عن من كان يدخل إلى دار الخلافة ، ويطلع على أسرارهم أن الخليفة المسترشد أعطى لولده الراشد — وعمره أقل من تسع سنين — عدة جوارٍ ، وأمرهن أن يلاعبنه ويمكِّنّه من أنفسهن ، وكان فيهن جارية صفراء حبشية ، فحملت من الراشد ، فلما ظهر الحمل ، وبلغ ذلك المسترشد أنكره ، فأحضرها وتهددها ، فقالت : « والله ما تقدم إلىَّ سواه ، وأنه قد بلغ الحلم » ، فسأل عن ذلك بقية الجوارى ، فقلن مثل ذلك ؛ فأمر أن تُحمَّل الجارية قطنا ، ثم وطئها الراشد ، فلما قام عنها أخرج القطن والمنى عليه ، وفعل ذلك ببقية الجوارى ، فخرج وعليه المنى ، ففرح المسترشد بذلك ، ووضعت الجارية ابنا ، فسماه المسترشدُ « أميرَ الجيش » ، وسر به سروراً شديداً .

وهذا لم يسمع بمثله إلا فى الحجاز ، فإنه قيل إن نساء تهامة يَحِضْنَ لتسع ، وتبلغ صبيانها لتسع ، وروى أن عمرو بن العاص كان أكبر من ابنه عبد الله بإثنى عشر .

قال ابن الأنبارى : « وأرسل السلطان مسعود إلى عمه السلطان [سنجر][1] يستشيره فيمن يولى الخلافة ، فأرسل إليه يقول : « لا تولى إلا من يضمنه الوزير وصاحب المخزن وابن الأنبارى » ، فلما وصل السلطان إلى همذان اجتمع بنا ، وأشار بهارون بن المقتدى ، وعرفنا ما أمر به عمه السلطان سنجر ، فقال الوزير : « إذا كان الأمر يلزمنا ، فنحن نولى من نريد ، وهو الزاهد الدين الذى ليس فى الدار مثله » ، فقال السلطان : « من هو ؟ » فقال : « الأمير أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله » ، فقال : « وتضمن ما يجرى منه ؟ » فقال الوزير : « نعم » ، وكان الأمير [أبو][1] عبد الله صهر الوزير على ابنته ، فإنها دخلت يوما الدار فى خلافة المستظهر بالله ، فرآها الأمير أبو عبد الله ، فطلب من أبيه تزويجها ، فزوجه بها ، فدخل بها وبقيت عنده ، ثم توفيت ، فقال السلطان : « ذلك إليكم » ، وكتموا الحال لئلا يشتهر الأمر ، فيقتل الراشد بالله عمه الأمير أبا عبد الله ، ثم رحل السلطان والجماعة نحو بغداد[2] .

وأما الراشد فإنه لما بويع له ببغداد بالخلافة [٣٧] بعد مقتل أبيه المسترشد بالله . أرسل إلى الأمير عماد الدين زنكى بن آق سنقر يستدعيه لنجدته ، وضمن له أن يكون السلطنة والملك للملك ألب أرسلان بن محمود بن محمد بن ملكشاه الذى عند أتابك ، وأن تكون أتابكية السلطنة والخلافة بحكم عماد الدين ، فوردت الرسالة على عماد الدين زنكى بذلك ، وهو بظاهر دمشق محاصرها ، وبها شهاب الدين محمود بن بورى ، فصالحه عماد الدين زنكى ، ورحل عنها ، ووصل إلى حماة ، وبها شمس الخواص اليتاش[3] — نائب صاحب دمشق — وكان قد نزع يده من طاعة صاحب دمشق ،

---

(١) ما بين الحاصرتين عن الفارق (ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥١ ، الهامش) .

(٢) بهذا اللفظ ينتهى حديث ابن الأنبارى كما رواه الفارق وعنه ابن واصل .

(٣) كذا فى الأصل ، وهو فى (ابن القلانسى ، ص ٢٤٨) : « شمس الخواص » فقط .

فالتجأ إلى عماد الدين ، فقبض عليه عماد الدين ، وأخذ منه حماة ، وسلَّمها إلى صاحبه صلاح الدين الياغيسيانى ، فاستناب فيها ولده شهاب الدين أحمد .

ثم توجه عماد الدين زنكى إلى بغداد لنصرة الراشد بالله ، وورد إلى بغداد جماعة من ملوك الأطراف متفقين على قتال السلطان مسعود ، ونصرة الراشد ، وهم : السلطان داود بن محمود [١] بن ملكشاه — صاحب أذربيجان — ، وبرنقش — صاحب قزوين — ، والبقش الكبير — صاحب أصفهان — ، وصَدَقَة بن دُبَيْس — صاحب الحِلَّة — الذى قتل السلطان أباه دُبَيْساً ، ومعه عنتر بن أبى العسكر ، يدبره — لصباه — وورد أيضاً ابن الأحمديلى ، وانضاف إلى هؤلاء مقدمو [٢] عساكر بغداد ، وهم : كج أبَه ، وطرنطاى ، وغيرهما ؛ واضطربت بغداد ، ونقلوا أموالهم إلى دار الخلافة .

وأمر الخليفة أن يخطب بالسلطنة بعده للسلطان داوود ، وتحالف الخليفة والسلطان داوود والأمير عماد الدين زنكى ، وأرسل الخليفة الراشد إلى عماد الدين ثلاثين [٣] ألف دينار ، ووصل بعد ذلك سلجوق شاه بن محمد — أخو السلطان مسعود — إلى واسط ، وقبض على الأمير بك أبَه ، ونهب ماله ، فانحدر إليه عماد الدين زنكى ، فدفعه عنها ، ثم اصطلحا ، وعاد عماد الدين إلى بغداد .

---

(١) فى الأصل : « محمد » والصحيح ما ذكرناه .

(٢) فى الأصل : « مقدمين » .

(٣) فى (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٤) : « مائتى ألف دينار » . ولاحظ أن نص ابن واصل يبدو فيتفق ونص ابن الأثير ، وأغلب الظن أن المؤرخين ينقلان عن الفارقى .

ذكر قدوم السلطان محمود بن مسعود بن محمد إلى بغداد وهروب الراشد بالله وعماد الدين زنكى إلى الموصل

ثم عبر الأمير عماد الدين زنكى إلى خراسان ، وحثّ على جمع العساكر للقاء السلطان مسعود ، وسار السلطان داوود [٣٨] نحو طريق خراسان ، وأظهر أنه يمضى إلى مراغة ، ثم عاد عماد الدين إلى بغداد ، (١) وبرز الراشد بالله إلى ظاهر بغداد أول شهر رمضان سنة ثلاثين وخمسمائة ، وسار على طريق خراسان ثلاثة أيام ، ثم عاد ونزل عند جامع السلطان ، ثم دخل بغداد ، وراسل العسكر وسائر الأمراء ، وأمرهم بالعود ، فعادوا ، ونزلوا فى الخيام ، واتفقت كلمتهم على قتال السلطان مسعود .

ثم قدم السلطان مسعود فى العساكر الكثيرة إلى بغداد ، ونزل بالملكية ، وشارف بعض العسكر البغدادى عسكره ، وطاردوهم ، ثم نزل السلطان بغداد ، وحاصرها نيفا وخمسين يوماً ، فلم يظفر بطائل ، فعاد إلى النهروان عازما على العود ، فوصله طرنطاى — صاحب واسط — ، ومعه سفن كثيرة ، فعاد إليها ، وعبر إلى غربى دجلة ، واختلفت كلمة العساكر الذين ببغداد ، وعاد السلطان داوود إلى بلاده .

ولما أحس الخليفة الراشد بالله بقوة السلطان مسعود ، وعلم أنه لا بد أن يولى الخلافة غيره جمع الأمراء من أهل بيته — الذين هم فى الدار — ، وجمعهم فى سرداب ،

(١) هنا تبدأ نسخة س ، فقد نص كاتبها على أنه سيبدأ الكتاب بالتأريخ لحوادث سنة ٥٣٠ هـ ، غير أن نص س فى أوله مختصر كثيراً عن نص ك . وفيما يلى نص السطور الواردة فى (ا ب) من نسخة س وهى المقابلة للفقرة المذكورة هنا بين الرقمين : «سنة ثلاثين وخمسمائة ، وما وتم فيه (كذا) من الحوادث والاخبار : استهلت هذه السنة والخليفة هو المقتفى بأمر الله ابن المستظهر بالله ، وسلطان الوقت هو السلطان مسعود زنكى (كذا) ؛ قال بدر الدين بن الأنبارى : « فى هذا العام برز الراشد بالله لظاهر بغداد ، وسار على طريق خراسان ثلاثة =

وتقدم بأن يطبق عليهم ؛ فحكى أبو القاسم[1] على — المعروف بحاجب الباب[1] — :
« أنه لما جمعهم الراشد فى السرداب استدعانى ، وأشار إلى سيف بين يديه ، وقال :
« يا على ، خذ هذا السيف » وأخذ بيده سيفاً آخر ، وقال : « إحذر أن يسبق سيفى
سيفك ، فإنى أريد أن أخرج كل من فى السرداب ، وأقتل الجميع ، حتى لا يبقى
من يصلح للخلافة ، فإن هؤلاء ربما دخلوا وولوا غيرى » ؛ ثم أمر بفتح السرداب ،
وإذا الخبر قد جاءه أن عماد الدين أتابك زنكى قد هرب ونهب الحريم الطاهرى[2] ،
وتوجه إلى الموصل ، فرمى السيف من يده ، ودخل الدار ، وأخرج معه من الجواهر
ما لا يعرف قيمته ، وأعطانى مثل ذلك ، وأخرج معه [قاضى القضاة[3]] الزينبى ،
وجلال الدين أبا الرضا بن صدقة ، — وكان قد استوزره — وخرجتُ معه ، ولحقنا
بعماد الدين زنكى على طريق الموصل ، ووصل الراشد ، وصحبته عماد الدين زنكى
إلى الموصل .

— أيام ، ورجع ثانياً ، وكاتب العساكر ، وأمرهم فعادوا ، وجاء السلطان مسعود إلى بغداد وحاصرها سبع (كذا) وخمسين (؟) ، ثم رجع إلى النهروان واستعد ، وعاد فدخل بها العجب ، فلما أحس به الراشد ، قام وجمع الأمراء فى سرب (كذا) وقتلهم ، قال أبو القاسم المعروف بحاجب الباب : « وكنت عنده إذ ذاك — فأحلفنى ، ومضيت إلى منزلى . وأرسل ثانياً وطلبنى وقال : أما تدرى أن المتقى مخبأ فى بيت الرجل لذى كان عندنا ؟ »

هذا هو نص س المقابل لهذه الفقرة هنا ، والفرق واضح بينهما إيجازاً وتفصيلا ، وبنهاية النص تنتهى س (اب) ، وهناك سقط بينها وبين أول س (٢ ا) فإن النص غير متصل ، أنظر مايلى ، ص ٦٩

(١) مما يؤكد ترجيحنا السابق أن تاريخ الفارقى هو المرجع الذى يأخذ عنه كل من ابن الأثير وابن واصل أن هذه القصة لم ترد فى ابن الأثير ، وإنما نقلها آمدروز عن الفارقى فى (ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٩ — ٢٦١ ، الهوامش) . ولقد نص الفارقى على أن هذه القصة مما حدثه به زين الدولة أبو القاسم على حاجب الباب .

(٢) فى الأصل : « الظاهرى » وفى الفارقى (الطاهر) ؛ وما هنا عن (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنه بأعلى مدينة السلام ببغداد فى الجانب الغربى ، منسوب إلى طاهر بن الحسين ، وبه كانت منازلهم ، وكان من لجأ إليه أمن ، فلذلك سمى الحريم وكان أول من جعلها حريما عبد الله بن طاهر بن حسين .

(٣) مابين الحاصرتين عن الفارقى .

ذكر البيعة بالخلافة

للمقتفى لأمر الله بن المستظهر بالله

[٣٩] قال مؤيد الدين بن الأنبارى [١]. كاتب الانشاء : — « لما كان هذا اليوم — وهو يوم الأحد سابع عشر [٢] ذى القعدة — من هذه السنة — أعنى سنة ثلاثين وخمسمائة — مضى الوزير شرف الدين على بن طراد الزينبى إلى دار السلطان ونحن معه ، وأخذ السلطان خط الوزير وخطوطنا بالضمان ، ثم صرنا إلى دورنا ، وأصبحنا يوم الاثنين فحضرنا عند الأمير أبى عبد الله محمد بن المستظهر بالله ، وتحدث الوزير معه ، وتحدثنا معه ، وشرطنا عليه القيام بأمر الخلافة وطاعة السلطان ، وأعلمناه أننا قد ضمنا للسلطان جميع ما اقترحه علينا ، فرضى بذلك ، وانفصلنا عنه ، ومضينا إلى السلطان ، وأعلمناه ما جرى ، وأنه رضى بما اشترطنا عليه ، فقال السلطان : « إذا كان كما قلتم فبايعوه » ، فلما كان الغد صعدنا إلى الدار فأخرجنا منها أشياء من الآلات التى تصلح للغناء ، وأشياء لاتليق ، وشهد جماعة من أهل الدار أن الراشد كان يشرب الخمر ، فأفتى العلماء بخلعه ، وحكم القضاة بذلك ، فخلعوه من الخلافة .

ودخلتُ إلى الأمير عبد الله محمد ، أنا والوزير وصاحب المخزن ، وتحدثنا معه ، وناولته رقعة [٣] مما يلقب به ، فكان فيها : المقتفى بأمر الله ، والمستضىء بنور الله ،

(١) هذا الحديث منقول أيضاً عن الفارق .
(٢) فى الفارق : « عاشر ذى القعدة » ، وهو خطأ واضح لأنه قال بعد ذلك : « وأصبحنا يوم الاثنين سابع عشر ذى القعدة . . » .
(٣) الفارق : « رقعة فيها ما يسمى به من اللقب » .

والمستجير بالله[1]، فقال الخليفة : « ذلك إليكم » ، ثم قال لى الخليفة : « ماذا ترى ؟ » فقلت : « المقتفى لأمر الله » فقال : « مبارك » ثم مد يده ، فأخذها الوزير وقبلها ، وقال : « بايعتُ سيدنا ومولانا الإمام المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين على كتاب الله وسنة رسوله — صلى الله عليه وسلم — واجتهاده » ؛ ثم أخذها صاحب المخزن وقبلها ، وبايعه على مثل ذلك ، ثم أخذت يده ، وقلت بعد أن قبلتها : « بايعتُ سيدنا ومولانا الإمام المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين على ما بايعت عليه أباه وأخاه وابن أخيه فى ولاية عهده — ، وكنت بايعت الإمام المستظهر بالله لما خدمته فى وكالة الدار سنة اثنتين[2] وتسعين وأربعمائة ، وبقيت إلى سنة سبع وخمسمائة[3] وبايعت المسترشد ، وبايعت الراشد بولاية العهد — [٤٠] قال : ثم قمت من عنده ، ودخل أمراء الدار وبايعوه ، ودخل العلماء والقضاة والفقهاء وأكابر الناس أجمع فبايعوه ، ثم حضر السلطان مسعود عنده ، وكلمه المقتفى بالله بكلام وعظه فيه وعرفه مايلزمه من طاعة الخلافة ، وأمره بالرفق بالرعية ، والإحسان إليهم ، وخوّفه عاقبة الظلم ، فبايعه السلطان ، وقبل يد الخليفة ، ورجع إلى دار السلطنة .

وأما الراشد بالله فإنه أقام بالموصل مع عماد الدين أتابك زنكى ، والخطبة بالموصل وسائر بلاد عماد الدين للراشد بالله ، ثم أرسل عماد الدين زنكى إلى بغداد القاضى كمال الدين محمد بن عبد الله بن الشهرزورى وصحبته رسول الراشد بالله ، فأما رسول الراشد فلم تسمع رسالته ، وأما كمال الدين فأحضر فى الديوان وسمعت رسالته ،

(١) كذا فى الأصل ، وفى الفارق : « والمستنجد بالله » .
(٢) الفارق : « سنة ٩٠ » فقط .
(٣) فى الأصل : « وخمسين » والتصحيح عن الفارق .

فحُكى عن كمال الدين[1] أنه قال : « لما حضرت الديوان قيل لى : « تبايع أمير المؤمنين ؟ » فقلت : « أمير المؤمنين عندنا بالموصل[2]، وله فى أعناق الخلق بيعة متقدمة » . وطال الكلام وعدت إلى منزلى ، فلما كان الليل جاءتنى امرأة عجوز سراً[3] ، فاجتمعت بى وأبلغتنى رسالة عن الخليفة المقتفى لأمر الله ، مضمونها[4] عتابى على ما قلت ، واستنزالى عنه ، فقلت : « غدًا أخدم[5] خدمة يظهر أثرها » ؛ فلما كان الغد أُحضرت[6] الديوان ، وقيل لى فى معنى البيعة ، فقلت : « أنا رجل فقيه قاضى ، ولايجوز لى أن أبايع لخليفة إلا أن يثبت عندى خلع المتقدم » . فأحضروا الشهود وشهدوا عندى بالديوان بما أوجب خلعه ، فقلت : « هذا ثابت لا كلام[7] فيه ، ولكن لابد لنا فى هذه الدعوة من نصيب ، لأن أمير المؤمنين قد حصل له خلافة الله فى أرضه ، والسلطان فقد استراح ممن كان يقصده ، فنحن بأى شىء نعود ؟ » فرفع الأمر إلى الخليفة فأمر أن يُقطع عماد الدين زنكى صريفين[8]

---

(١) هذا الحديث يرويه ابن واصل عن ابن الأثير ، فقد ذكره الأخير مرويا عن أبيه حيث قال (ج ١١ ، ص ١٧) : « حكى لى والدى عنه — أى عن كمال الدين — » .

(٢) عند هذا اللفظ يبدأ الاتفاق ثانيه بين نصى (س) ، (ك) ، فأن ص (١٢) من نسخة س تبدأ بهذين اللفظين : « عندنا بالموصل ... الخ » ، ويلاحظ هنا أيضا أن الخلاف لا زال واضحاً بين نصى النسختين ، فأن ما هنا — أى نص ك — مفصل ، وما فى س ملخص عنه .

(٣) فى (س) : « شريفة » ، وما هنا هو الصحيح لاتفاقه مع نص ابن الأثير وهو المرجع الذى ينقل عنه المؤلف هذا الحديث .

(٤) فى (س) : « تتضمن » وهذا مثل يدل على الطريقة التى يتبعها كاتب هذه النسخة عند الاختصار .

(٥) فى (س) : « أخدمه » ، وما هنا هو الصحيح لاتفاقه مع ابن الأثير .

(٦) فى (س) : « أحضرت إلى الديوان » ، وفى (ابن الأثير) : « حضرت إلى الديوان » .

(٧) فى (س) : « لا كلام لأحد فيه ولا بد » ، وما هنا يتفق ونص ابن الأثير .

(٨) فى (س) : «صرصر» بدون نقط ، وصريفين — أو صريفون كما رسمها ياقوت — فى سواد العراق فى موضعين : أحدهما قرية كبيرة قرب عُكبراء وأوانا على ضفة نهر دجيل والثانية من قرى واسط ، أنظر (ياقوت : معجم البلدان) .

ودرب[1] هرون وحزمى[2] مالكا — وهى من خاص الخليفة — وأمر بأن يزاد فى ألقابه[3] ، وقال : « هذه قاعدة لم يسمح لأحد بها من زعماء الأطراف أن يكون له نصيب [٤١] فى خاص الخليفة » .

فبايعت وعدتُ مقضى الحوائج ، وقد حصلت[4] على جملة صالحة من الأموال والتحف ، وكانت بيعة القاضى كمال الدين للخليفة المقتفى لأمر الله[5] سنة إحدى وثلاثين وخمس مائة .

ولما عاد كمال الدين [الشهرزورى][6] سُيِّر على يده المحضر بخام الراشد ، فحكم به قاضى القضاه الزينبي بالموصل — وكان عند عماد الدين[7] — وخُطب للمقتفى بالموصل وسائر البلاد العمادية ، ثم فارق الراشد بالله الموصل ، وسار نحو الرى ، ثم توجه نحو همذان ، ولم تزل الأحوال تترامى به إلى أن عرض له مرض شارف به التلف ، ثم وثب عليه جماعة من الباطنية فى يوم الثلاثاء سادس شهر رمضان سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة ، فقتلوه ودفن بشهرستان فى جامعها[8] .

---

(١) فى الأصل : « وصرف » والتصحيح عن (ابن الأثير) ، (س) ، هذا ولم يوفق الناشر لتحقيق موضع هاتين المهتين ، وإنما عاد ابن الأثير إلى ذكرها مرة ثانية فى حوادث سنة ٥٦٨ ، وذلك فى (ج ١١ ، ص ١٤٨) ، قال : « وفيها أرسل نور الدين محمود رسولا إلى الخليفة ... يطلب تقليدا بما بيده من البلاد ... وأن يعطى من الاقطاع بسواد العراق ما كان لأبيه زنكى وهو : صريفين ودرب هارون ، والتمس أرضا على شاطىء دجلة يبنيها مدرسة للشافعية ويوقف عليها صريفين ودرب هارون .. » .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٧) : « وجرى ملكا » وفى (س) : « وحرص مالكا » .

(٣) فى (ابن الأثير) : « ويزداد فى ألقابه » وفى (س) : « وأمر أن يزاد فى الغاية » .

(٤) فى (س) : « خاصت » .

(٥) فى الأصل : « بالله » وما هنا عن (س) وهو الصحيح .

(٦) ما بين الحاصرتين عن : (ابن الأثير) .

(٧) هنا ينفصل ابن الأثير عن ابن واصل ، ويورد تفاصيل مختلفة عن حوادث أخرى .

(٨) ورد تاريخ قتل الراشد فى نسخة (س) متأخراً عن الخبر ومكان الدفن ، وهو هنا متقدم .

وفى[١] سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة نازل عماد الدين دَقُوقاء[٢] وملكها بعد أن قاتل على قلعتها قتالاً شديداً .

منازلة عماد الدين مدينة حمص[٣]

قد ذكرنا أن حمص كانت لصمصام الدين خترخان بن قراجا، وأن عماد الدين قبض عليه سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وحبسه فى قلعة حلب ، ثم نقله إلى الموصل فحبسه بها ، وقُتل فى الحبس سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، فولى حمص بعده ولده عين الدولة إيلخان[٤] بن خترخان ، والمدبر لأمره اسباسلار خرتاش — مملوك أبيه — .

ولما كان فى سنة ست وعشرين وخمسمائة وثب على عين الدولة مملوكه [ومملوك أبيه[٥]] برغش فقتله ، وكان بالقلعة زوج لجارية خترخان ، ومعه ابن لخترخان ، فقتل برغش ، وأجلس فى الأمر قريش بن خترخان[٦] ، والمدبر لأمره اسباسلار خرتاش ، ثم سلم خرتاش حمص الأمير شمس الملوك إسماعيل بن بورى — صاحب دمشق — وأخذ منه عوضاً اقترحه عليه ، فلما قُتل شمس الملوك ، وولى أخوه

---

(١) قبل هذا الخبر فى (س) ورد هذان اللفظان : « قال الراوى » دون أن يحدد من هو وأغلب الظن أن كاتب نسخة (س) كتبها بالاملاء عن غيره ، وأن هذين اللفظين كانا من مستلزمات الملى .

(٢) فى الأصل : « دقوقا » وقد ضبط اللفظ بعد مراجعة ياقوت حيث ذكر أنها مدينة بين إربل وبغداد .

(٣) هذا العنوان غير موجود فى (س) والكلام هناك متصل .

(٤) رسم هذا اللفظ فى الأصل هكذا : « أى لخان » وهو فى (س) : « أبى طان » .

(٥) مابين الحاصرتين عن : (س) ص ٢ ب .

(٦) فى الأصل : « ختلخان » ، والتصحيح يقتضيه النص .

شهاب الدين محمود بن بورى (١) سلم حمص للأمير معين الدين أُنَر (٢) — مملوك جده طغتكين — ، فلما كانت هذه السنة — سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة — توجه الأمير عماد الدين من الموصل إلى حمص ، وحصرها ، وقبل وصوله إليها نازلها حاجبه [٤٢] الأمير صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيسيانى — صاحب حماة ، وهو أكبر أمرائه — ، وكان ذا مكر وحيل ، أرسله عماد الدين (٣) ليتوصل مع من فيها ليسلموها إليه ، فوصل إليها وفيها الأمير معين الدين أُنَر (٢) — وهو أكبر أمراء دمشق وإقطاعه حمص — ، فلم ينفذ فيه مكره ، ثم وصل عماد الدين فحصرها ، وعاود معين الدين فى تسليم البلد غير مرة ، تارة بالوعد وتارة بالوعيد ، فاحتج بأنها ملك شهاب الدين ، وأنها بيده أمانة لا يسلمها إلا عن غلبة (٤) ، فأقام عليها إلى العشرين من شوال ، ثم رحل عنها من غير بلوغ غرض .

ذكر فتح قلعة بارين (٥) وكسر الفرنج — لعنهم الله —

ثم سار الأمير عماد الدين من حمص ونازل بارين — وهى للفرنج بالقرب من مدينة حماة — ، وزحف إليها ، فحشد الفرنج فارسهم وراجلهم ، وساروا إلى عماد الدين

(١) هذه الفقرة السابقة لهذا الرقم كلها استطراد من ابن واصل لتفصيل هذه الحقبة من تاريخ حمص ، وهو استطراد هام للغاية إذ لا يوجد له شبيه فى كل المراجع التى تؤرخ لهذا العصر ، وهذه ميزة لابن واصل ولكنا به فقد اعتاد أن يقف طويلا وأن يتحدث تفصيلا كلما ورد ذكر مدينة من مدن الشام الشمالية ، وخاصة المدن الهامة الثلاثة : حماة — وطنه الأصلى — ، وحمص ، وحلب .

(٢) فى الأصل : « أنز » أنظر ما فات هنا ، ص ٩ ، هامش ٤

(٣) فى (س) : « عماد الدين إليها ليسلموها » ، وما هنا يتفق ونص ابن الأثير (ج ١١ ، ص ١٩)

(٤) فى (س) : « عن إذنه » وما هنا يتفق ونص ابن الأثير .

(٥) فى الأصل : « ماردين » وهو خطأ ، والتصحيح عن : (س) و (ابن الأثير) ؛ أنظر أيضاً النص فيما يلى . وهى فى (ابن الأثير ، ج ١١ ص ٢٠) : « بعرين » ؛ والرماد صيحان ، وإنما بعرين هو ما تستعمله العامة ، وبارين تقع بين حماة وحلب ، (ياقوت : معجم البلدان) .

فى ملوكهم وقامصتهم (١) وكنودهم (١) ليرحلوه عن بارين فلقيهم وقاتلهم أشد قتال، وصبر الفريقان، فهزم الفرنج، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب، فاحتمى ملوكهم وفرسانهم بحصن بارين — لقربه منهم —، فحصرهم المسلمون، ومنع عماد الدين منهم كل شيء، وتعذر وصول الأخبار إليهم، ودخلت القسوس والرهبان بلاد الروم والفرنج وما والاها من بلاد النصرانية، مستنصرين على المسلمين، وأعلموهم أن زنكى إن أخذ حصن بارين ومن فيها من الفرنج ملك جميعَ بلادهم فى أسرع وقت لعدم الحامى عنها، وأن همة المسلمين مصروفة إلى فتح بيت المقدس، فحشدت النصرانية وجمعت، وقصدوا الشام مع ملك قسطنطينية.

وجدّ عماد الدين فى حصار بارين، وعدمت عندهم الذخائر حتى أكلوا الدواب، فأذعنوا بالتسليم ليؤمنهم ليعودوا إلى بلادهم، فلم يجبهم [إلى ذلك (٢)] فلما سمع بقرب ملك الروم واجتماعه بمن بقى من الفرنج أعطاهم الأمان، وتسلم منهم الحصن،

---

(١) يتردد ذكر « القَوْمس » كثيراً فى الكتب العربية التى أرخت للحروب الصليبية كالروضتين لابى شامة والكامل لابن الأثير . وهو تعريب حرفى للفظة اللاتينية « Comes » أى الأمير . ومعناها الأصلى فى اللاتينية « الرفيق » لأنه كان فى بادىء الأمر يرافق الملك فى حروبه وتنقلاته ، ثم سمى بالأمير ، وقد تختلف المراجع فى رسم هذا اللفظ ، فهو القُمس ، أو القومس أو القمص ، أو القومص ؛ وهم تارة يؤنثونه فيقولون : القَوْمصيَّة ، أو القَوْمصة ، وكما اختلفت المراجع فى رسم المفرد اختلفت أيضاً فى رسم الجمع ، فهو عندهم : قامس ، وقامسة ، وقامصة ، وقوامص ؛ ولفظة (Comes) هى التى حورت فى اللغة الفرنسية إلى (Comte) وهذه هى ما اعتادت نفس المراجع أن تعربها إلى « كُنْد » ؛ واختلفوا فى رسم هذا اللفظ أيضاً فهو عندهم : كُند ، وقند ، وهم يجمعونهم على كنود . وهو عين اللفظ الذى اعتاد الكتاب المحدثون أن يرسموه هكذا « كُنت » أو « كونت » ، ومعنى اللفظين واحد وهو الأمير ، وإنما الأول مأخوذ عن اللاتينية (Comes) والثانى عن الفرنسية (Comte) أنظر : (الأب انستاس مارى الكرملى : ألقاب الشرف والتعظيم عند العرب ، مجلة الرسالة ، العدد ٤١١ ، ١٩ مايو سنة ١٩٤١) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن (س) و (ابن الأثير) .

وقرر عليهم خمسين ألف دينار [٤٣] يحملونها[1] إليه ، ووقت الإجابة إلى ذلك ، فلما فارقوا الحصن وتحققوا خروج ملك الروم لنصرتهم ندموا حيث لم ينفعهم الندم[2] .

ذكر فتح المعرة وكفر طاب

وفى مدة حصار بارين تسلم عماد الدين — رحمه الله — المعرّة وكفر طاب من الفرنج (٣ ، وكان الضرر يلحق المسلمين بالفرنج الذين فيهما لتوسطهما البلاد الإسلامية ٣) ، ولقد سلك الأمير عماد الدين من العدل فى أهل المعرة لما استنقذها من الفرنج طريقة لم يسلكها أحد قبله ، سمعت[4] والدى — رحمه الله — يقول — ونحن بالبيت المقدس سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، وكان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن أبى بكر بن أيوب قد قدم إليها فاجتمع به والدى بالحرم الشريف — قال : « سألنى اليوم السلطان الملك المعظم : هل كان للمعرّة سور ؟ قلت : « نعم » ، قال : « فمن هدمه ؟ » قلت : « أتابك زنكى لما ملك المعرّة واستنقذها من الفرنج » ، ثم ذكرت له عدل أتابك زنكى ، وقلت له : إنه كان حنفى المذهب ، ومن مذهب أبى حنيفة — رحمه الله — أن الكفار إذا استولوا على بلد وفيه أملاك للمسلمين خرجت تلك الأملاك عن ملك أصحابها (٥ لصيرورة البلد دار حرب ٥) ، فإذا عاد البلد

---

(١) فى الأصل : « يحملوها » وما هنا عن : (س) و (ابن الأثير) وهو الصحيح .

(٢) هذه الحوادث رواها ابن الأثير أكثر تفصيلا ، والنصان متفقان فى اللفظ فى أكثر من موضع .

(٣) نص (س) يختلف عما هنا بعض الشىء وهو : « وكان الضرر بالأفرنج الذين فيهما على المسلمين عظيما لتوسطهما البلاد الاسلامية » .

(٤) هذه فقرة من الفقرات الكثيرة الهامة التى يشير فيها ابن واصل إلى أبيه وإلى نفسه ، ومن هذه الفقرات استطعنا أن نعرف الشىء الكثير عن حياة ابن واصل وحياة أبيه مما لم تتضمنه كتب التراجم .

(٥) هذه الجملة ساقطة من (س) .

بعد ذلك إلى المسلمين كانت تلك الأملاك لبيت المال ، فلما فتح أتابك المعرة جاءه[١] المعربون يطلبون تسليم أملاكهم إليهم ، فاستفتى أتابك الفقهاء [على][٢] ذلك ، فأفتوه بما يقتضيه مذهبهم ، وهو أن الأملاك لبيت المال ، ولاحظ لأصحابها فيها ؛ فقال رحمه الله : إذا كان الفرنج يأخذون أملاكهم[٣] ، ونحن نأخذ أملاكهم ، فأى فرق بيننا وبين الفرنج ؟ كل من أتى[٤] بكتاب يدل على أنه مالك لأرض فليأخذها ، فرد إلى الناس جميع أملاكهم ، ولم يعترض لشىء منها . وقال : « فاستحسن [السلطان][٥] الملك المعظم هذه الفعلة » . قلت[٦] : وأما ابن الأثير[٧] فإنه فى تاريخه روى ذلك على غير هذه الصورة ، وقال : « إن الفرنج لما ملكوا المعرة أخذوا أملاك أهلها ، فلما فتحها [عماد الدين][٨] زنكى ، حضر من بقى من أهلها ومعهم أعقاب من هلك ، فطلبوا [٤ ٤] أملاكهم ، فطلب منهم كتبها ، فقالوا : إن الافرنج أخذوا كل ما لنا ، وذهبت الكتب التى للأملاك[٩] ؛ فقال لأصحابه : « اطلبوا دفاتر ديوان حلب ، فكل من عليه خراج على ملك يسلم إليه » ، ففعلوا ذلك ، وعاد الناس إلى أملاكهم[١٠] ؛ وهذا من أحسن الأفعال وأعدلها » — رحمه الله وقدس روحه — .

(١) فى الأصل : « جاءوا » وما هنا عن س .

(٢) ما بين الحاصرتين عن (س) .

(٣) فى (س) : أملاكهم ولا نردها نحن ، فأى فرق ... الخ » .

(٤) فى الأصل : « أتا » بالألف .

(٥) ما بين الحاصرتين عن (س) .

(٦) مكان هذا اللفظ فى س : « قال صاحب الكتاب القاضى جمال الدين بن واصل قاضى القضاة بحماة » .

(٧) هذا مثل من أمثلة كثيرة ستأتى فيما بعد تدل على أن ابن واصل لم يكن يقنع بالرواية الواحدة حتى ولو كان راويها أبوه نفسه ، بل كان يقارن بين روايات المؤرخين المختلفين كلما وجد خلافا بين هذه الروايات .

(٨) ما بين الحاصرتين عن (س) و(ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٠) .

(٩) نص ابن الأثير : « كل ما لنا والكتب التى للأملاك فيها » .

(١٠) نص ابن الأثير : « وأعاد على الناس أملاكهم » .

ذكر خروج ملك الروم إلى بلاد الإسلام

لما مضت القسوس والرهبان إلى بلاد الروم واستنفروهم على المسلمين بسبب عماد الدين ومنازلته بارين ، وخوّفوهم من أخذها واستئصال من فيها ، فتجهز الروم وركبوا فى البحر من قسطنطانية ، وساروا إلى أنطاكية ، وهى لهم يومئذ ، فأرسوا بها منتظرين المراكب التى فيها الأثقال والسلاح ، فلما وصلت ساروا إلى مدينة نيقية فنازلوها وحاصروها ، ثم صولحوا على مال يؤدى إليهم ، ثم ساروا إلى مدينة أذنه والمصيصة ، — وهما لابن ليون[1] الأرمنى — فحصرهما ملك الروم وملكهما ، ثم نازل عَيْن زَرْبَى[2] ، فملكها عنوة ، وملك تل حمدون ؛ وحمل ملك الروم أهله إلى جزيرة قبرس ، ثم وصل إلى الشام فحصر مدينة أنطاكية فى ذى القعدة من هذه السنة — أعنى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة — ، وضيّق على أهلها ، وبها بيمند الافرنجى ، ثم اصطلحا ، ورحل إلى بغراس ، ثم دخل بلد ابن ليون ، فبذل له ابن ليون مالاً ، ودخل فى طاعته .

ذكر استيلاء عماد الدين على حمص[3]

ولما فرغ عماد الدين من بارين سار إلى حماة ، ثم سار إلى بقاع بعلبك ، فملك حصن المجدل — وهو لصاحب دمشق — وأطاعه مستحفظ بانياس

---

(١) هو ليون الثانى Lion II ملك أرمينية فى تلك السنة . وتسميه مراجع العصر العربية أيضاً « ابن لاون » ، أنظر : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « أرمينية » .

(٢) فى الأصل : « عين رزبة » ، وفى س « عين رزره » ، وفى (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠) : « عين زربة » والتصحيح من معجم البلدان لياقوت حيث عرفها بأنها بلد بالثغر من نواحى المصيصة ، ثم ذكر أنها بقيت بيد المسلمين إلى أن استولى عليها الروم فى أيام سيف الدولة الحمدانى ، ثم قال : « وهى فى أيديهم إلى الآن ، وأهلها اليوم أرمن ، وهى من أعمال ابن ليون » .

(٣) هذا العنوان غير موجود فى س .

— وهي لصاحب دمشق أيضا(١)— ، ثم سار إلى حمص فحصرها ، فلما نازل ملك الروم حلب — على ما نذكره — رحل عن حمص ونزل على سلمية ، ثم نزل على حماة — على ما نذكره — ، فلما انحلت قضية الروم عاد إلى حمص فنازلها ، ثم وقعت بينه وبين شهاب الدين [صاحب دمشق (٢)] مراسلة ، فانتهى الأمر إلى الصلح ، وسلم إليه حمص ، وخطب زمرد خاتون — أم شهاب الدين(٣) — [٤٥] وهي التي ذكرنا أنها قتلت ولدها شمس الملوك ، وزفت إليه في رمضان سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة واعتقد [عماد الدين] أنه إذا تزوجها كان ذلك طريقا إلى تملكه دمشق ، فلما لم يحصل له ذلك أعرض عنها .

ذكر منازلة الروم حلب ثم شيزر(٤)

ثم لما صالح ملكُ الروم ابنَ ليون قصد بزاعة (٥) فحصرها ، فسيَّر عماد الدين جماعة من العسكر إلى حلب ليمنعوها من الروم إن قصدوها ، ثم مَلَكَ ملِكُ الروم بزاعة

(١) هذه الجملة في س مضطربة الألفاظ والمعنى ، ونصها : « وأطاعه وهو مستحفظ بابياس وهو لصاحب دمشق أيضاً » .

(٢) أضفنا ما بين الحاصرتين عن : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢١) وذلك للايضاح .

(٣) هذان اللفظان لم يذكرا في س ، وقد أضاف ابن الأثير لتعريف بهذه السيدة قوله : « وهي التي بنت المدرسة بظاهر دمشق المطلة على وادي شقرا ونهر بردى » .

وهذه المدرسة هي المعروفة باسم « المدرسة الخاتونية البرانية » ، بنتها الحنفية ، وأوقفت عليها الأوقاف في سنة ٥٢٦ ؛ وزمرد خاتون هي صفوة الملوك ابنة الأمير جاولي ، أخت دقاق لأمه ، وزوجة تاج الملوك بوري ، وأم ولديه : شمس الملوك إسماعيل ، ومحمود ، وقد تزوجها فيما بعد أتابك عماد الدين زنكي ، فبقيت معه تسع سنين ، فلما قتل حجت وجاورت بالمدينة المنورة إلى أن ماتت ودفنت هناك بالبقيع في سنة ٥٥٧ ، أنظر أيضاً : (النعيمي : الدارس في المدارس ، نشر جعفر الحسني ، ج ١ ، ص ٥٠٢ — ٥٠٧) .

(٤) هذا العنوان غير موجود أيضا في س ، ويلاحظ أن النص متصل دائما في نسخة س ، وأن العناوين الموضحة قليلة ، وسنكتفي بهذه الاشارة وما سبقها إلى هذه الظاهرة ثم نسكت عنها بعد ذلك لتكرارها في معظم الصفحات والموضوعات .

(٥) نص (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢١) فيه زيادة لتعريف بالمدينة ، قال : « وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب » .

بعد أن نصب على أهلها المنجنيقات ، وضيّق عليهم ، فسلموها إليه بالأمان فى الخامس والعشرين من رجب سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة ، وقتل وأسر وسبا ، وكان عدة من خرج إليه من أهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس ؛ وتنصّر قاضيها وجماعة من أعيانها — نحو أربعمائة نفس — وأقام الروم عشرة أيام يطلبون من اختفى ، فقيل لهم : « إن جماعة نزلوا فى المغارات » ، فدخّنوا عليهم ، فهلكوا فى المغاير .

ثم[1] رحل ملك الروم إلى حلب ، فنزل على نهر قويق ومعه الفرنج الذين بساحل الشام ، وزحفوا إلى حلب بخيلهم ورجلهم ، فخرج إليهم أحداث حلب ، فقاتلوهم قتالاً شديداً ، فقتل من الروم وجُرح خلق كثير ، وقتل بطريق عظيم القدر عندهم ، فأقاموا [على حلب[2]] ثلاثة أيام ؛ ولم يظفروا بطائل ، فرحلوا إلى قلعة الأثارب ، فهرب من بها من المسلمين ، فملكوها الروم تاسع شعبان وتركوا[3] بها سبى بزاعة والأسرى ، ثم رحلوا عنها ، فلما سمع برحيلهم ابن سوار — نائب عماد الدين بحلب — رحل فيمن معه من العسكر ، فأوقع بمن فى الأثارب من الروم ، وخلص الأسرى والسبى ، وعاد إلى حلب .

ونزل عماد الدين سلمية — كما ذكرنا — وعبر ثقله الفرات ، وأقام بسلمية جريدة ، ليتبع الروم ويقطع عنهم الميرة .

ثم قصد الروم قلعة شيزر — وصاحبها الأمير أبو العساكر [سلطان بن على ابن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى[4]] — فنازلوها ونصبوا عليها ستة عشر منجنيقاً ، فسار عماد الدين ونزل على النهر المعروف بالعاصى [٤٦] — بينها وبين حماة —

---

(١) قبل هذا اللفظ فى س (ص ٤ ب) عنوان كبير هو : (ذكر منازلة ملك الروم حلب) .
(٢) ما بين الحاصرتين عن س .
(٣) فى الأصل : «ونزلوا» والتصحيح عن س (ص ٤ ب) و(ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٢) .
(٤) ما بين الحاصرتين عن : (س ، ص ٤ ب) ، (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٢) .

وكان [عماد الدين] كل يوم يركب هو وعسكره ويسيرون إلى شيزر ، ويتفوق بحيث يراه الروم ، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفر به منهم .

ذكر توجه القاضى كمال الدين بن الشهرزورى

إلى السلطان مسعود فى معنى الروم واستنجاده [به (١)] عليهم

ولما كان الروم على بُزَاعَة أرسل الأمير عماد الدين زنكى القاضى كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى إلى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه يستنجده ويطلب منه العساكر ، فقال [القاضى (١)] لعماد الدين حين أرسله : « أخاف (٢) أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة [علينا (١)] ، وينفذ العساكر ، فإذا توسطوا البلاد ملكوها » . فقال الأمير عماد الدين : « إن هذا العدو قد طمع فى البلاد ، وإن أَخَذَ حلب لم يبق بالشام إسلام ، وعلى كل حال فالمسلمون أولى من الكفار بها » . قال كمال الدين : [فسرت طالب بغداد ، وجديت فى السير (٣)] ، فلما وصلت بغداد [وحضرت قدام السلطان (٣)] وأديت الرسالة بإنفاذ العساكر ، وأنا أخاطب ولا أزاد على الوعد [شيئاً (٣)] ، فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم أحضرت فلانا — وهو فقيه كان ينوب عنى فى القضاء — فقلت [له] : « خذ هذه الدنانير وفرقها فى جماعة من أوباش بغداد والأعاجم ، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد : « وا إسلاماه ! وا دين محمداه ! »

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (ص ٤ ب) .

(٢) هذا الحديث بين القاضى وعماد الدين غير مثبت فى (ابن الأثير) ويلاحظ أن نصى ابن واصل وابن الأثير يتفقان فى معظمهما ، وقد يختلفان إيجازاً وإطناباً ، وسقوط هذا الحديث مثل لذلك . والأمثلة بعد هذا كثيرة مما يرجح رأينا أن المؤرخين ينقلان عن مرجع آخر لا نعرفه .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادات عن : س (ص ٥ ا) .

ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطان مستغيثين ؛ ثم وضعت إنسانا آخر فعل ذلك فى جامع السلطان ؛ فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه ، وصاح ، وتبعه ذلك النفر بالصياح والبكاء ، فلم يبق فى الجامع إلا من قام وبكى ، وبطلت الخطبة ، وسار الناس كلهم إلى دار السلطان ؛ وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم ، فاجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون ، وخرج الأمر عن الضبط ، وخاف السلطان فى داره [٤٧] وقال : « ما الخبر ؟ » فقيل : « إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغزاة[1] » ، فقال : « أحضروا [القاضى] ابن الشهرزورى » ، قال : فحضرت عنده وأنا خائف منه ، إلا أننى قد عزمت على صدقه وقول الحق .

فلما دخلت قال : « يا قاضى ، ما هذه الفتنة ؟ » فقلت : « إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من الفتنة والشر ، ولاشك أن السلطان لم يعلم كم بينه وبين العدو ، وإنما بينكم نحو أسبوع ، وإن أخذوا حلب انحدروا إليكم فى الفرات وفى البر ، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد » ، وعظّمت الأمر عليه حتى كأنه ينظر إليه ؛ فقال : « اردد هؤلاء العامة عنا ، وخذ من العساكر ما شئت ، والأمداد تلحقك » . قال : « فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم ، وعرفتهم الحال ، وأمرتهم بالعود ، فعادوا وتفرقوا ، وانتخبتُ[2] من عسكره عشرة آلاف فارس [من خيار العسكر[3]] ، وكتبت إلى الشهيد أعرفه الخبر وأنه لم يبق غير المسير ، وأجد استئذانه فى ذلك ، فأمرنى بتسييرهم والحث على ذلك ، وعبرت بالعساكر الجانب الغربى ، فبينما نحن

(١) فى س (ص ٥ ب) : « العراق » وهو خطأ واضح .
(٢) فى الأصل : « وانتخب » ، وما هنا عن س .
(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (ص ٥ ب) .

نتجهز للحركة ، وإذا قد وصل نجّاب من الشهيد يخبر بأن الروم والفرنج رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها غرضا ، ويأمرنى بترك استصحاب العساكر ؛ فلما خاطبت السلطان فى ذلك أصرّ على إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها ، وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد ويملكها ، ولم أزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقى ، وسرت إلى الشهيد » .

ذكر تخذيل[1] عماد الدين

بين الفرنج والروم حتى رحلوا خائبين

قد ذكرنا منازلة الروم والفرنج شيزر ، ونزول عماد الدين زنكى — رحمه الله — على العاصى بالقرب منهم ، ثم إنه أرسل إلى ملك الروم يقول له : « إنكم قد تحصنتم منى بهذه الجبال ، فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقى ، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم ، وإن ظفرتم بى استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها » ؛ ولم يكن لعماد[2] الدين بهم طاقة ولا قوة ، وإنما كان يوهمهم بهذا القول وأشباهه ، فأشار الفرنج على ملك الروم بمصافقته[3] [٤٨] وهوّنوا أمره عليهم ، فلم يفعل ، وقال : « أتظنون أنه ليس له من العسكر إلا ما ترون ؟ وإنما يريد أنكم تلقونه فيجىء إليه من [نجدات][4] المسلمين مالا حد عليه » .

وكان أيضا عماد الدين يرسل إلى ملك الروم يوهمه بأن فرنج الشام خائفون منه ، فلو فارق مكانه لتخلوا عنه ، ويرسل إلى فرنج الشام يخوّفهم من ملك الروم ، ويقول لهم :

(١) فى س : « تخذيل » .
(٢) فى الأصل : « بعماد » ، وما هنا عن س (ص ١٦) .
(٣) فى (اللسان) : « أصفقوا على الأمر اجتمعوا عليه ، وأصفقوا على الرجل كذلك » .
(٤) مابين الحاصرتين عن : س (ص ١٦) ، (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٢) .

« إن مَلَكَ بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً » ؛ فاستشعر كلٌّ من صاحبه ، فرحل ملك الروم(١) من شيْزر فى هذه السنة ، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها ؛ فاتبع عماد الدين ساقة العسكر ، فظفر بجماعة منهم ، وأخذ جميع ما تركوه ، ورجع ملك الروم خائبا إلى بلاده .

وفى خروج ملك الروم إلى الشام وحلب وعوده عنها خائبا يقول المسلم(٢) ابن خضر بن قسيم الحموى قصيدة يمدح بها الأمير عماد الدين زنكى — رحمه الله — .

أولها :

بِعَزْمِكِ أيُّهَا الملكُ الرَّحِيمُ   تُذَلُّ لَكَ الصِّعَابُ وَتَسْتَقِيمُ

[ومنها يقول(٣)] :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ كَلْبَ الرُّومِ لَمَّا   تَبيَّنَ أَنَّكَ الْمَلِكُ الرَّحِيمُ

فَجَاءَ يُطَبِّقُ الفَلَوَاتِ جَيْشاً(٤)   كَأَنَّ الجَحفَلَ اللَّيْلُ البَهِيمُ

وَقَدْ نَزَلَ الزَّمانُ عَلَى رِضَاهُ   وَكَانَ(٥) لخطْبِهِ الخطْبُ العَظِيمُ

فَحِينَ رَمَيْتَهُ بِكَ(٦) فِى خَمِيسٍ   تَيَقَّنَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَدُومُ

---

(١) كان امبراطور الدولة البيزنطية فى هذه السنة (٥٣٢ = ١١٣٨) هو الامبراطور يوحنا الثانى كالوجوهانيز Calojohannes [١١١٨—١١٤٣] ؛ انظر كتاب (الامبراطورية البيزنطية ، تأليف نورمان بينز ، وترجمة الدكتور حسين مؤنس ، والأستاذ محمود يوسف زايد ، ص ٤٠١) .

(٢) لم أعثر على ترجمة منصلة لهذا الشاعر ، وإنما ذكر (الصابونى ، تاريخ حماة ، ص ١٠٠) أنه كان من الشعراء المجيدين ، وأنه توفى سنة ٥٣٤ ، ثم استشهد بهذه الأبيات المذكورة هنا .

(٣) مابين الحاصرتين عن : س (ص ١٦ ا) ، (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٣) .

(٤) كذا فى الأصل ، وهى فى : س (ص ١٦ ا) : « حيناً » ، وفى (ابن الأثير) : « خيلا » .

(٥) كذا فى الأصل وفى س ، وهى فى (ابن الأثير) : « ودان » .

(٦) كذا فى الأصل وفى ابن الأثير ، وهى فى س : « لك » .

وَأَبْصَرَ فِى الْمَفَاضَةِ مِنْكَ لَيْثاً(١) فَأَخْرَقَ لَا يَسِيرُ وَلَا يُقِيمُ
كَأَنَّكَ فِى الْعَجَاجِ شِهَابُ نُورٍ تَوَقَّدَ وَهْوَ شَيْطَانٌ رَجِيمُ
أَرَادَ بَقَاءَ مُهْجَتِهِ فَوَلَّى وَلَيْسَ سِوَى الْحِمَامِ لَهُ حَمِيمُ

ولما رجع ملك الروم وصل إلى عماد الدين زنكى رسول الخليفة الإمام المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين ، وهو مؤيد الدين سديد الدولة بن الأنبارى — كاتب الإنشاء ورسول السلطان مسعود — بالخلع ، فلبس خلعة الخليفة والسلطان وركب بهما ، وذلك بظاهر مدينة حمص يوم عرفة [٤٩ ٩] من هذه السنة — أعنى سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة — ودخل بزمرد خاتون أم الأمير شهاب الدين محمود ، صاحب دمشق — كما تقدم — .

وفى المحرم سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وصل الأمير عماد الدين — رحمه الله — إلى حلب ، واستقر أهلها وأهل حماة وأهل منبج على حصن بزاعة حتى فتحه بالسيف [وقتل كل من فيه من الروم والفرنج(٢)] وجمعت رؤوس القتلى وبنيت منها منارة أذن عليها ؛ ثم تحول بالعسكر إلى حصار قلعة الأثارب ففتحها فى صفر ، ثم توجه إلى البلاد الشرقية .

وفى هذه السنة نازل عماد الدين قلعة دارا ، وهى للأمير حسام الدين تمرتاش [ابن] ايلغازى بن أرتق(٣) [فلم ينل منها طائلا ، وخاف على المسلمين ، ثم رحل منها إلى حران(٢)] .

---

(١) فى س : « ليث » ومعظم الكلمات الأخرى غير منقوطة ، أما فى (ابن الأثير) فالنص يختلف ، وهو :

وأبصر فى المفاضة منك جيشا فأحرب لا يسير ولا يقيم

(٢) مابين الحاصرتين زيادات عن س (ص ٦ ب) .

(٣) فى الأصل : « برتق » والتصحيح عن س ، وحسام الدين ثانى أمير من فرع الأراتقة الذين حكموا ماردين ، وليها من سنة ٥١٦ إلى سنة ٥٤٧ . أنظر : (Zambaur. *Manuel de Genealogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam.* P. 228).

ذكر استيلاء عماد الدين زنكى على حرّان ثانيا

كنا قد ذكرنا أن عماد الدين ملك حرّان سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، ولما ملكها أقطعها سودكين الكرجى ، فعصى عليه وانضاف إلى عسكر الخليفة المسترشد بالله لما نازل الموصل ، وسار معه حين رحل عن الموصل ، وترك فيها والياً من قبله ؛ ثم مات [بعد ذلك] (١) سودكين فنازلها فى هذه السنة عسكر عماد الدين ، فتسلم المدينة ، وبقيت القلعة وفيها الوالى ، ثم تسلم عماد الدين القلعة فى منتصف ذى القعدة من هذه السنة — أعنى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة — .

ذكر استيلاء عماد الدين زنكى
على شهرزور وأعمالها

كانت شَهْرَزُور (٢) وما يضاف إليها من الأعمال فى يد قفجاق بن أرسلان باش التركمانى ، وكان نافذ الحكم على قاصى التركمان ودانيهم ، وكان الملوك يتحامون قصد ولايته لحصانتها ، فعظم شأنه وازداد جمعه ، فقصده عماد الدين ، وهزم عسكره ، وملك بلاد شَهْرَزُور وغيرها ، وأضافها إلى ولايته ، وأصلح أحوالها ، وخفّف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان .

وفى ذى الحجة من هذه السنة رجع عماد الدين إلى الشام ، ونزل بظاهر حلب على قويق ، ثم رحل إلى أرض حماة ، واستصحب من أهل حماة تسعة آلاف راجل يخدمون الركاب .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادات عن س (ص ٦ ب) .

(٢) هكذا ضبطها ياقوت فى معجم البلدان ، وقال إنها كورة واسعة فى الجبال بين أربل وهمذان ، أحدثها زور بن الضحاك ، ومعنى شهر بالفارسية المدينة .

وفى هذه السنة قُتل الأمير شهاب الدين محمود[1] بن بورى بن طغتكين صاحب دمشق ، وذلك فى ليلة الجمعة [٥٠] لثلاث بقين من شوال ، قتله [ثلاثة من غلمانه][2] : البقش ، ويوسف الخادم ، والفراش الخركاوى[3] ، وصبيحة قتله وصل أخوه الأمير جمال الدين محمد بن بورى ، وملك دمشق ، وقام بتدبير دولته الأمير معين الدين أُنُر[4] ، مملوك جده طغتكين .

ذكر استيلاء عماد الدين زنكى على بعلبك

كان السبب فى ذلك أن شهاب الدين محموداً[5] لما قُتل بدمشق حزنت عليه أمه زمرد خاتون حزناً شديداً ، فحملت عماد الدين على قصد دمشق والطلب بثأر[6] ولدها شهاب الدين ، فتحرك لقصد دمشق ، فاستعد معين الدين بدمشق ، واستكثر

---

(١) حكم دمشق من سنة ٥٢٩ إلى سنة ٥٣٣ ؛ أنظر : (Zambaur, Op. Cit. P. 30)

(٢) فى الأصل وفى س : « غلامه » وما هنا عن : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٦) فان النص فيما يلى يقتضيه .

(٣) فصل (ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٨ — ٢٦٩) الحديث عن قتل شهاب الدين محمود بن بورى وعن قتلته ، وقد آثرنا نقل حديثه هنا للايضاح ، قال : « وفى يوم الجمعة الثالث والعشرين من شوال من السنة فى غداته ظهرت الحادثة المدبرة على الأمير شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بن ظهير الدين أتابك ، وقتله فى فراشه وهو فى نومه فى ليلة الجمعة المذكورة ، بيد غلمانه الملاعين . البغش الأرمنى الذى اصطنعه وقربه إليه واعتمد فى أشغاله عليه ، ويوسف الخادم الذى وثق به فى نومه لديه ، والخركاوى الفراش الراقد حواليه . . . وكان هؤلاء الثلاثة النفر الجناة الملاعين يبيتون حول سريره ، وتحققوا نومه ووثبوا عليه فقتلوه فى فراشه على سريره ، وصاح فراش آخر كان معهم فقتلوه أيضا ، ودبروا أمرهم بينهم وأخفوا سرهم بحيث خرجوا من القلعة ، وظهر الأمر ، وطلب البغش لعنه الله فهرب ونهب بيته ، ومسك الآخران فصلبا على سور باب الجابية . . . إلخ » .

(٤) فى الأصل ، وفى س ، وفى ابن الاثير : « أنز » والصحيح ماأثبتناه هنا ، وهكذا ضبطه الذهبى . انظر : (النعيمى ، الدارس فى تاريخ المدارس ، نشر جعفر الحسنى ، ج ١ ، ص ٥٨٨) .

(٥) فى الأصل « محمود » .

(٦) أنظر تفصيل ذلك فى (ابن القلانسى ، ص ٢٦٩) .

من الذخائر والعدد والرجال ، ولم يتركوا شيئاً يحتاجون إليه إلا وبذلوا الجهد في تحصيله ، وأقاموا ينتظرونه ، ووصل عماد الدين إلى بحيرة قدس ، ثم سار منها إلى بعلبك فنازلها .

وكان الأمير جمال الدين محمد بن بورى لما ملك دمشق بعد أخيه شهاب الدين قد أقطع بعلبك لمعين الدين ، فاستناب فيها معينُ الدين [من يثق إليه] (١) ، فجدَّ عماد الدين في محاصرتها ، ونصب عليها أربعة عشر منجنيقاً ترمى ليلا ونهارا ، فأشرف من بها على الهلاك ، فطلبوا الأمان وسلموا إليه المدينة ، وبقيت القلعة وفيها جماعة من الشجعان ، فقاتلهم فلما يئسوا من النصر طلبوا الأمان ، فأمَّنهم فسلَّموا إليه القلعة ، فلما سلَّموها إليه عذبهم ، وأمر بصلبهم فصُلبوا ، ولم ينج منهم إلا القليل ، فاستقبح الناس منه ذلك ، واستعظموه وخافوه وحذروه ، ولا سيما أهل دمشق ، فإنهم قالوا : « لو ملكنا لفعل بنا كذلك » ، فجدُّوا فى محاربته .

وكان لمعين الدين جارية يهواها ، فلما تزوج أمَّ جمال الدين محمد بن بورى صاحب دمشق سيَّرها(٢) إلى بعلبك ، فلما ملك عماد الدين بعلبك أخذ الجارية [فتزوجها](٣) بحلب ، فلم تزل بها إلى أن قُتل [عماد الدين] (٤) فسيَّرها ابنه نور الدين محمود — رحمهم الله تعالى — إلى معين الدين ، وهى كانت سبب الود بينهما ؛ وكان فتح بعلبك رابع صفر(٥) سنة أربع وثلاثين وخمسمائة .

(١) مابين الحاصرتين عن س (ص ١٧) .
(٢) الضمير هنا عائد على الجارية .
(٣) فى الأصل ، وفى س : « وتركها » ، والصحيح وما يستقيم به المعنى ماذكرناه هنا نقلا عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٧) .
(٤) ما بين الحاصرتين عن س (ص ٧ ب) .
(٥) لم يذكر اليوم والشهر فى س .

ذكر منازلة عماد الدين زنكى دمشق(١)

ولما فرغ عماد الدين من بعلبك سار إلى دمشق ، وذلك فى ربيع الأول(٢) من هذه [٥١] السنة — أعنى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة (٣) — فنزل بالبقاع وسيّر إلى جمال الدين محمد يبذل له بلداً يقترحه ليسلم إليه دمشق ، فلم يجبه إلى ذلك ، فرحل [عماد الدين] إلى دمشق ، ونزل داريا ثالث عشر ربيع الأول(٤) ، والتقت الطلائع واقتتلوا ، فكان الظفر لعماد الدين ، فانهزم الدمشقيون وأخذهم السيف ، وقتل جمع كثير ، ثم تقدم عماد الدين زنكى إلى المصلى ، فنزل هناك ، ولقيه جند دمشق وأحداثها ورَجَّالةُ الغوطة ، فقاتلوه ، فانهزموا ، وقتل منهم وأسر وجرح جماعة ، وأشرف البلد ذلك اليوم على التسليم ، فأمسك عماد الدين عن القتال عدة(٥) أيام وراسل جمال الدين صاحبَ دمشق ، وبذل له بعلبك وحمص وغيرها مما يختار من البلاد ، فامتنع أصحابه من ذلك ، وخوَّفوه عاقبة غدره كما فعل بأهل بعلبك ؛ ثم عاود [عماد الدين] الزحف ، واستمر القتال والحصار إلى شعبان من هذه السنة .

ولما كانت ليلة الجمعة ثامن شعبان توفى جمال الدين محمد بن بورى صاحب دمشق — وعماد الدين محاصر البلد — فأجلس فى الملك بعده ولده الأمير مجير الدين آبق(٦) بن محمد — وهو آخر ملوك دمشق من بيت طغتكين — ، وقام بتدبير

---

(١) هذا العنوان غير موجود فى س ، وإنما مكانه هناك هذان اللفظان : (قال الراوى) .

(٢) فى س : « ربيع الآخر » ، أما ابن الأثير فتفق مع المتن هنا .

(٣) لم ينص على السنة فى س .

(٤) كذا فى الأصل وفى ابن الأثير ، وفى ابن القلانسى : « ربيع الآخر » .

(٥) فى س « مدة » ، وفى (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٨) : « عشرة » .

(٦) فى الأصل : « اتق » ، وقد صحح الاسم بعد مراجعة : (ابن القلانسى ، ص ٢٧١ و (ابن الأثير ج ١١ ، ص ٢٨) و (Zambaur, Op. Cit. P. 30) .

دولته معين الدين أُنَر ، فطمع عماد الدين فى البلد وزحف إليه زحفاً شديداً ظناً منه أنه ربما يقع بين المقدمين والأمراء اختلاف ، فيملك البلد ، فخاب أمله ، وراسل[1] معينُ الدين الفرنجَ ، واستدعاهم إلى نصرته ، وبذل لهم بذولا ، ومن جملتها أنه يحصر بانياس ويأخذها ويسلمها إليهم ، وخوَّفهم من عماد الدين أنه إن ملك دمشق يملك البيت المقدس ، ولا يترك لهم بلداً بالساحل ؛ فأجمع[2] الفرنج وعزموا على المسير إلى دمشق ليجتمعوا مع صاحبها على قتال عماد الدين زنكى ، وعلم عماد الدين ذلك ، فسار عماد الدين إلى حوران — خامس رمضان — عازماً على لقاء الفرنج قبل أن يجتمعوا مع الدمشقيين على قتاله ، فلما سمع[2] الفرنج خبره لم يفارقوا بلادهم ، فعاد عماد الدين إلى حصر دمشق ، فنزل بعذرا[3] ، وذلك سادس[4] شوال من هذه السنة ، وأحرق عدة قرى من المرج [٥٢] والغوطة ، ورحل عائداً إلى بلاده ، ووصل الفرنج إلى دمشق ، واجتمعوا بصاحبها .

وسار معين الدين بعسكر دمشق إلى بانياس — وهى فى طاعة عماد الدين — ليحصرها ويسلمها إلى الفرنج ، وكان صاحبها قد جمع جمعاً ، وسار إلى صور للغارة على بلده[5] ، فصادفه صاحب أنطاكية وهو قاصد إلى دمشق نجدة لصاحبها

---

(١) كان رسول معين الدين إلى الفرنج هو أسامة بن منقذ الشاعر المعروف ، أرسله إلى فولك الخامس ملك بيت المقدس (١١٣١ — ١١٤٢) ، وقد تقدم هذا الملك وحده أول الأمر لمساعدة معين الدين والدماشقة ، فلما هزموا انضم إليهم ريمون صاحب أنطاكية وجوسلين الثانى صاحب الرها . أنظر : (حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ٢٩ — ٣٢ وما به من مراجع) .

(٢) فى س (١٨) : « فاجتمعوا » و « سمعوا » .

(٣) ذكر (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٨) أنها شمال دمشق .

(٤) كذا فى الأصل وفى ابن الأثير ، وفى (ابن القلانسى ، ص ٢٧٢) : « يوم الأربعاء لست بقين من شوال » .

(٥) فى الأصل ، وفى س : « بلدها » ، وهذا خطأ يعكس المعنى ، وقد صحح بعد مراجعة (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٨) ونصه هناك واضح مفهوم وهو : (وكان واليها — أى والى بانياس — قد سار قبل ذلك منها بجمعه إلى مدينة صور للاغارة على بلاده) .

على عماد الدين ، فاقتتلا ، فانهزم المسلمون ، وأُخذ صاحب [١] بانياس ، فقُتل من قُتل ، ونجا من نجا إلى بانياس [٢] ، وجمعوا جمعاً كثيراً من أهل البقاع ، وحفظوا القلعة ، فثار لها [٣] معين الدين — ومعه الفرنج — فتسلمها وسلَّمها للفرنج ، ولما سمع عماد الدين حصر بانياس عاد إلى بعلبك ليدفع عن بانياس من يحصرها ، فأقام فيها .

فلما عاد عسكر دمشق — بعد ملك بانياس وتسليمها للفرنج — فَرَّق عماد الدين عسكره فى الإغارة على حوران وأعمال دمشق ، وسار جريدة ، فنزل على دمشق سحراً [٤] ، ولم يعلم به أحد ، فلما أصبح الناس ورأوا عسكره ، خافوا وارتج البلد ، واجتمع العسكر والعامة على السور ، وفتحت الأبواب ، وخرج أهل البلد إليه ، وقاتلوه ، فلم يمكن الأمير عماد الدين عسكره من الإقدام عليهم ، لغيبة أكثر عسكره فى الإغارة وتفرقهم .

ثم توجه عماد الدين إلى مرج راهط ، وقد أقام ينتظر عود عسكره ، فعادوا إليه وقد ملؤوا أيديهم من الغنائم ، فلما اجتمعوا عنده رحل عائداً إلى بلاده [٥] .

وفى سنة خمس [٦] وثلاثين وخمسمائة جرت وقعة بين عماد الدين والأمير ركن الدين داوود بن سقمان بن أرتق — صاحب حصن كيفا — فانهزم ركن الدين ، وملك عماد الدين بهرد [٧] ، وأدركه الشتاء فعاد إلى الموصل .

---

(١) كان صاحب بانياس هو (إبراهيم بن طرغت) ، انظر : (ابن القلانسى ، ص ٢٧٢) .

(٢) فى س (٨ ا) : « فقتل جميع من نجا إلى بانياس » .

(٣) فى س (٨ ا) : « فنادى معين الدين » .

(٤) فى الأصل : « سجر » ، وفى س (٨ ا) : « سحر » ، والتصحيح عن : (ابن الأثير ج ١١ ، ص ٢٩) .

(٥) المعنى متفق فى الفصول السابقة بين النص هنا وبين الأثير ، ولكن المؤرخين — كما سبق أن ذكرنا — يختلفان إيجازاً وإطناباً ، تقديماً للحوادث وتأخيراً لها .

(٦) فى الأصل ، وفى س (٨ ب) : « خمسة » والصحيح ما أثبتناه .

(٧) كذا فى الأصل ، وهى فى س (٨ ب) : « بهرد » وفى (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٠) : « بهمرد » .

وفى سنة ست وثلاثين وخمسمائة ملك عماد الدين الحديثة ، ونقل من كان بها [من آل مهراش] (١) إلى الموصل ، ورتّب أصحابه بها .

وفى هذه السنة خُطب لعماد الدين بآمد ، وصار صاحبها فى طاعته ، وكان قبل ذلك موافقا لركن الدين داوود — صاحب الحصن — على عماد الدين ، فلما رأى قوة عماد الدين صار معه .

وفيها أغار عسكر عماد الدين — المقيمون بحلب — على بلد الفرنج [٥٣] فنهبوا وظفروا بسرية للفرنج ، فقتلوا منهم نحو سبعمائة رجل (٢) .

وفى سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ملك عماد الدين قلاع الهكاريَّة ، وقد ذكرناه لتعلقه بما كان قبله .

ذكر الاتفاق بين السلطان مسعود بن (٣) محمد وبين عماد الدين زنكى

كان السلطان مسعود قد حقد على عماد الدين حقداً شديداً ، وكان (٤) ينسب خروج أصحاب الأطراف عليه إلى ذلك بمواطأة من عماد الدين ، وأنهم إنما يصدرون عن رأيه ، وكان عماد الدين يفعل ذلك لئلا يخلو السلطان مسعود فيتفرغ لقصده (٥) .

(١) ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٤) .

(٢) فى س : « فارس » .

(٣) فى الأصل : « مسعود وبين محمد » .

(٤) كذا فى الأصل . وفى س (٨ ب) : « لأنه كان ينسب خروج أصحاب الأطراف عليه بمواطأة من عماد الدين ، بينهم إنما يريدون عن رأيه » .

(٥) فى الأصل ، وفى س (٨ ب) : « لئلا يزال السلطان مسعود مشغولا عنه فلا يتفرغ لقصده » وهو نص مضطرب المعنى ، وقد صحح بعد مراجعة : (ابن الأثير ، ج ١١ ص ٣١) .

ففى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة رحل السلطان إلى بغداد ، وجمع العساكر ، وتجهز لقصد عماد الدين زنكى ، فأرسل إليه عماد الدين يستعطفه ويستميله ، فأرسل إليه السلطان أبا عبد الله بن الأنبارى فى تقرير القواعد ، فاستقرت القاعدة على مائة ألف دينار يحملها عماد الدين ، فحمل إليه عشرين ألف دينار ، أكثرها عروض ، وتنقلت الأحوال بالسلطان إلى أن احتاج إلى مداراة عماد الدين ، فأطلق له الباقى مداراة واستمالة له ، وحفظا لقلبه .

وكان عماد الدين عنده من الدهاء والمكر شىء كثير ، فمن جملة ما فعله : أنه كان ولده الأكبر سيف الدين غازى لايزال فى خدمة السلطان مسعود — سفراً وحضراً — نائباً عن أبيه فى الخدمة ، فأرسل إليه يأمره بالهرب[1] من السلطان [مسعود] إلى الموصل ، وأرسل إلى نائبه نصير الدين جَقَر بالموصل يأمره بمنع سيف الدين من الدخول إلى الموصل والوصول إليه ، فهرب سيف الدين غازى ووصل إلى الموصل ، فمنعه نصير الدين من الدخول إلى الموصل[2] ، ولما بلغ الخبر إلى والده أرسل إليه يأمره بالعود إلى السلطان ، ولم يجتمع به ، وأرسل معه رسولاً إلى السلطان يقول له : « إن ولدى هرب [خوفاً][3] لما رأى تغير السلطان علىّ ، وقد أعدته إلى الخدمة ، ولم أجتمع به ، فإنه مملوكك ، والبلاد لك » . فحلّ هذا عند السلطان محلا عظيما .

---

(١) فى س (١٩) : « بالقرب » ، وما هنا هو الصحيح .

(٢) فى الأصل بعد لفظ « الموصل » : « إلى والده » وهما لفظان زائدان لايستقيم بهما المعنى ، لحذفناهما ، ولا وجود لهما فى س ؛ وفى (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٦) : « الدخول إلى الموصل الوصول إليه » .

(٣) مابين الحاصرتين زيادة عن : س (ص ١٩) ، وابن الأثير .

وفى هذه السنة سار عماد الدين إلى ديار بكر ، ففتح طَنْزَة (١) ، وأسْعِرد (٢) ، والمَعْدَن (٣) ، وحِيزان (٤) ، وحصن [٥٤] الروق (٥) ، وفطليس (٦) ، وباناسا (٧) وحصن ذى القرنين (٨) ، وغير ذلك ؛ وملك من [بلد ماردين مما هو بيد] (٩) الفرنج يومئذ جلين ، والمُوَزَّز (١٠) ، وتل موزن ، وغيرها من حصون شَبَخْتان (١١) ، وقصد مدينة آمد ، وحانى (١٢) ، وحصرها ، فلم ينل غرضا فرحل عنهما .

وفيها سيَّر عماد الدين عسكراً إلى عانة ففتحوها .

---

(١) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها بلد بجزيرة ابن عمر من ديار بكر ، وهى عند (الفارق، هامش ص ١٣٧ من ابن القلانسى) : « طنزى » .

(٢) كذا فى الأصل وفى ابن القلانسى وابن الأثير ، وقد رسمها ياقوت : « إسعِرت » و « سِعِرت » وقال إنها مدينة بديار بكر قرب أرزن الروم وحيزان .

(٣) لم يذكرها ياقوت ، وإنما أشار (الفارق ، هامش ص ٢٧٤ من ابن القلانسى) إلى أنها إحدى مدن ديار بكر .

(٤) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها بلد قرب إسعرت من ديار بكر .

(٥) كذا فى الأصل ، وفى (ابن الأثير ، ج ١١ ، ٣٦) : « حصن الدوق » .

(٦) كذا فى الأصل وعند الفارق (هامش ص ٢٧٤ من ابن القلانسى) ، وهى فى (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٦) : « مطليس » ؛ ولم يستطع الناشر تحقيق اللفظ أو التعريف به .

(٧) كذا فى الأصل ، وفى (ابن الأثير) : « حصن بانسية » .

(٨) فى الأصل : « ذى المرقين » ، وقد صححت بعد مراجعة (ياقوت) و (ابن الأثير) و (الفارق) ، وقد ذكر ياقوت أنه حصن بقرب آمد .

(٩) فى الأصل : « وملك من بلاد الفرنج » ، وما هنا صيغة ابن الأثير وهى أوضح .

(١٠) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها كورة بالجزيرة منها نصيبين الروم .

(١١) ضبطت بعد مراجعة ياقوت ، فقد قال عند تعريف « تل بسمة » إنه بلد له ذكر من نواحى ديار ربيعة ثم ناحية شبختان .

(١٢) ذكر ياقوت أنها مدينة معروفة بديار بكر فيها معدن الحديد .

ذكر فتح الرُّها

كان الفرنج — لعنهم الله — قد عظم[١] شرهم بالبلاد الجزرية ، وامتدت غاراتهم إلى أقاصيها وأدانيها ، وبلغت إلى آمد ورأس عين ونصيبين والرقة ؛ وكانت لهم الرُّها وسروج والبيرة وغير ذلك ، وكانت جميع هذه الأعمال لجوسلين ، وكان صاحب رأى الفرنج والمقدم على عساكرهم ؛ وكان عماد الدين يعلم أنه متى قصد حصن الرُّها اجتمع بها من الفرنج من يمنعها ، فيتعذر فتحها لما هى عليه من الحصانة ؛ فاشتغل بقصد ديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ لقصدهم ، فاطمأنوا لذلك ، وفارق جوسلين[٢] الرُّها ، وعبر الفرات إلى بلاده الغربية — وكانت له تل باشرو وغيرها — وجاءت عيون[٣] الأمير عماد الدين إليه بذلك ، فنادى فى العسكر بالرحيل وأن لا يتخلف عن الرُّها أحد من غد يومه ، وجمع الأمراء عنده ، ومدَّ السماط ، وقال : « لا يأكل معى على مائدتى هذه إلا من يطعن معى غداً باب الرُّها » ؛ فلم يتقدم إليه غير أمير واحد وصبى لا يُعرف ، لما يعلمون من إقدامه وشجاعته ؛ وأن أحداً لا يقدر على مساواته فى الحرب . فقال الأمير لذلك الصبى : « ما أنت وهذا المقام ؟ » فقال [عماد الدين] : « دعه ، فإنى أرى والله وجها لا يتخلف عنى[٤] » .

---

(١) كذا فى الأصل . وفى س (ص ٩١) : « عبر » ، وفى (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٧) : « عم » .

(٢) هو جوسلين الثانى صاحب الرها فى ذلك الحين ، وكان على جانب كبير من الرعونة منكبا على ملذاته الخاصة ، مما دفعه إلى إيثار الاقامة فى تل باشر وترك الرها فى حماية جماعة من الأرمن والسوريان غير القادرين على حمايتها .

(٣) كان على رأس هؤلاء العيون فضل الله بن جعفر نائب عماد الدين على حران ، أنظر (حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ٣٥) .

(٤) النص هنا وفيما يلى من حوادث استعادة الرها يتفق مع نص (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٧ وما بعدها) اتفاقا يكاد يكون تاما .

وسار عماد الدين فى العساكر — وذلك فى جمادى الأول سنة تسع وثلاثين وخمسمائة — فكان عماد الدين أول من حمل على الفرنج — ومعه ذلك الصبى — ، وحمل فارس من خيّالة الفرنج على عماد الدين عرضاً ، فاعترضه ذلك الأمير فطعنه فقتله ، وسَلِمَ عماد الدين ، ونازل البلد محاصراً له ثمانية وعشرين يوما ، وزحف إليه عدة دفعات ، ونقب النقّابون سور البلد فسقطت البدنة ، وملك البلد عنوة وقهراً ، وحصر القلعة فملكها وذلك لأربع عشرة بقيت [1] من جمادى الآخرة من هذه السنة ، ونهب الناس الأموال ، وسبوا الذرية ، وقتلوا الرجال . [٥٥]

ورأى الأمير عماد الدين البلد فأعجبه ، ورأى أنه لا يجوز فى السياسة [2] تخريب مثله ، فنودى فى العسكر برد ما أخذ من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم وإعادة ما اغتنموا من أثاثهم وأمتعتهم ، فردوا الجميع عن آخره ، ولم يفقد إلا النادر ، وعاد البلد إلى حاله ، ثم تسلم سَرُوج [3] وسائر الأماكن التى كانت بيد الفرنج شرقى الفرات ما عدا البيرة ، ثم سار إلى البيرة [4] فحصرها ، وكان الفرنج قد أكثروا ميرتها ورجالها .

---

(١) فى س (١٠٩) : «خلت» ، وعن تحقيق التاريخ انظر : (ابن القلانسى : الذيل ، ص ٢٧٩) حيث يذكر أن المدينة سقطت فى السادس والعشرين من جمادى الآخرة .

(٢) فى س (١٠٩) : « ورأى الناس يدرو فى السياسة . . إلخ » .

(٣) هكذا ضبطها (ياقوت : معجم البلدان) وقال إنها بلدة قريبة من حرّان من ديار مضر . أنظر أيضاً : (*R. Dussaud, Topographie Historique de la Syrie Antique et Médiévale*. Paris, 1927. P.P. 241, 480, 519, 522).

(٤) إلى هنا تنتهى ص ٩ ب من نسخة س وبنهايتها ينتهى الاتفاق بين النسختين ، وبين ص ٩ ب وص ١٠ ا سقط يتضمن الحوادث التالية . والبيرة المشار إليها هنا بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية وهى قلعة حصينة . أنظر : (ياقوت : معجم البلدان) و (ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ١٥٧ ، ٢١٧) .

(١) ذكر مقتل نصير الدين جَقَر النائب بالموصل

كان الملك ألب أرسلان بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه عند عماد الدين بالموصل وهو (٢) أتابكه ، وقد تقدم ذكر ذلك ، وكان عماد الدين يظهر للخلفاء والسلاطين وأصحاب الأطراف أن البلاد للملك ألب أرسلان ، وهو نائبه بها ، والخطبة له في جميع بلاده ، وكان ينتظر وفاة الملك مسعود ليخطب له (٣) بالسلطنة ، ويملك بغداد وسائر الممالك باسمه ، وكان نصير الدين النائب كل يوم يقصده ليقوم بخدمة إن عرضت له ، فحسّن بعض المفسدين الملك ألب أرسلان قتل نصير الدين ، وقال : « إن قتلته ملكت الموصل وغيرها ، ولا يبقى مع أتابك زنكى فارس واحد » . فصدّق هذا القول ووقع في نفسه ، وواطأ على ذلك جماعة من الأجناد ، فلما دخل نصير الدين عليه للعادة وثبوا عليه فقتلوه ، وألقوا رأسه إلى أصحابه ، ظناً منهم أن أصحابه إذا رأوا ذلك يتفرقون ، ويخرج الملك ألب أرسلان ويملك البلاد .

فلما رأى أصحاب نصير الدين الرأس قاتلوا من بالدار ، واجتمع عليهم خلق كثير من أصحاب عماد الدين وأكابر دولته ، ثم دخل القاضي تاج الدين يحيى ابن الشهرزورى إلى الملك وخدعه ، وقال له : « يامولانا ، لِمَ تحرد من هذا الكلب ؟ هو وأستاذه مماليكك ، والحمد لله الذى أراحنا منه ومن صاحبه على يدك ، وما الذى يقعدك في هذه الدار ؟ قم لتصعد إلى القلعة وتأخذ الأموال والسلاح ، وتملك البلد ، وتجمع لك الجند ، وليس دون البلاد بعد الموصل مانع » . فقام معه وركب ، وصعد

(١) مايقابل هذه الصفحة وما يليها مفقود في س ، ولتصحيح النص سنقارن بينه وبين ماورد في ابن الأثير .

(٢) الضمير هنا يعود على عماد الدين أى أن عماد الدين كان أتابكا للملك ألب أرسلان ولكن السلطة الحقيقية كلها كانت بيد عماد الدين .

(٣) الضمير هنا يعود على الملك ألب أرسلان .

إلى القلعة ، وتقدم تاج الدين إلى النقيب بها والأجناد أن يفتحوا الباب ويتسلموه ، [٥٦] ويعتقلوه ، ففتحوا الباب ، ودخل الملك والقاضي إليهم ، ومعهما من أعان على قتل نصير الدين ، فسُجنوا ، واعتُقل الملك ألب أرسلان بالقلعة .

ذكر رحيل عماد الدين عن البيرة
وتملك المسلمين لها

ولما بلغت الأخبار إلى عماد الدين زنكي بقتل نائبه نصير الدين وهو يحاصر قلعة البيرة وقد أشرف على أخذها ، خاف أن تختلف عليه البلاد الشرقية بعد قتل نصير الدين ، فرحل عن البيرة ، وأرسل الأمير زين الدين على كوچك[1] بن بُكتِكين[2] إلى قلعة الموصل نائباً عنه بها موضع نصير الدين ، وأقام عماد الدين ينتظر الخبر ، فخاف مَنْ بالبيرة من الفرنج أن يعود[3] إليهم ، وكانوا يخافونه خوفاً شديدا ، فكاتبوا صاحب ماردين ، وسلموها إليه ، فملكها المسلمون ، ولم يبق شيء مما هو شرقي الفرات بيد الافرنج ، ولما تولى زين الدين على كوچك الموصل عدل في الناس وأحسن السيرة ، وسلك غير طريقة نصير الدين ، فاطمأن الناس ، وأمنوا ، وازدادت البلاد عمارة ، وكانت بيده مدينة إربل ، فلنذكر صيرورتها إليه .

---

(١) في الأصل هنا وفيما يلي : « على كوجل بن بلتسكين » ، وقد صحح الاسم بعد مراجعة (ابن القلانسي : الذيل ، ص٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٣٠٧ ، ٣٣٧ ، ٣٥٨) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٤١) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٩) . وسيدأب الناشر على تصحيح الاسم فيما يلي دون الاشارة إلى ذلك . وقد ذكر (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٢٧٠) أن زين الدين كان قصيرا ، ولهذا قيل له « كچك » وهو لفظ عجمي معناه بالعربي صغير ، أي صغير القدر .

(٢) ضبط هذا اللفظ بعد مراجعة (ابن خلكان : الوفيات ، طبعة محي الدين عبد الحميد ، ج ٣ ، ص ٢٧٧) .

(٣) في الأصل : « أن يعودوا إليهم وكانوا يخافون خوفاً شديداً » ولا يستقيم المعنى بهذا النص وقد صحح بعد مراجعة (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٩) .

ذكر استيلاء زين الدين على كوچك على إربل

كانت إربل وأعمالها لأبى الهيجا الكردى الهَذَبانى ولورثته من بعده، ثم تغلبت دولة الأتراك السلجوقية عليها وعلى غيرها من البلاد، وتنقلت إلى أن صارت للسلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه، وهو يومئذ صاحب مراغة، قبل أن تصير السلطنة إليه، وله فيها نائب من قِبَله. فسار إليها الأمير عماد الدين زنكى ونازلها فى سنة ست وعشرين وخمسمائة، وهجم البلد وامتنعت عليه القلعة، فأقام يحاصرها، فسار إليه السلطان مسعود من مراغة، فرحل عنها عماد الدين ونزل الزاب، واندفعت الأثقال إلى الموصل، وأقام غربى الفرات، ونوابه يحفظون المخايض. فترددت الرسل بينهم إلى أن استقرّ أن يسير عماد الدين فى خدمة السلطان ليجلسه فى السلطنة، ويكلف الإمام المسترشد بالله أن يخطب له فى بغداد، وفى البلاد، ويسلم إليه إربل. فلما تقررت القاعدة، وجرت بينهما الأيمان سلم إليه إربل، فتسلمها الأمير عماد الدين، وسلمها إلى الأمير زين الدين على كوچك،[٥٧] ثم سار عماد الدين إلى بغداد غربى المـاء، وسار السلطان مسعود شرقى المـاء، وتواعدا أن يلتقيا ببغداد، فوصل من بغداد قراجا الساقى وكبس عماد الدين، فكُسر العسكر وأُسر كل من فيه، ولم ينج سوى عماد الدين، قطع الشط فى زورق وهو مجروح، ووصل إلى الموصل، ولم تزل إربل فى يد زين الدين على وولده بعده إلى آخر أيام الملك المعظم مظفر الدين كُوكُبُورى [١] بن زين الدين.

---

(١) ضبط الاسم بعد مراجعة (ابن خلكان: الوفيات، ج ٣، ص ٢٧٧) وهو لفظ تركى معناه الذئب الأزرق. انظر ترجمته فى نفس المرجع، وللاستزادة من أخبار الدولة التى أنشأها زين الدين على كوچك فى إربل وما حولها والتى حكمها أولاده من بعده أنظر: (دائرة المعارف الاسلامية، مادة «إربل»).

ذكر منازلة عماد الدين قلعة جَعْبَر

قد ذكرنا أن السلطان جلال الدولة ملكشاه لما تسلم حلب عوّض صاحبها عنها — سالم بن مالك بن بدران العقيلى ابن عم شرف الدولة مسلم بن قريش — قلعة جعبر ، وكان قد ملك قلعة جعبر — كما تقدم ذكره — ، فتسلم سالمُ بن مالك قلعة جَعْبَر ، وبقيت فى يده ويد ولده .

فلما كانت سنة إحدى وأربعين وخمسمائة قصد عماد الدين قلعة جَعْبَر — وصاحبها يومئذ مالك بن سالم بن مالك بن بدر العقيلى — وحاصرها ، وسيّر جيشا إلى قلعة فَنَك (١) فحصرها — وصاحبها يومئذ الأمير حسام الدين الكردى البشنوى ، وكانت بيد البشنوية من مدة تزيد على ثلثمائة سنة — وكان قصد عماد الدين بأن لا يترك قلعة فى أعماله متوسطة فى بلاده إلا ويستولى عليها مبالغة فى الحزم والاحتياط ، وطالت مدة حصره لقلعة جَعْبَر ولم يتيسر له فتحها ، فسيّر إلى صاحبها رسولا الأمير حسّان صاحب منبج لمودة كانت بينهما فى معنى تسليمها ، وقال : « تضمن له الإقطاع الكبير والمال الجليل الجزيل فإن أجاب إلى التسليم ، وإلا قل له : والله لأقيمن عليها إلى أن أملكها عنوة ، ثم لا أبقى عليك ، ومن الذى يمنعك منى » . فصعد حسّان إلى القلعة ، وأدى رسالة عماد الدين إليه ، ووعده التعويض عنها وأرغبه ، فامتنع من التسليم ، فقال له حسّان إلى قوله : « وهو يقول لك من يمنعك منى ؟ » ، فقال : « يمنعنى منه الذى منعك من الأمير بَلِك (٢) . ويشير إلى منازلة بَلِك

(١) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها قلعة حصينة منيعة للأكراد البشنوية قرب جزيرة ابن عمر بينهما نحو من فرسخين .

(٢) هو نور الدولة بلك بن بهرام بن أُرْتُق ، وقد ضبط هكذا « Balyg » فى : (Zambaur, p. Cit. Op. 230) ، ولكنه عند (Amedroz) فى (مقدمة ابن القلانسى « Bulak » .

ابن بَهْرام بن أُرْتُق منبج بعد أن أَسَرَ حسَّانَ صاحبَها ولم يبق إلا أخذها ، فجاء سهمُ غَرْبٍ[1] فوقع فى نحر بَلِك فأهلكه ، وخاص حسَّان منه ؛ وكانت واقعة عماد الدين شبيهة بواقعة بَلِك [٥٨] ومن تعالى[2] على الله تعالى أكذبه ، وقد ورد حكايةً عن الله تعالى : « أنا الله ربُّ مكة لا أُعمت لمقدِّرٍ أمراً » .

فعاد حسَّانُ إلى عماد الدين وأخبره بامتناعه ، ولم يذكر له حديث بَلِك .

ذكر مقتل الشهيد عماد الدين أتابك زنكى

ابن آق سنقر — رحمه الله —

ولما كانت ليلة الأحد لست مضين من ربيع الآخر من هذه السنة — أعنى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة — دخل على أتابك عماد الدين صبى من غلمانه أفرنجى — إسمه برنقش[3] — وجماعة من المماليك ، فقتلوه على فراشه ، وهربوا إلى قلعة جعبر ، وأخبروا أهلها بقتله ، ففرحوا بذلك ، وصاحوا على شرافات القلعة ، وأخبروا بقتله العسكر ، فدخل أصحابه إليه وبه رمق ، فحكى ابن الأثير — رحمه الله[4] — عن أبيه ، عن بعض خواص عماد الدين ، قال : « دخلت إليه فى الحال وهو حى ،

---

(١) جاء فى اللسان : «أصابه سهم غَرْبٍ وغَرَبٍ إذا كان لايدرى من رماه ، وقيل إذا أتاه من حيث لايدرى ، وقيل إذا تعمد به غيره فأصابه » .

(٢) فى الأصل : « تالى » وماهنا قراءة ترجيحية .

(٣) كذا فى الأصل ، وهو فى (ابن القلانسى ، ص ٢٨٤ و ٢٨٨) : « يرنقش » ؛ وفى (أبو شامة : الروضتين، ص ٤٢و٤٦) : « برتقش » ؛ أما ابن الأثير وسبط ابن الجوزى فلم ينصا على اسمه . أنظر أيضاً : (حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ٤٠) . ويبدو أن صاحب جعبر هو الذى حرض على قتله بدليل أن قتلته فروا إلى قلعة جعبر بعيد قتله مباشرة .

(٤) لهذا الدعاء أهمية خاصة ، فهو محدد تاريخ البدء فى تأليف هذا الكتاب ويجعله بعد سنة ٦٣٠ هـ وهى السنة التى توفى فيها ابن الأثير المؤرخ .

فحين رآني ظن أني أريد قتله ، فأشار إليّ بأصبعه السبابة يستعطفني ، فوقفت(١) من هيبته ، وقلت يا مولانا : من فعل بك هذا ؟ فلم يقدر على الكلام ، وفاضت نفسه لوقته » .

قال الأمير مؤيد الدولة بن منقذ : « فكأن الشاعر — وهو المتنبي — عناه بقوله :

وقد قابل الأقرانَ حتى قتلْنَهُ ... بأضعفِ قِرْنٍ في أذلِّ مكانِ

ذكر(٢) سيرته وصفته — رحمه الله —

كان حسن الصورة ، أسمر اللون ، حسن العينين ، قد وخطه الشيب ، وكان عمره قد زاد على ستين سنة ، وكان صارما حازما شجاعا شهما مقداما ، عظيم الهمة أبيّ النفس ، قد خافه الملوك ، وارتاع لذكره أصحاب الأطراف ، وكان الخليفة والسلطان يجاور بلادهما بلاده ، وكان يجاوره ابن سكمان صاحب خلاط ، وداود ابن سقمان صاحب حصن كيفا ، وصاحب آمد ، وصاحب ماردين ، والفرنج ، وصاحب دمشق ، وقد أحاطت هذه الممالك بمملكته من سائر جهاتها ، ومع هذا مرةً يقصد هذا ، ومرة يأخذ من هذا ، ومرة يصانع هذا إلى أن ملك من كل مَنْ(٣) يليه طرفا ، وكان الكل يتقونه ويدارونه ، ويخافون منه ، وكان شديد الهيبة على رعيته وعساكره ، عظيم الهيبة في صدورهم حسن السياسة ، لا يقدر القوى على ظلم

(١) نص (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٢) وهو الذى ينقل عنه هنا : « فوقعت » وهى أكثر اتساقا مع المعنى .

(٢) هنا يلتقى النص مرة أخرى مع نسخة س ، وإنما فى ص (١٠٨ ا) من تلك النسخة .

(٣) فى الأصل : « فى كل ممن يليه » ولا يستقيم بها المعنى ، والتصحيح عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٢) .

الضعيف ، وكانت البلاد [٥٩] خرابا قبل أن يملكها فعمّها العدل[1] ، وعمرت لما ملكها ، وقد ذكر أنه كان عنده فى مبدأ أمره ظلم ، فسمع ليلة وهو نازل بحماة شخصاً يغنى على شط العاصى :

« اعـدلوا ما دام أمركم نافـذا فى النفـع والضرر
واحفظوا أيام دولتـكم إنـكم منها على خطر »

فبكى وتبدلت نيته فى الظلم ، وأخذ نفسه من حينئذ بالعدل .

ومما يحكى عنه : أنه دخل مرة الجزيرة فى الشتاء ، ومعه أمير من أكبر أمرائه يقال له عز الدين الدبيسى[2] ، كان من جملة إقطاعه مدينة دَقُوقا[3] ، فنزل فى دار إنسان يهودى من أهل الجزيرة ، فاستغاث [اليهودى] إلى عماد الدين ، وأنهى حاله إليه ، فنظر إلى الدبيسى ، فتأخر ودخل البلد وأخرج بَرَكه[4] وخيامه ، قال الحاكى لهذه الحكاية « فلقد رأيت غلمانه ينصبون خيامه فى الوحل ، وقد جعلوا على الأرض تبناً يقيهم[5] الطين ، وخرج فنزلها » .

وكان [عماد الدين] ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ، ويقول : « مهما كانت البلاد لنا فأى حاجة لكم إلى الأملاك ؟ فإن الإقطاعات تغنى عنها ، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها ، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية ، وتعدّوا عليهم ، وغصبوهم أملاكهم » .

---

(١) فى س (ص ١٠٨ ا) : « فلما ملكها عمها بالعدل ، وعمرت لما ملكها » .
(٢) فى الأصل : « الديسى » ، وهى كذلك فى س (١٠٨ ا) وإنما بدون نقط ، وقد ضبط الاسم بعد مراجعة مصدر هذه القصة وهو (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٤٢) .
(٣) هكذا ضبطها ياقوت ؛ ويقال لها أيضاً « دقوقاء » ، وهى مدينة بين إربل وبغداد .
(٤) البرك المتاع الخاص من ثياب وقماش . انظر : (Dozy : *Supp Dict. Arab*)
(٥) فى الأصل : « يقيها » والتصحيح عن ابن الأثير .

وكان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجرى لأصحابها حتى فى خلواتهم ، وكان له فى دَرْكاة (١) السلطان من يطالعه ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان فى ليله ونهاره من حرب وسلم وهزل وجد ، وكان يغرم على ذلك الأموال الجليلة ، وكان يصل (٢) إليه كل يوم من عيونه عدة قاصدين ، وكان مع اشتغاله بالأمور الكبار من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير ، وكان يقول : « إذا لم يُعرف الصغير ليُمنع صار كبيرا » ، وكان لا يمكِّن رسول مَلك يعبر فى بلاده بغير إذنه ، وإذا استأذنه رسول فى العبور فى بلاده أذن له ، وأرسل إليه من يُسيِّره ، ولا يتركه يجتمع بأحد [٦٠] من الرعيّة ولا غيرهم : فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولا يعلم من أحوالها شيئاً البتة .

وكان يتعهد أصحابه ويمتحنهم ، فسلَّم يوما خُشْكُنانكه (٣) إلى طشت دار (٤) له ، وقال : « إحفظ هذه » . فبقى نحو سنة لا تفارقه الخُشْكُنانكه خوفا أن يطلبها منه ، فلما كان بعد ذلك ، قال له : « أين الخُشْكُنانكه ؟ » فأخرجها من منديل وقدمها

(١) دَرْكاه — والجمع دركاوت — من أصل فارسى « دَرْكَاه » وقد عرفها (Dozy : *Supp. Dict. Arab*) بأنها : الساحة أمام قصر السلطان أو الدهليز أو الرواق او المدخل «Cour devant un palais, vestibule, portique, porte, etc).

(٢) فى س (١٠٨ ب) : « وكان ينهى إليه » .

(٣) خشكنانك أو خشكنانج من أصل فارسى ، نوع من الأطعمة عرفه (Dozy : *Supp. Dict. Arab*) بأنه نوع من الفطير المصنوع من الزبد والسكر والجوز أو الفستق ، ويكون على هيئة الهلال . أنظر أيضاً : (الجواليقى : المعرب ، ص ١٣٤) و (الجاحظ : البخلاء ، طبعة الدكتور طه الحاجرى ، ص ١١٠ و ٣٣٣) .

(٤) الطشت لفظ عامى ، وصوابه الطست ، وهو معرب عن اللفظ الفارسى « تست » والطشت دار أحد الغلمان المشرفين على الطشت خاناه ، وهى كما عرف (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٠ — ١١) « بيت الطشت ، سميت بذلك لأن فيها يكون الطشت الذى تغسل فيه الأيدى ، والطشت الذى يغسل فيه القماش السلطانى . . وفيه مايلبسه السلطان من الكلوته والأقبية وسائر الثياب ، والسيف والخف والسرموزة . . . الخ » أنظر أيضا : (نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٤٦٩) و (محيط المحيط) .

بين يديه ؛ فاستحسن ذلك منه ، وقال : « مثلك ينبغى أن يكون مستحفظاً بحصن » ، وأمر له بدزدارية قلعة كَوَاشَى (١) ، فبقى فيها إلى أن قتل عماد الدين .

وكان لا يمكّن أحدا (٢) من خدمه من مفارقة بلاده ويقول : « إن البلاد كبستان عليه سياج ، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول ، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ويُطمع العدو فيها زالت الهيبة ، وتطرّقت (٣) الخصوم إليها » .

ومن جميل سيرته أنه أسكن الأمير بهاء الدين ياروق التركمانى وأصحابه (٤) بولاية حلب ، وأمرهم بجهاد الفرنج ، وملّكهم ما استنقذوه من البلاد التى للفرنج ، فكانوا يراوحون الفرنج القتال ويغادونهم ، وسَدُّوا ذلك الثغر (٥) ، ولم يزالوا على ذلك إلى سنة ستمائة .

وكانت تضرب بشجاعته الأمثال ، ومما يحكى عنه : أنه حضر مع الأمير مودود صاحب الموصل — قبل أن يملك — حصار طبرية وهى للفرنج ، ووصلت طعنته إلى باب البلد وأثّرت فيه ؛ وحمل أيضا على قلعة عَقْر الحميدية (٦) ؛ وهى على جبل عالٍ ، فوصلت طعنته إلى سورها .

---

(١) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها قلعة حصينة فى الجبال التى فى شرق الموصل ليس إليها طريق إلا لراجل واحد ، وكانت قديماً تسمى « أُرْدُمُشْت » وكَوَاشَى اسم لها مُحْدَث.

(٢) فى الأصل ، وفى س (١٠٨ ا ب) : « أحد » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٣) .

(٣) فى س : « تفرقت » ، وما هنا أصح ، وهو متفق مع ما فى الروضتين .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى س ، وفى (الروضتين ، ج ١ ، ص٤٣) جملة توضح من هؤلاء الأصحاب وهى : « ومن صائب رأيه وجيده أن سير طائفة من التركمان الايوانية مع الأمير اليارق (؟) إلى الشام ، وأسكنهم بولاية حلب . . إلخ » .

(٥) فى الأصل : « وشددوا ذلك » وقد صحح بعد مراجعة س (١٠٩ ا) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٤) .

(٦) ذكر ياقوت أنها قلعة حصينة فى جبال الموصل أهلها أكراد وهى شرق الموصل .

وكان شديد الغيرة، لا سيما على نساء الأجناد ، وكان التعرض إليهن من الذنوب التي لا تُغتفر ، وكان يقول : « إن جندى لا يفارقونى فى أسفارى ، وقل ما يقيمون عند أهلهم ، فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن » ؛ وكان قد وَلَّى قلعة الجزيرة دِزْدارا يقال له نور الدين حسن البربطى [1] ، وكان من خواصه ، وكان غير مرضى السيرة ، فبلغه أنه يتعرض للحرم ، فأمر حاجبه صلاح الدين محمد ابن أيوب الياغيسيانى [2] — صاحب حماة — أن يسير مُجِدًّا ، ويدخل الجزيرة بغتة ، فإذا دخلها أخذ البربطى وقطع ذَكَرَه [٦١] وقلع عينيه ، عقوبة له لنظره بهما إلى الحرم ، ثم يصلبه ؛ فسار صلاح الدين مجدًّا ، فلم يشعر البربطى [1] به ، إلا وهو على باب البلد ، فخرج إلى لقائه ، فأكرمه صلاح الدين ودخل معه البلد ، وقال له : « المولى أتابك يسلم عليك ، ويريد أن يُملى قدرك ويرفع منزلتك ، ويسلم إليك قلعة حلب ، ويوليك جميع البلاد الشامية ، لتكون هناك مثل نصير الدين ، فتتجهز [3] وتَحْدُرُ مالك فى الماء إلى الموصل ، وتسير إلى خدمته ، ففرح بذلك ، ولم يترك له من أمواله شيئاً إلا نقله إلى السفن ليحدرها إلى الموصل فى دجلة ، فحين فرغ من جميع ذلك أخذه صلاح الدين وأمضى فيه ما أُمر به ، وأخذ جميع ماله ، ولم يجسر أحد بعده على أفعاله القبيحة .

---

(١) كذا فى الأصل وفى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٤) وهو فى س (١٠٩ ا) : « البويطى » .

(٢) فى الأصل : « الباغيسانى » ، وفى س (١٠٩ ا) : الباغيشانى » ، وفى (الروضتين، ج ١ ، ص ٤٤) : « الباغيسالى » ، وما هنا عن : (ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١٧) ، وهو فى ذيل تلك الصفحة نقلا عن (الفارقى) : « اليغصيانى » . أنظر أيضاً : *Ibn Al-Qalanisi ; Traduction Francaise* par : Roger Le Tourneau. PP. 20. 23, 35, 41, 129 ، انظر أيضاً ما فات هنا ص ١٩ ، هامش ٢

(٣) فى س ، وفى الروضتين : « فتجهز » . وحَدَرَ السفينة يَحْدُرُها أرسلها إلى أسفل (اللسان) .

وكان — رحمه الله — كثير الصدقات ؛ وكان يتصدق فى كل جمعة بمائة دينار أميرى [ظاهراً[١]] ويتصدق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به ، وركب يوماً فعثرت به دابته ، فكاد يسقط عنها ، فاستدعى أميراً كان معه ، وقال له كلاما لم يفهمه ، ولم يجسر أن يستفهمه عنه ؛ فعاد إلى بيته ، وودَّع أهله عازما على الهرب ، فقالت زوجته : « ما ذنبك وما حملك على الهرب ؟ » فذكر لها الحال ، فقالت له : « إن نصير الدين له بك عناية ، فاذكر له قصتك ، وافعل ما يأمرك به » . فقال : « أخاف أن يمنعنى من الهرب وأهلك » . فلم تزل به زوجته تراجعه ، وتقوى عَزمه إلى أن عرَّف نصير الدين حاله ، فضحك منه ، وقال له : « خذ هذه الصرة الدنانير واحملها إليه ، فهى التى أراد » . فقال : « الله ، الله[٢] فى دمى ونفسى » . فقال : « لا بأس عليك ، فإنه ما أراد غير هذه الصرة » . فحملها إليه ، فحين رآه قال : « أمعك شىء » ؟ قال : « نعم » ، فأمره أن يتصدق [به] ، فلما فرغ من الصدقة ؛ قصد نصير الدين وشكره ، وقال : « من أين علمت أنه أراد الصُرة ؟ » فقال : « إنه يتصدق بمثل هذا القدر كل يوم ، يرسل إلىّ يأخذه من الليل ، وفى يومنا هذا لم يأخذه ، ثم بلغنى أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض ، فأرسلك إلىّ ، فعلمت أنه ذكر الصدقة » .

ولقد حكى من هيبته ما هو أشد من هذا : أنه خرج يوما من قلعة الجزيرة [٦٢] من باب السر خلوةً وملاَّحُهُ نائم ، فأيقظه بعض الجاندارية ، وقال له : « إقعد » . فحين رأى عماد الدين سقط إلى الأرض ، فحركوه فوجدوه ميتا .

---

(١) مابين الحاصرتين إضافة عن الروضتين .

(٢) ذكر لفظ الجلالة فى الأصل مرة واحدة ، ولكنه كرر فى س (١٠٩ ب) ، وفى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٤) .

ومن جميل أوصافه وحسنها أنه كان بطيء التلون بعيد التغير ، (١ لم يتغير على أحد من أصحابه منذ ملك إلى أن قُتل [إلا] بذنب عظيم يوجب التغير ١) ، وأن الأمراء الذين كانوا معه أولا [هم الذين](١) بقوا معه إلى آخر وقت ، إلا من اخترمه الموت منهم ، ولهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له ، وكان يخطب الرجال ذوى الهمم العالية ، والآراء الصائبة ، ويوسّع عليهم فى أرزاقهم ، فيسهل عليهم فعل الجميل ، فلهذا كان إذا قدم إنسانٌ عسكرَه لم يكن غريباً : إن كان جنديا اشتمل عليه الأجناد وأضافوه ، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل(٢) الديوان ، وإن كان عالما قصد القضاة والفقهاء من أصحابه فيؤانسونه(٣) ويحسنون إليه .

ذكر ما كان من الملك ألَب أرسلان الخفاجى(٤)

ولد السلطان بعد قتل عماد الدين

قد تقدم ذكرنا أن الملك ألب أرسلان بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى — الذى كان عماد الدين أتابكه — قتل نصير الدين فى الموصل ، وطمع فى الاستيلاء على البلاد ، وأن القاضى تاج الدين بن الشهرزورى خادعه حتى صعد

---

(١) مابين الرقين ساقط من س ، وقد أضيف مابين الحاصرتين ليستقيم به المعنى بعد مراجعته على : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٤) .

(٢) فى س : « أصحاب » .

(٣) فى الأصل : « فيواسونه » ، وما هنا عن س (١١٠ ا) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٤) .

(٤) يذكر صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٤١) تصحيحاً لهذا الاسم فيقول : « وقد وهم (أى ابن الأثير) فى قوله : ألب آرسلان المعروف بالخفاجى ، فالخفاجى غير ألب آرسلان على ماذكره العماد الكاتب فى كتاب السلجوقية ، فانه قال : كان مع زنكى ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، أحدهما يسمى ألب آرسلان وهو فى معقل من معاقل سنجار ، والآخر يسمى فرخشاه ويعرف بالملك الخفاجى وهو بالموصل . . إلخ » .

إلى القلعة واعتقل بها ، فلما قُتل عماد الدين كان فى صحبة الملك ألب أرسلان فركب واجتمعت العساكر عليه وخدموه ، فأرسل الوزير جمال الدين الأصفهانى إلى الأمير صلاح الدين الياغيسيانى[١] يقول : « المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا — وكان بينهما مشاحنة — ونسلك طريقاً تبقى به البلاد والملك فى أولاد صاحبنا ، فإن الملك ألب أرسلان قد طمع فى البلاد ، واجتمعت عليه العساكر ، وإن لم نتلاف هذا الأمر فى أوله ونتداركه فى ابتدائه اتسع الخرق ، ولم يمكن رقعه »[٢]

فأجابه صلاح الدين إلى ذلك ، وحلف كل واحد منهما لصاحبه ، فركب الوزير جمال الدين [٦٣] إلى الملك [ألب أرسلان][٣] ، وضمن له فتح البلاد ، وأطمعه فيها ومعه صلاح الدين ، وقالا له : « إن [عماد الدين] أتابك كان نائباً عنك فى البلاد ، وباسمك كنا نطيعه » . فصدقهما ، وقربهما طمعا فى أن يكونا عونا له على تحصيل غرضه ، وأرسلا إلى الأمير زين الدين على كوجك بن بكتكين صاحب إربل — وهو النائب عن عماد الدين بالموصل — يعرفانه قتل الشهيد عماد الدين ، ويأمرانه أن يرسل إلى الأمير سيف الدين غازى بن زنكى وهو ولده الأكبر — وكان بشهرزور وهى إقطاعه من أبيه — ليحضر إلى الموصل ويملكها[٤] ، ففعل زين الدين ذلك ، وأرسل إلى سيف الدين واستقدمه ، فقدم إلى الموصل وتسلمها[٤] .

وكان نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكى لما قُتل أبوه فى العسكر[٥] أخذ خاتمه من يده ، وسار إلى حلب فملكها ، واتفق صلاح الدين الياغيسيانى — صاحب حماة — والوزير جمال الدين محمد بن على الأصفهانى على حفظ دولة ولد عماد الدين ،

(١) فى الأصل : « الباغيسانى » ، أنظر ما فات ، ص ١٠٤ ، هامش ٢
(٢) فى س (١١٠ ا) : « رفوه » .
(٣) ما بين الحاصرتين عن س (١١٠ ب) .
(٤) هذا اللفظ ساقط من س .
(٥) فى س (١١٠ ب) : « المسكر » .

والمكر بالملك ألب أرسلان السلجوقى ، وحسّنا له الاشتغال بالشرب والمغنيات ، وقال جمال الدين للملك [ألب أرسلان(١)]: « إن من الرأى أن تسيِّرا لصلاح إلى مملوكك نور الدين بحلب يدبّر أمره » ، فأذن له[فسار(١)] ، و بقى جمال الدين وحده مع الملك فأخذه وقصد [به(١)] الرقة ، واشتغل فيها بشرب الخمر والخلوة بالنساء والمغنيات ؛ وأراد أن يعطى الأمراء شيئاً فمنعه خوفاً أن تميل قلوبهم إليه ، وقال(٢) : « لهم منك الإقطاع الجزيل والنعم الوافرة » .

وشرع جمال الدين يستميل العسكر (٣) ويحلّفهم لسيف الدين غازى بن عماد الدين واحداً بعد واحد ، وكل من حلف يأمره بالمسير إلى الموصل هاربا من الملك ، وأقام الملك بالرقة عدة أيام ، ثم سار إلى ماكسين ، فتركه(٤) بها عدة أيام مشتغلا بلذاته عن طلب الملك ، ثم سار به نحو سنجار ، ولما استقر قدم سيف الدين بالموصل قوى جنان جمال الدين ، ووصل هو والملك ألب أرسلان إلى سنجار ، وأرسل إلى دزدارها وقال له : [٦٤] « لا تسلم البلد ، ولا تمكن أحداً من دخوله ، ولكن أرسل إلى الملك وقل له : « أنا تبع الموصل ، فمتى دخلت الموصل سلمت إليك » . ففعل الدزدار ذلك .

وقال جمال الدين للملك [ألب أرسلان] : « المصلحة أنا نسير إلى الموصل ، فإن مملوكك غازى إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة ، فحينئذ نقبض عليه ونتسلم البلاد » ، فساروا عن سنجار ، وكثر رحيل العسكر إلى الموصل هاربين من الملك ،

---

(١) مابين الحاصرتين عن س .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٧) ، أما نص س (١١٠ ب فمختلف قليلا وهو : « ... قال : فطلبوا الامرا من الملك ألب آرسلان مال (كذا) ، قال : وجعل يقول للأمراء : لكم الاقطاع والنعم الوافرة » .

(٣) فى س : « قلوب العساكر » .

(٤) فى س (١١١ ا) : « فتركه » .

فبقى فى قلة من العسكر ، فساروا [١] إلى [مدينة [٢]] بَلَد ، وعبر الملك ألب أرسلان دجلة من هناك ، ودخل الوزير جمال الدين الموصل ، وأرسل الأمير عز الدين أتابك الدبيسى [٣] فى عسكر إلى الملك ألب أرسلان — وهو فى نفر يسير — فأخذه وأدخله الموصل ، فكان آخر العهد به ، فذُكر أنه خُنق بوترقوس .

واستقر المُلْك بالموصل لسيف الدين غازى بن زنكى ، وأقر الأمير زين الدين على كوَجك [٤] على ما كان عليه من ولاية الموصل ، ومعه جمال الدين محمد بن على — وزيره — ، وأرسلوا إلى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه ، فاستحلفوه لسيف الدين [غازى] ، فحلف له وأقرَّه على البلاد ، وأرسل إليه الخلع ؛ وقد ذكرنا أنه كان فى خدمته فى حياة أبيه ، وكان السلطان مسعود يحبه ويأنس به ، فلم يتوقف فى تقرير البلاد له والحلف له .

ذكر أخبار الأيام النورية

قد ذكرنا مقتل الأمير عماد الدين وتملك ولده سيف الدين غازى الأكبر الموصل ، وتملك ولده نور الدين محمود حلب ، وكانت بعلبك قد ملكها الشهيد ، واستناب بها الأمير نجم الدين أيوب بن شاذى والد الملك الناصر [صلاح الدين [٥]] ،

---

(١) فى الأصل : « فسار » ، وقد صححت ، بعد مراجعة س (١١١ ا) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٧) .

(٢) مابين الحاصرتين عن الروضتين ؛ والنص فى س : « إلى بلد الموصل » وهو خطأ ، وبَلَد — ويقال بَلَط — مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل بينهما سبعة فراسخ ؛ (ياقوت : معجم البلدان) .

(٣) فى الأصل ، وفى س : « الديسقى » ، أنظر مافات ، ص ١٠١ ، هامش ٢

(٤) فى الأصل : « كوجل » ، أنظر مافات ، ص ٢٨ ، هامش ١

(٥) مابين الحاصرتين عن س .

فلما بلغه وفاة الشهيد كاتبه الأمير مجير الدين آبق[1] بن محمد بن بورى بن طغتكين — صاحب دمشق — فى تسليمها ، وبذل له أموالا [كثيرة[2]] وقرايا من أعمال دمشق ، فسلّمها إليه ، وانتقل نجم الدين أيوب إلى دمشق ، وأقام بها ، وذلك لأربع بقين من ربيع الآخر من هذه السنة — أعنى سنة إحدى وأربعين [٦٥] وخمسمائة — وتسلم نور الدين من حاجب أبيه صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيسيانى[3] حماة ، وعوضه عنها مدينة حمص وقلعتها ، قلت : وهكذا ذكر ابن منقذ ؛ وذكر ابن الأثير : أن حمص كانت بيد الأمير سيف الدين غازى ، وإنما تسلمها نور الدين بعد ، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر عصيان الرُّها[4] وعودها إلى المسلمين

وكنا قد ذكرنا افتتاح الرُّها ، افتتحها الأمير عماد الدين زنكى من الإفرنج ، وكانت لجوسلين بن جوسلين[5] ، وكانت له أيضا من غربى الفرات تل باشر ، فلما قتل الشهيد راسل جوسلين[5] أهل الرُّها ، وعامتهم من الأرمن ، وحملهم على العصيان على المسلمين وتسليم البلد إليه ، فأجابوه إلى ذلك ، وواعدهم[6]

---

(١) فى الأصل : « أتق » وصحة الاسم « آبق Abaq » . أنظر : (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٨١) ,(Zambaur, Op. Cit. P. 225) وقد حكم مجير الدين أبق مدينة دمشق من سنة ٥٣٤ إلى سنة ٥٤٩ حيث انتقل ملكها إلى نور الدين محمود بن زنكى وتوفى مجير الدين سنة ٥٦٤ وهو آخر من حكم دمشق من الأسرة البورية . هذا وسيصحح اسمه فيما يلى دون الاشارة إلى ذلك .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) فى الأصل ، وفى س : « الباغيسانى » ؛ أنظر ما فات ، ص ١٠٤ ، هامش ٢

(٤) فى س (١١١ ب) : « أهل الرها » .

(٥) فى س (١١١ ب) : « لجوسلين الفرنجى » .

(٦) فى س : « وواعدوه يوما » .

يوما يصل إليهم فيه ، وسار فى عساكره إلى الرها ، فملك البلد ، وعصت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين ، فقاتلهم ، وبلغ ذلك نور الدين — رحمه الله — وهو بحلب ، فسار مجدا إليها بعسكره ، فلما قاربها خرج جوسلين منها هاربا إلى بلده ، ودخل نور الدين المدينة فنهبها وسبى أهلها[1] ، فخلت منهم ولم يبق بها إلا القليل ، ولما بلغ خبر الفرنج الى سيف الدين بالموصل[2] جهز العساكر الى الرها فوصلت وقد ملكها نور الدين ، فبقيت فى يده ، ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين.

وفى هذه السنة رحل الأمير سيف الدين إلى الشام ، وكان أخوه نور الدين قد خافه واستشعر منه ، وأخوه سيف الدين يكاتبه ويستميله ، فلما وصل سيف الدين إلى الشام استقرت القاعدة بينهما على أن يجتمعا خارج العسكر السيفى ، ومع كل واحد منهما خمسمائة فارس ، فلما كان يوم الميعاد سار نور الدين من حلب فى خمسمائة فارس ، وسار سيف الدين من معسكره فى خمسة فوارس ، فلم يعرف نور الدين سيف الدين حتى قرب منه ، فحين عرفه ترجل له ، وقبل الأرض بين يديه ، وأمر أصحابه بالعود عنه ، فعادوا ، وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا ، فقال له سيف الدين : « لِمَ امتنعت من المجئ إلىّ ، كنت تخافنى على نفسك ؟ [٦٦] والله ما خطر ببالى ما تكره[3] ، فلمن أريد البلاد ، ومع من أعيش ، وبمن اعتضد ، إذا فعلت السوء مع أخى وأحب الناس إلىّ ؟ » فاطمأن نور الدين ،

(١) كذا فى الأصل ، وفى س (١١١ ب) : « نهبها وقتل رجالها من الأرمن ، وسبا نساها ».

(٢) إلى هنا تنتهى (ص ١١١ ب) من نسخة س ، وبانتهائها تضطرب الصفحات مرة أخرى فى تلك النسخة ، وتنقطع الصلة بين (ص ١١١ ب) و (ص ١١٢ ا) وبالتالى بين النص هنا وبينه هناك فى تلك النسخة .

(٣) فى الأصل : « تذكره » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٨) .

وسكن روعه ، وعاد إلى حلب ، وتجمل[١] وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين ، فأمره سيف الدين بالعود وترك عسكره عنده ، وقال له :

« لا غرض لى فى مقامك عندى ، وإنما غرضى أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا ، فمن يريد السوء بنا يكفُّ عنه » ، فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه ، وعاد كل منهما إلى بلده .

وفى سنة اثنين وأربعين وخمسمائة دخل نور الدين بلد الفرنج ، ففتح مدينة أرْتاح[٢] وعدة حصون .

وفى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة نازل ملكُ الألمان[٣] بجموعه ، ومن انضم إليه من فرنج الساحل مدينةَ دمشق — وصاحبها مجير الدين آبَق بن محمد ، والقيِّم بأمر دولته معين الدين أُنُر مملوك جده طُغْتكين — فزحفوا إلى البلد سادس ربيع الأول ، وقاتلوا أهله قتالا شديداً ؛ ثم نزل الفرنج على الميدان الأخضر[٤] ، وضاق الأمر على أهل البلد ، وأيقنوا أن العدو يملكه ، وراسل الأميرُ معينُ الدين سيفَ الدين غازى بن زنكى صاحب الموصل يدعوه إلى نصرة المسلمين ، فسار إلى الشام ، واستصحب أخاه نور الدين محمود بن زنكى — صاحب حلب — فنزلوا بمدينة حمص ، وأرسل سيف الدين إلى معين الدين يقول له : « قد حضرت ومعى

---

(١) فى الروضتين : « فتجهز » .

(٢) هكذا ضبطها (ياقوت ، معجم البلدان) ، وقال إنها حصن منيع من أعمال حلب ، وفى (Dussand, *T. H.* 223-228) أنها موقع يبعد ١٥ كيلو مترا إلى الشرق من بحيرة أنطاكية أنظر أيضا : (Cl.Cahen, *La Syrie du Nord.* *PP 141-148*) .

(٣) هو « كونراد الثالث Conrad III » امبراطور ألمانيا وقد اشترك معه فى قيادة الحملة الصليبية المعروفة بالثانية لويس السابع ملك فرنسا . أنظر (Stevenson, *Crusaders in the East.*) و (حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون) .

(٤) كان هذا الميدان يقع غربى المدينة . أنظر : (*Ibn El Qalanisi, Trad. Fran.* per Roger Le Tourneau, P. 125).

كل من يحمل السلاح فى بلادى ، فأريد أن تكون نوابى بمدينة دمشق لأحضر وألق الفرنج ، فإن انهزمت دخلت أنا وعسكرى البلد ، واحتمينا به ، وإن ظفرنا فالبلد لكم لا ينازعكم فيه أحد . » وأرسل إلى الفرنج يتهددهم إن لم يرحلوا عن البلد وإلا أتيتهم . فكفَّ الفرنج عن القتال ، وقوى أهل البلد على حفظه ، واستراحوا من الحروب .

وأرسل معين الدين إلى الفرنج الغربا يقول لهم : « إن ملكَ الشرق قد حضر ، فإن رحلتم وإلا سلمت البلد إليه ، وحينئذ تندمون » . [٦٧] وأرسل إلى أهل الساحل ويقول لهم : « بأى عقل تساعدون هؤلاء علينا وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا مدينة دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية ، وأما أنا إن رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته إلى سيف لدين ، وأنتم تعلمون أنه إن ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام بالشام » . فأجابوا بالتخلى عن ملك الألمان ، وبذل لهم حصن بانياس ، فاجتمعت الفرنج الساحلية بملك الألمان وخوَّفوه من استيلاء سيف الدين على دمشق ، وأنه إن ملكها لا يكون لهم به طاقة ، ولم يزالوا به حتى رحل عن دمشق ، وتسلموا بانياس ، ورجع ملك الألمان إلى بلاده ، وقد ذكرناه .

وفى هذه النوبة قتل شاهنشاه بن نجم الدين (١) أيوب جد جد مولانا السلطان الملك المنصور (٢) — صاحب حماة ، خلَّد الله سلطانه (٣) — على باب دمشق ، قتلته الفرنج المحاصرون للبلد ، ودُفن بالشرف ظاهر مدينة دمشق ، وخلَّف ولدين ،

---

(١) فى الأصل : « جمال الدين » وهو خطأ واضح .

(٢) هو الملك المنصور الثانى حكم حماة من سنة ٦٤٢ إلى سنة ٦٨٣ . وقد خدمه مؤلف هذا الكتاب وعين قاضيا لقضاة حماة فى عهده ، وله ألف هذا الكتاب .

(٣) لهذا الدعاء أهمية خاصة فهو يعين على تحديد تاريخ تأليف هذا الكتاب ، ومنه نستبين أن هذا الجزء من الكتاب كتب بعد سنة ٦٤٢ وهى السنة التى ولى فيها المنصور الثانى حكم حماة . أنظر ما فات ص ٢ ، هامش ٢ و ص ٩٩ هامش ٤

هما : الملك المظفر تقى الدين عمر ، والملك المنصور عز الدين فروخ شاه ، وهو أبو الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه — صاحب بعلبك — .

ذكر استيلاء نور الدين محمود بن زنكى — رحمه الله — على حصن العزيمة

لما خرج ملك الألمان إلى دمشق كان معه ولد الأدفونش [1] وكان جده هو الذى فتح طرابلس الشام ، فأخذ ولد الأدفونش حصن العزيمة ، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس ، فأرسل القومص إلى نور الدين محمود ومعين الدين يدعوهما إلى قصد العزيمة وأخذها ، فقصداها من دمشق ، واستمدا سيف الدين غازى ، فأمدهما بعسكر كبير مع الأمير عز الدين الدبيسى فقطع جزيرة ابن عمر ، فنازلوا حصن العزيمة وبه ابن الأدفونش وضايقوه ، وتقدم إليه النقابون فنقبوه ، وتسلموا الحصن ، وأخذوا ابن الأدفونش وكل من بالحصن ، وأخربوه وعادوا عنه .

كسرة الفرنج بيَغْرَى [2]

وفى هذه السنة — أعنى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة — تجمع الفرنج بمكان يقال له يَغْرَى ليقصدوا أعمال حلب ، فقصدهم نور الدين محمود بن زنكى ، فالتقوا واقتتلوا قتالا شديداً ، فكُسر الفرنج كسرة قبيحة ، وقُتل أكثرهم ، وأُسر جماعة [٦٨] من مقدميهم ، ولم ينج منهم إلا القليل ، وأرسل من الغنيمة والأسرى

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠) : « ولد الفنش صاحب طليطلة وهو من أولاد أكابر ملوك الفرنج وكان جده هو الذى أخذ طرابلس الشام من المسلمين » ، والاسم عند ابن الأثير أقرب إلى الصحة فهو تعريب « Alfonso » .

(٢) ذكر : (Dussaud: *T. H. P. 436.*) أنها تقع إلى الشرق من دربساك .

إلى أخيه سيف الدين غازى وإلى الخليفة الإمام المقتفى لأمر الله ، وللسلطان مسعود ابن محمد بن ملكشاه .

وفى هذه الوقعة قال أبو عبد الله محمد بن صغير بن القيسرانى قصيدة يمدح بها نور الدين محمود — رحمه الله — .

أولها : يا ليْتَ أنَّ الصدَّ مَصْدُودُ ! أو لا ، فليْتَ النومَ مردودُ
إلى متى تُعْرِض عن مغرمٍ فى خدِّه للدمعِ أُخْدودُ
ومنها : وكيف لا يُثنى[(١)] على عيشنا الـ محمودِ ، والسلطانُ محمودُ
وصارمُ الإسلامِ لا ينثنى إلا وشِلْو الكفرِ مقدودُ
مناقب لم تَكُ[(٢)] موجودةً إلا ونورُ الدين موجودُ
وكم له من وقعةٍ يومُها — عند ملوكِ الشركِ — مشهودُ
والقومُ : إما مُرْهَقٌ صَرْعَةً ، أو موثقٌ بالقِدِّ مشدودُ
حتى إذا عادوا إلى مثلها قالتْ لهم هيبتُه : عودوا

وفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة قصد سيف الدين غازى بن زنكى — صاحب الموصل — دارا ، وكانت لوالده عماد الدين ، فلما قُتل أخذها الأمير حسام الدين تمرتاش بن إيل غازى بن أرتق — صاحب ماردين — ، ولما دخلت هذه السنة قصدها سيف الدين فملكها ، واستولى على كثير من بلد ماردين بسببها ، ثم قصد ماردين وحصرها ، ثم راسله صاحب ماردين وزوّجه ابنته ، فرحل سيف الدين عن ماردين ، وعاد إلى الموصل ، وجُهِّزت الخاتون ابنة حسام الدين ، وزُفَّت إليه ، فوصلت إلى الموصل وهو مريض ، فتوفى ولم يدخل بها .

---

(١) فى الأصل : « تنثنى » والتصحيح عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥١) ، وفى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٥) : « تثنى » ، وانظر أبياتاً أخرى من القصيدة فى المرجعين السابقين .

(٢) فى الأصل : « لم تكن » .

ذكر وفاة سيف الدين غازى بن زنكى
ابن آق سنقر — رحمه الله —

لما عاد سيف الدين إلى الموصل عرض له مرض حاد ، فاستدعى له من بغداد أوحد الزمان أبو البركات البغدادى[١] — صاحب المعتبر فى الحكمة — فحضر عنده ، ورأى شدة مرضه ، فعالجه فلم ينجع له فيه دواء . فتوفى آخر جمادى الآخرة من هذه السنة [٦٩] — أعنى سنة أربع وأربعين وخمسمائة — فكانت مدة ولايته ثلاث سنين وشهراً وعشرين يوما ، وكان جميل الصورة ، وكان عمره نحوا من أربع وأربعين سنة ، لأن مولده كان سنة خمسمائة ، ودفن بالمدرسة التى بناها بالموصل ، وخلف ولدا ذكراً رباه عمه نور الدين محمود ، وزوجه ابنة أخيه قطب الدين مودود بن زنكى ، فتوفى ولد سيف الدين شابا ، وانقرض عقبه .

ذكر سيرة سيف الدين — رحمه الله —

كان جوادا كريماً شجاعا ، وهو الذى بنى المدرسة الأتابكية بالموصل ، ووقفها على الفريقين الحنفية والشافعية ، بنى رباطا للصوفية ، وكان مقصداً للشعراء ، فقصده شهاب الدين الحيصَ بَيْصَ[٢] ، وامتدحه بقصيدة أولها :

---

(١) هو أوحد الزمان أبو البركات هبة الله بن على بن ملكا البلدى لأن مولده بلد ، البغدادى لاقامته فى بغداد ، كان يهودياً وأسلم . أنظر ترجمته فى : (ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ١ ، ص ٢٧٨ — ٢٨٠) .

(٢) هو شهاب الدين أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن صيفى التميمى المعروف بحيص بيص ، شاعر مشهور ، توفى فى بغداد ليلة الأربعاء سادس شعبان سنة ٥٧٤ هـ . ويقال إنه سمى حيص بيص لأنه رأى الناس يوماً فى حركة مزعجة وأمر شديد ، فقال : ما الناس فى حيص بيص ، فبقى عليه هذا اللقب ، ومعنى هذين اللفظين الشدة والاختلاط . أنظر ترجمته فى : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٢ ، ص ١٠٦ — ١٠٨) .

إلامَ يراكَ المجدُ (١) فى زِىِّ شاعرٍ   وقد نَحلتْ شوقاً فروعُ المنابرِ

فوصله بألف دينار سوى الخلع .

وكان سيف الدين يحمل على رأسه السنجق (٢) ، ولم يكن يفعل ذلك أبوه ولا أحد من أصحاب الأطراف ، فلما فعل ذلك اقتدى به غيره ، وألزم الجند أن لا يركب أحد إلا بالسيف فى وسطه ، والدبوس (٣) تحت ركبه .

ذكر استيلاء قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى على الموصل

لما توفى سيف الدين غازى كان قطب الدين مودود مقيما بالموصل ، فاتفق الوزير جمال الدين محمد بن على الأصفهانى والأمير زين الدين على كُوجَك صاحب إربل والمقدَّم على الجيوش على تمليك قطب الدين ، فاستحلفوه وحلفوا له ، وأركبوه إلى دارالسلطنة ، وزين الدين ماشٍ فى ركابه ، وتسلَّم جميع ما كان بيد سيف الدين من البلاد ، وتزوج الخاتون (٤) ابنة حسام [الدين] تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق صاحب ماردين ،

(١) فى الأصل : « الدهر » ، والتصحيح عن : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٥) .

(٢) السنجق راية صغيرة صفراء ، وقد أصبح هذا التقليد الذى استنه سيف الدين غازى ، وهو رفع السنجق على رأس الملك ، من رسوم الملك فى مصر فى عهدى الأيوبيين والمماليك . أنظر : (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٨) .

(٣) الدبوس — والجمع دبابيس — آلة حربية ، عرفها صاحب (محيط المحيط) بأنها « هراوة مدملكة الرأس ، وكالابرة من النحاس فى طرفها كتلة صغيرة » ، وقد وصفها (Dozy: *Supp. Dict. Arab.*) وصفا أقرب إلى الدقة هو : "massue, casse-tête, longue d'environ deux pieds et terminée par une tête revêtue de fer, qui a environ trois pouces de diamétre).

(٤) هى نفس الخاتون التى كان قد خطبها سيف الدين غازى ومات قبل أن يدخل بها فتزوجها أخوه قطب الدين مودود .

فولد له منها سيف الدين غازى وعز الدين مسعود وغيرهما ، وكانت هذه المرأة يحل لها أن تظهر بخمسة عشر ملكا من أبائها وأجدادها وأخوتها وبنى أخوتها وأزواجها وأولادها وأولاد أولادها ، وأشبهت من النساء فى ذلك فى الزمن القديم عاتكه بنت يزيد بن معاوية ، فإنه كان يحل لها أن تظهر لثلاثة عشر خليفة ما بين أب وجد وأخ وابن أخ وولد أخ وزوج ، وفى زمننا [٧٠] هذا ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب لم تمت حتى رأت من أولاد أخيها جماعة كبيرة كل منهم ملك على طرف من الأطراف .

ذكر استيلاء نور الدين محمود بن زنكى على سنجار

لما ملك قطب الدين الموصل كان أخوه نور الدين بحلب ، وهو أكبر منه ، فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه إليهم ، منهم المقدَّم والد شمس الدين بن المقدَّم ، وكان دزداراً بِسنْجار (١) فسار نور الدين جريدة فى سبعين فارسا من أكابر دولته ، منهم الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذى ، ومجد الدين أبو بكر بن الداية ، فوصل إلى ماكِسِين (٢) فى ستة أنفس فى يوم شديد المطر ، ولم يعرفه الذين بالباب ، فأرسلوا إلى الشحنة ، وأخبروه أنه وصل نفر من الأجناد كأنهم تركمان ، فلم يتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين ، فحين رآه الشحنة قبَّل يده وخرج عن الدار ، فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه ، فسار مجدا إلى سنجار ، فوصلها وليس معه إلا نفر يسير ، ونزل ظاهر البلد وألقى نفسه على محفورة صغيرة من شدة تعبه ، وأرسل إلى المقدَّم دِزْدار القلعة يعرفه بوصوله ، وكان المقدَّم قد استدعى من الموصل ، لأن

---

(١) ذكر ياقوت أنها مدينة مشهورة من نواحى الجزيرة بينها وبين كل من الموصل ونصيبين ثلاثة أيام ، وهى فى لحف جبل عال وفى وسطها نهر جار .

(٢) بلد بالخابور قريب من رحبة مالك بن طوق من ديار ربيعة . (ياقوت : معجم البلدان) .

مكاتبته لنور الدين كانت قد بلغتهم ، فأرسلوا إليه ، فتوقف عدة أيام فلم يصل إليه نور الدين ، فسار إلى الموصل وترك ابنه شمس الدين محمد بسنجار ، وقال له : « أنا أتأخر فى الطريق ، فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمنى » ، فلما فارق سنجار وصل نور الدين ، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصداً إلى أبيه بالخبر ، وأنهى الحال إلى نور الدين ، فخاف فوات الأمر ووصل القاصد الذى سيّره شمس الدين ابن المقدَّم إلى أبيه ، فأدركه بتَلّ يَعفَر (١) ، فعاد إلى سنْجار وسلمها إلى نور الدين ، وكاتب الأمير فخر الدين قر أرسلان بن داوود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كَيْفَا (٢) يستنجده ، وبذل له قلعة الهيثم ، فسار إليه ، فلما سمع قطب الدين الخبر جمع العساكر ، وسار نحو سِنْجار ، ونزل بتل يَعفَر .

ذكر الصلح بين قطب الدين وأخيه نور الدين

ورد سنجار إلى قطب الدين

[٧١] ولما نزل قطب الدين بتل يَعفَر راسل زينُ الدين على كُوجك وجمالُ الدين — وزير قطب الدين — نورَ الدين أخاه ، وأنكروا عليه إقدامه على أخذ ما ليس له ، وتهددوه بقصده ، وأخذ البلاد من يده قهراً إن لم يرجع اختيارا ، فأجاب : « إننى أنا الأكبر وأنا أحق أن أدبر أخى منكم ، وما جئت إلا لما تتابعت إلىّ كتب الأمراء يذكرون كراهتهم لولايتكم عليه ، فخفتُ أن يحملهم الغيظ والأنفة على أن يخرجوا البلاد من أيدينا ، وأما تهديدكم إياى بالقتال

---

(١) هكذا تسميه الخاصة ، وتسميه العامة « تل أعفر » ، وقيل إن أصله « التل الأعفر » للونه فغير بكثرة الاستعمال وطلب الخفة . وهو قلعة وربض بين سنجار والموصل فى وسط واد فيه نهر جار . (ياقوت : معجم البلدان) .

(٢) قال ياقوت إنها بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر ، وهى كانت ذات جانبين وعلى دجلتها قنطرة .

فأنا ما أقاتلكم إلا بجندكم » ، وكان قد هرب إليه جماعة من الأجناد فخافوا من مخامرة الأمراء عليهم إذا لقوه ، فأشار الوزير جمال الدين بالصلح ، وقال : « نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبع لنور الدين ، ونور الدين يظهر للفرنج أنه يحكمنا ، ويتهددهم بنا ، فإن كاشفناه وحاربناه ، فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان ، وإن ظفرنا به طمع فيه الفرنج ، ولنا بالشام حمص ، وله عندنا سِنْجار ، فهذه أنفع لنا من تلك ، وتلك أنفع له من هذه ، والرأى تسليم حمص إليه ، وأخذ سِنْجار منه » . فاتفق رأى الجماعة على ذلك ، وسار جمال الدين إلى نور الدين ، فأبرم معه الأمر ، وتسلم حمص ، وسلَّم سِنْجار إلى أخيه ، وعاد نور الدين إلى الشام ، فأخذ ما كان له بسِنْجار من المال .

ولما تسلَّم قطب الدين سِنْجار أقطعها لزين الدين على كُوجَك ، واتفقت كلمتهم ، واتحدت آراؤهم ، وطلب نورُ الدين جمالَ الدين فامتنع ، واعتذر باحتياج قطب الدين إليه ، واستغنى نور الدين عنه برأيه ومعرفته ، فأطلق له نور الدين عشرة آلاف دينار كل سنة تحمل إليه ليصرفها فى مصالحه ، فكان نائبه بالشام يقبضها كل سنة ، ويشترى له بها أسرى من الفرنج ويطلقهم .

ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية وكسرة الفرنج

وفى هذه السنة — سنة أربع وأربعين وخمسمائة — قصد نور الدين بن زنكى — رحمه الله — حصن حارم — وهو للفرنج — فخرَّب رَبَضَه ، ونهب سواده ، ثم رحل إلى إنِّب (١) فحاصره ، فحشد البرنس صاحب أنطاكية (٢) ، فلقيه نور الدين .

---

(١) فى الأصل : « ات » وقد صححت وضبطت بعد مراجعة ابن القلانسى ، وذكر ياقوت إنها حصن من أعمال عزاز من نواحى حلب .

(٢) هو « ريمون دى بواتييه » .

[٧٢] واقتتلوا قتالا شديداً ، وانهزم الفرنج أقبح هزيمة ، وقتل منهم خلق كثير ، وأسر مثلهم . وقتل البرنس صاحب أنطاكية ، وكان عاتيا من عتاة الفرنج ، وعظيما من عظمائهم ، فملك بعده ولده بيمند [١] — وهو طفل — فتزوجت أمه [٢] برجل من الفرنج ليدبر ولدها الطفل إلى أن يكبر ؛ ثم قصد نور الدين الفرنج مرة [أخرى] ، فجمعوا ولقوه فقتل منهم وأسر ، فكان من جملة الأسرى زوج أم بيمند ، فمدح الشعراء نور الدين ، فمن مدحه : أبو عبد الله محمد بن صغير بن القيسرانى بقصيدة أولها :

هذى العزائمُ لا ما تدَّعى القُضُبُ ... وذى المكارمُ لا ما قالتْ الكتبُ
وهذه الهممُ اللاتى إذا خُطِبَتْ ... تعثَّرتْ خلفها الأشعارُ والخُطَبُ
صافحْتَ يابن عِمادِ الدين ذِرْوَتَها ... براحةٍ للساعى دونها التعبُ
ما زال جِدّكَ يبنى كل شاهقةٍ ... حتى بنى قبةً أوتادُها الشُهُبُ
أغرت [٣] سيوفَك فى الأفرنج راجفةً ... فؤادُ رومية الكبرى لها يَجِبُ
ضربتَ كبشَهم منها بقاصمة ... أودى لها الصُلبُ وانحطت لها الصُلُبُ
طَهَّرْتَ أرضَ الأعادى من دمائهم ... طهارةً كلُ سيف عندها [٤] جُنُبُ
حتى استطار [٥] شرارَ الزَّنْدِ قادحُه ... فالحربُ تُضرم والآجال تُحتطبُ
من كان يغزو بلادَ الشِركِ مكتسباً ... من الملوك ، فنورُ الدين محتسبُ

---

(١) فى الأصل « سمند » بدون نقط ، وما هنا عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٨) وهو بوهمند الثالث .

(٢) هى « كونستانس » وقد تزوجت فتى مغامرا اسمه « رينو دى شاتيون » . أنظر : (حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ٨٤) .

(٣) فى الأصل : « أغرب سيوفك فى الافرنج راجحة » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٩) .

(٤) فى الأصل : « عنهما » ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٥) الأصل : « استطارت » والتصحيح عن المرجع السابق .

ذو غُرّةٍ ما تَمتْ والليلُ معتكرٌ إلا تمزق عن شمس الضحى الحجبُ
أفعاله كاسمه فى كل حادثةٍ ووجهُهُ نائبٌ عن وصفِهِ اللقبُ

ومدحه آخر (١) بقصيدة أولها :

أقوى الضلالُ وأقفرتْ عرصاتُه وعلا الهدى وتبلجتْ قَسَماتُه (٢)
وانتاش دينَ محمدٍ محمودُه من بعد ما غلبت (٣) دما عبراته
رَدّتْ على الإسلامِ عصرَ شبابه وَثَبَاتُه من دونه ، وثباتُه
[٧٣] أرسى قواعدَهُ ومَدَّ عمادَه صُعُدًا وشيَّد سورَه سوراتُه
وأعاد وجهَ الحق أبيضَ ناصعاً أَصلَاتُه ، وصِلَاتُه ، وصَلَاتُه

وفى هذه السنة توفى معين الدين أنر القيِّم بتدبير دولة مجير الدين آبَق بن محمد — صاحب دمشق — .

ذكر فتح أفامية

وفى سنة خمس وأربعين وخمسمائة سار نور الدين محمود بن زنكى — رحمه الله — إلى حصن أفامية — وهو للفرنج — فقاتل من به ، وضيَّق عليهم ، فاجتمع الفرنج وساروا نحوه ليرحلوه عنه ، فلم يصلوا إلا وقد ملكه وملأه ذخائر وسلاحا ورجالا وجميع ما يحتاج إليه ، فلما بلغه سير الفرنج رحل عنه ، وقد فرغ من أمره ، وسار للقائهم ، فحين رأوا قوة عزمه ، وأن الحصن قد مُلك ، عدلوا عن طريقه ، ودخلوا بلادهم .

---

(١) هو الشاعر أحمد بن منير . أنظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٠) .
(٢) الأصل : « نسماته » والتصحيح عن المرجع السابق .
(٣) كذا فى الأصل ، ولعلها « حملت » .

ذكر انهزام نور الدين من الفرنج

فى سنة ست وأربعين وخمسمائة جمع نور الدين — رحمه الله — عساكره، وسار إلى بلاد جوسلين بن جوسلين صاحب تل باشر وعين تاب وعزاز، وكان جوسلين أشد الفرنج شجاعة وأقواهم بأسا وأصحهم رأيا وأعظمهم مكيدة، فجمع جمعا كثيراً من الفرنج وسار نحو نور الدين، فالتقوا، فانهزم المسلمون وقُتل منهم وأُسر خلق كثير، وكان من جملة الأسرى سلاح دار(١) نور الدين، فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين، وسيَّره إلى الملك مسعود (٢) بن قِلِج أرسلان بن سليمن ابن قُطُلمِش السلجوقى — صاحب بلاد الروم — وقال له: « هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه »، وبلغ ذلك نور الدين فعظم عليه.

ذكر وقوع جوسلين فى أسر نور الدين — رحمه الله —

ثم شرع نور الدين فى إعمال الحيلة على جوسلين، فأرغب جماعة ممن معه من التركمان، ووعدهم الوعود الجميلة إن أتوه بجوسلين أسيراً أو عقيراً (٣)، فأدلوا عليه العيون، فاتفق أنه خرج متصيداً فظفر به طائفة منهم فوعدهم بمال جزيل إن أطلقوه، فأجابوه إلى الاطلاق إن حضر المال، فأرسل فى إحضاره، فمضى بعضهم [٧٤] إلى الأمير مجد الدين بن الداية — النائب بحلب — وأعلمه الحال، فسيَّر عسكرا، فكبسوا أولئك التركمان ومعهم جوسلين، فأخذوه أسيراً وأحضروه إلى نور الدين.

---

(١) سلاح دار أى ممسك أو صاحب سلاح السلطان، وله الاشراف على السلاح خاناه السلطانية، ويختار عادة من بين الأمراء المقدمين. (صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨).

(٢) حكم بين سنتى ٥١٠ و ٥٥١. أنظر: (Zambaur *Op. Cit. P. 143*).

(٣) « عقير » أى جريح. (اللسان).

وذكر الأمير مؤيد الدولة بن منقذ أن أسر جوسلين إنما كان فى سنة خمس وأربعين وخمسمائة . وذكر أن صورة أسره أنه خرج من مدينة تل باشر ، وسار فى الليل فأدركه النوم ، فنزل ومعه نفر يسير من أصحابه ، وقال لباقى أصحابه : « انطلقوا فأنا ألحقكم » ونزل فنام . فمرت به سرية من التركمان اتفاقا ، فانهزم أصحابه ، وأخذ جوسلين أسيراً ، وهم لا يعرفونه ، فاجتازوا به من الغد على رجل أرمنى ، فجاء وقبّل يده ، فقالوا له التركمان : « من هذا ؟ » فقال : « هذا جوسلين صاحب تل باشر » ، فلما عرفوه احتفظوا به ؛ وبلغ خبره إلى مجد الدين أبى بكر بن الداية — النائب بحلب — فأحضر التركمان وأعطاهم حتى أرضاهم ، وأخذ جوسلين وتركه عنده ؛ فلما وصل نور الدين إلى حلب كحل جوسلين وأهلكه .

ذكر فتح تل باشر

وكاتب النواب بتل باشر فى هذه السنة نور الدين — أعنى سنة ست وأربعين وخمسمائة — فى أن يتسلمها ، وكان نور الدين — رحمه الله — نازلا بدمشق ؛ فكتب إلى مجد الدين أبى بكر بن الداية ليمضى إليها ويتسلمها ، فمضى إليها وتسلمها يوم الخميس لخمس بقين من ربيع الأول من السنة ؛ ثم تسلم عين تاب وعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفر سود وكفر لاثا[1] فى مدة قريبة ، وسنذكر ذلك . وفى أسر جوسلين يقول محمد بن صغير بن القيسرانى من قصيدة :

كما أهدت الأقدارُ للقمص أسرَه وأسعدُ قِرنٍ من حواه لك الأسرُ

(١) هذه كلها هى القلاع والمدن والحصون المحيطة بتل باشر من أملاك جوسلين . وقد أضاف إليها (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥٨) : « دلوك ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك من أعماله » . وللتعريف بها جميعاً انظر : (ياقوت ، معجم البلدان) .

طغى وبغى[١] عدوا على غُلَوائه — فأورثه البغيُ العداوةَ والكفرُ
وأمست عزازُ كاسمها بك عزةً — تشق على النَّسرين لو أنها وَكْرُ
كأنى بهذا العزم لا فُلَّ حدُّه — فأقصاه بالأقصى وقد قُضى الأمرُ
[٧٥] فَسِرْ واملك[٢] الدنيا ضياءً وبهجةً — فبالأفق الداجى [إلى[٣]] اذا السنا فَقْرُ
وقد أصبح البيتُ المقدسُ طاهرا — وليس سوى جارى الدماء له طُهْرُ

ذكر كسرة الفرنج بدُلُوك[٤] وفتحها

وفى سنة سبع وأربعين وخمسمائة تجمعت الفرنج وحشدت فارسهم وراجلهم وساروا نحو نور الدين محمود بن زنكى — رحمه الله — وهو ببلاد جوساين ليمنعوه من تملكها وأخذها ، فوصلوا إليه وهو بدُلُوك ، ، فوقع المصاف بها ، واقتتلوا قتالا شديداً ، وصبر الفريقان عليه ، فانكسر الفرنج ، وقُتل منهم وأسر عدد كثير ، وملك دُلُوك واستولى عليها .

ذكر استيلاء محمود بن زنكى على مدينة دمشق وخروج الملك عن بيت طُغتكين

آخر من ملك دمشق من بيت الأمير ظهير الدين أتابك طُغْتِكين الأمير مجير الدين آبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك[٥] بورى بن طغتكين ، وكان القيم

---

(١) الأصل : « طغاوبغا » .
(٢) كذا فى الأصل ، ولعلها : « واملأ » .
(٣) أضيف مابين الحاصرتين بعد مراجعة : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٨) .
(٤) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها بليدة من نواحى حلب بالعواصم .
(٥) فى الأصل لفظ « بن » زائدة بين « تاج الملوك » و « بورى » .

بتدبير أمره معين الدين أُنَر مملوك جده ، وكان الحكم له ، وليس لمجير الدين إلا مجرد الاسم ، ثم توفى معين الدين سنة أربع وأربعين وخمسمائة .

ولما كانت هذه السنة — وهى سنة سبع وأربعين وخمسمائة — نازل الفرنج عسقلان — وهى للمصريين — فأخذوها وكان نور الدين لما نازل العدو عسقلان يتأسف إذ لا يمكنه الوصول إليهم ، ودفعهم عنها بسبب توسط دمشق بينه وبينهم ، فلما ملكها العدو وقووا وطمعوا فى ملك دمشق ، واستضعفوا مجير الدين ، وتابعوا الغارة على أعماله ، وأكثروا القتل بها والنهب والسبى ، وأفضى الأمر بالمسلمين إلى أن جعل الفرنج على دمشق قطيعة فى كل سنة ، وكان رسولهم يجئ ويجبيها من البلاد ؛ ثم اشتد البلاء حتى أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم الذين نهبوا من سائر بلاد النصرانية ، وخيّروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم ، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب وطنه سار إليه ، وقلّت حرمة مجير الدين عند أهل دمشق إلى أن حصروه فى القلعة مع إنسان من أكابر أهل البلد يقال له مؤيد الدين ابن الصوفى .

ولما اتصل ذلك بنور الدين لحقته الحميّة ، وخاف من [٧٦] استيلاء العدو على بلاد المسلمين ، وأهمّه أهل دمشق ، وعمل الحيلة فى ملكها حيث علم أنه إن قصدها ورام أخذها بالغلبة استمال صاحبُها الفرنج واستعان بهم على حربه ، فاستمال نور الدين حينئذ مجير الدين صاحبها ولاطفه وأظهر مودته وواصله بالهدايا والتحف حتى وثق به ، ثم كان فى بعض الأحيان يقول له : « إن فلاناً من الأمراء قد كاتبنى فى تسليم البلد إلىّ » ، فيُبعد مجيرُ الدين ذلك الأمير ويأخذ إقطاعه ، وفعل ذلك مراراً حتى أبعد مجير الدين عنه أكثر الأمراء ، وبقى عنده أمير يقال له عطاء بن حفاظ السلمى ، وكان شهماً شجاعاً ، ففوّض إليه مجير الدين أمر دولته ؛ وكان نور الدين

لا يتمكن معه مما يريد ، فاتفق أن مجير الدين قبض عليه وقتله ، ثم غرض نور الدين إلى دولته ، وكاتبَ الأحداثَ بدمشق ووعدهم الإحسان إليهم واستمالهم إليه ، ثم سار إلى دمشق وحصرها ، فأرسل مجيرُ الدين إلى الفرنج وبذل لهم الأموال ، ووعدهم تسليم بعلبك إليهم إن نجدوه ورحّلوا نور الدين عنه ؛ فجمعوا فارسهم وراجلهم ، ولم يجتمع جمهم إلا وقد تسلَّم نور الدين البلد .

وكان صورة تسلمه له أن الأحداث ثاروا وفتحوا الباب الشرقى فدخله نور الدين وملك البلد ، وحصر مجير الدين فى القلعة ، وراسله فى التسليم ، وبذل له إقطاعاً من جملته حمص ، فأجاب إلى ذلك ، وسلم قلعة دمشق إلى نور الدين ، وسار إلى حمص ثم إنه راسل أهل دمشق ليسلموا إليه البلد ، وعلم نور الدين بذلك ، فأخذ منه حمص ، وسلَّم إليه بالس ، فلم يرضها ، وسار عنها إلى بغداد وأقام بها ، وابتنى داراً بالقرب من مدرسة النظامية ، وتوفى بها ، وصفت الممالك بالشام لنور الدين .

وذكر ابن الأثير أن فتح تل باشر كان فى هذه السنة ، وأن نور الدين بعث إلى حسّان — صاحب منبج — فى أن يتسلمها فتسلمها .

وكنا حكينا عن ابن منقذ أن تسلمها كان فى سنة ست وأربعين ، وما ذكره ابن الأثير هو الأصح ، فإنه ذكر أنه لما ورد عليه رسل النواب بتل باشر يبذلون التسليم إليه كان نور الدين نازلا على دمشق ، ومنازلة الماء كانت فى هذه السنة .

ذكر منازلة نور الدين — رحمه الله — حارم

[٧٧] وفى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة حاصر نور الدين محمود بن زنكى — رحمه الله — قلعة حارم وهى لبيمند — صاحب أنطاكية — ؛ فجمع الفرنج وسار إلى لقائه ، فمنعوها منه ؛ وكان فى الحصن رجل من دهاة الأفرنج يرجعون إلى رأيه

وعقله ، فأرسل إليهم يقول لهم : « إننا نقدر على حفظ القلعة ، وليس بنا ضعف ، فلا تخاطروا باللقاء ، فإنه إن هزمكم أخذها وغيرها ، والرأى مطاولته ، فأرسلوا إليه وصالحوه على أن تعطوه نصف أعمال حارم» . واصطلحوا على ذلك ورحل عنهم .

وفى سنة اثنين وخمسين وخمسمائة كانت الزلزلة العظيمة التى هدمت حماة وشيزر ، وهلك تحت الردم بنو منقذ[١] الكنانيون — أصحاب شيزر — فبادر إليها نور الدين فملكها ، وأضافها إلى ممالكه . وكانت هذه الزلزلة عظيمة جداً ، أهلكت حماة وشيزر ، وذكر بعض من أدركها أنه قال بعض معلمى الكتاب : « كان عندى خلق من الصبيان هلكوا كلهم ، فما جاء أحد من أقاربهم سأل عن هلاك من هلك له » ، وهذا يدل على أنها أهلكت أقارب أولئك الصبيان كلهم ، وكانوا بنو منقذ اجتمعوا ذلك اليوم فى مكان ، وعندهم قرد يلعب بين أيديهم ، فوقع البناء عليهم فأهلكهم كلهم ، ولم يسلم إلا ذلك القرد ، فإنه هرب إلى بستان هناك من شباك الدار التى كانوا فيها ، فسلم وحده ، وارتدم الحصن الذى لهم حتى كأنه لم يكن .

ذكر استيلاء نور الدين على بعلبك

وفى هذه السنة — سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة — ملك نور الدين بعلبك ، وقد ذكرنا تملك عماد الدين بن زنكى لها ، ثم تسليم نائبه بها نجم الدين أيوب بن شاذى بعلبك إلى صاحب دمشق ، فاستناب بها رجلا يقال له ضحّاك البقاعى[٢] ، فلما ملك

---

(١) لاستيفاء أخبار شيزر وحصنها وأخبار الزلزال وأخبار بنى منقذ أنظر : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٨٢ — ٨٣) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٠٤ — ١٠٥) و (محمد حسين : أسامة بن منقذ) و (طاهر النسانى : أسامة بن منقذ) .

(٢) نسبة إلى بقاع بعلبك . (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٨٥) .

نور الدين دمشق امتنع ضحّاك ببعلبك ، ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربها من الفرنج ، وخاف إن حاصرها يسلمها ضحّاك إليهم ، فتلطف الحال معه إلى أن عوّضه عنها وتسلّمها ، وفى ذى الحجة من هذه السنة توفى عز الدين الدبيسى صاحب جزيرة ابن عمر ، وهو من أكبر الأمراء العمادية .

[٧٨] ذكر استيلاء نور الدين على مدينتى بصرى وصرخد

كانت صرخد بيد الأمير أمين الدولة كُمُشْتِكِين (١) من جهة الأمير ظهير الدين أتابك طُغْتكين ، وكان ببصرى التيتاش (٢) غلام أمين الدولة ، فتوفى أمين الدولة فى ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، فصار غلامه التيتاش إلى صرخد فملكها ، واجتمعت له بصرى وصرخد ، وأظهر المشاقة لصاحب دمشق ، وسار إلى الفرنج يستنجد بهم ، فسار الأمير معين الدين أنر مقدم الجيوش بدمشق إلى تلك الناحية ، فلما خرج الفرنج لنصرة التيتاش ، وهو معهم ، سار إليهم معين الدين فكسرهم ، وعادوا مخذولين إلى بلادهم ، ومعهم التيتاش ، ونزل الأمير معين الدين على صرخد وبصرى فى ذى القعدة سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وأقام محاصراً لها شهرين فملكها ، وانفصل التيتاش عن الفرنج ، وعاد إلى دمشق بغير أمان ، وكان فى أيام ولايته قد قبض على أخيه خطلخ فكحله ، وأخرجه من عنده ، فلما وصل التيتاش إلى دمشق حاكمه أخوه خطلخ وكحله بالشرع قصاصا ، ولما ملك الأمير معين الدين قلعتى بصرى وصَرْخَد ، سلم صَرْخَد إلى الأمير مجاهد الدين

(١) أمين الدولة كمشتكين نائب قلعتى بصرى وصرخد ، ولاه عليهما الأتابك طغتكين ؛ أنشأ المدرسة الأمينية فى دمشق للفقهاء الشافعية ، توفى سنة ٥٤١ هـ . أنظر : (النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، ص ١٧٨ وما بعدها) .

(٢) كذا فى الأصل ، وهو فى (ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق) : « التونتاش » و « اليونتاس » ؛ وفى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٠) : « التونتاش » .

بُزان بن يامين [١] الكردى ، وسلَّم بصرى إلى حاجبه فارس الدولة صرخيك [٢] ، ثم توفى مجاهد الدين بُزان بصَرْخَد ليلة ثانى صفر سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، فملكها بعده ولده سيف الدين محمد بن بُزان ، فأخذها منه نور الدين — رحمه الله — بعد امتناع ، وعوّضه عنها حصن أبى قبيس ، وقتل فارس الدولة صرخيك صاحب بصرى فى المحرم سنة خمسين وخمسمائة ، قتله ابن الحاجب جواه [٣] زوج ابنته ، فأخذها نور الدين — رحمه الله — وولّى فيها نوابه .

ذكر خروج أمير أميران [٤] بن زنكى على أخيه نور الدين

وفى سنة أربع وخمسين وخمسمائة مرض نور الدين — رحمه الله — بقلعة حلب ، واشتد مرضه ، وأرجف الناس بموته ، فجمع أخوه الأصغر أمير أميران بن زنكى الناس ، وحصر قلعة حلب ، وكان الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذى بحمص ، وهو مقطعها ، فسار إلى [٧٩] دمشق ليتغلب عليها ، وبها أخوه [٥] نجم الدين أيوب ابن شاذى ، فأنكر عليه نجم الدين ذلك وقال : « أهلكتنا ، والمصلحة أن تعود

---

(١) فى الأصل هنا وفيما يلى : « بزان بن مامين » ، والتصحيح هنا عن : (النعيمى : الدارس ، ج ١ ، ص ٤٥١ ، هامش ٢) حيث ذكر الناشر أن الاسم صحح بعد مراجعة الكتابة المنقوشة على عتبة باب المدرسة المجاهدية الجوانية التى أنشأها باسمه فى دمشق . وهو مجاهد الدين أبو الفوارس بزان بن على بن محمد من الأكراد الجلالية وهى طائفة منهم ، بلادهم فى العراق بنواحى دقوقا من أعمال بغداد ، وكان أحد مقدمى الجيش بالشام فى دولة نور الدين وناب بصرخد ، وتوفى سنة ٥٥٥ هـ . أنظر ترجمته فى : (المرجع السابق) و (ابن القلانسى : الذيل ، ص ٣٥٩) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٣) .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى : (النعيمى : المرجع السابق ، ص ٤٥٢) : « صرخك » ولم يستطع الناشر ضبط الاسم .

(٣) كذا فى الأصل ولم يستطع الناشر ضبط الاسم .

(٤) هو نصرة الدين محمد بن زنكى ، ويقال له أيضاً « أمير ميران » .

(٥) فى الأصل : « أخيه » .

إلى حلب مجداً ، فإن كان نور الدين حياً خدمته فى هذا الوقت ، وإن كان قد مات فأنا فى دمشق تفعل ما تريد مِنْ تملكها » ؛ فعاد إلى حلب مجدا وصعد القلعة ، وأجلس نور الدين فى شباك يراه الناس ، وكلهم لما رأوه حياً تفرقوا عن أخيه أمير أميران ، فسار إلى حران فملكها ، فلما عوفى نور الدين قصد حران فهرب أخوه أمير أميران وترك أولاده بالقلعة ، فملكها نور الدين وسلمها إلى الأمير زين الدين على كُوجك بن بكتكين — صاحب إربل ونائب أخيه قطب الدين مودود ابن زنكى بالموصل — .

ثم سار نور الدين إلى الرقة ، وبها أولاد أميرك الجاندار ، وهو من أعيان الأمراء العمادية ، وكان قد توفى وبقى أولاده ، فشفع فيهم جماعة من الأمراء ، فغضب ، وقال : « هلا شفعتم (١) فى أولاد أخى لما أُخذت منهم حرّان ، وكانت الشفاعة فيهم من أحب الأشياء إلىّ » ، ولم يشفعهم وأخذها منهم .

ذكر وفاة المقتفى (٢) لأمر الله وسيرته

قد ذكرنا خلع السلطان مسعود للراشد بالله ، وإقامة المقتفى لأمر الله للخلافة ، ولما تولى الخلافة أحسن السيرة ولم يتعرض لمحاربة أحد ، ولا لتجنيد أجناد ، حسب ما اشترطه السلطان مسعود عليه ، ثم راسله السلطان ليتصل بأخته فاطمة بنت محمد بن ملكشاه ، فأجابه إلى ذلك ، وعقد العقد بدار الخلافة على صداق مبلغه مائة ألف دينار ، ثم حُملت الجهة من همذان إلى بغداد ، وصحبتها قاضى القضاة ،

---

(١) فى الأصل : « تشفعوا » والتصحيح عن : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٩٥) .

(٢) انظر ترجمته فى : (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١٩٧) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٩٦) و (سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥) و (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٣٢) و (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٠ — ٢٩٣) .

واستوزر المقتفى يحيى بن هُبَيْرَة، فأقام حشمة الدولة؛ ثم توفى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بباب همذان يوم الأربعاء تاسع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وخمسمائة، فاضطربت الدولة السلجوقية بموته، وكثر الخلف بين ملوكها، فحينئذ تفرد الخليفة المقتفى لأمر الله بأمر العراق، وطرد عنه نواب السلجوقية، وبنى سور بغداد، وجنّد الجنود، وجمع العساكر، وقام وزيره [٨٠] عون الدين أبو المظفر يحيى بن هُبَيْرَة بأعباء مملكته حق القيام، فقصد بغداد السلطان محمد شاه ابن محمود بن ملكشاه طالبا من الخليفة أن يخطب له بالسلطنة، فامتنع الخليفة من ذلك فجمع السلطان الجموع من الأطراف، واستعان بالأمير قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكى — صاحب الموصل —، فسير إليه عسكرا مقدمهم زين الدين على كُوجَك بن بكتكين صاحب إربل، فنازل السلطان محمد شاه بغداد من يوم السبت ثانى عشر المحرم سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة إلى يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول من هذه السنة؛ ونصب على بغداد المنجنيقات والسلالم، فلم ينل غرضا؛ وظهر من الخليفة المقتفى لأمر الله من الشجاعة والثبات وبذل العطاء مالا مزيد عليه، ولما طال الحصار ولم ينل السلطان محمد شاه غرضا رحل عن بغداد خائبا، واتفقت وفاة السلطان سنجر بن ملكشاه — عم القوم — صاحب خراسان، وكانت الخطبة مستمرة له ببغداد، فقوى أمر الخليفة بالعراق، وقامت حشمة الدولة العباسية، ورجعت إلى أحسن ما كانت عليه؛ وكان المقتفى لأمر الله فاضلا حسن العقيدة، وله شعر حسن من جملته:

قالت أحبك، قلت: كاذبة، غُرِّى بذا مَنْ ليس ينتقدُ
لو قلتِ لِى: أشناك، قلتُ: أجل، الشيخُ ليس يحبه أحدُ

ورُوى أنه وقف يوما على ظاهر مشهد على بن أبى طالب — رضى الله عنه — بالنجف ، وكان قد عزم على الدخول إليه لزيارته ، فمنعه وزيره عون الدين بن هُبَيْرَة[١] من ذلك ، وصدفه عنه بأقوال قالها له ، فتمثل المقتفى بأبيات منجم بن نويرة ؛ وأشار إلى جهة القبر ، وهو واقف خارج سور المشهد :

لقد لامنى عند القبور على البكا رفيقى لِتَذْرافِ[٢] الدموعِ السوافكِ
وقال : أتبكى كُلَّ قبرٍ رأيتَه لِقَبْرٍ ثوى بين اللوى[٣] فالدكادكِ؟
أمِنْ أجل مَيْتٍ واحدٍ أنت نائحٌ على كل قبرٍ أو على كل هالكِ
فقلتُ له : إن الأسى يبعثُ الأسى ، ذرونى ، فهذا كله قبرُ مالكِ

ثم قال مشيراً بأصبعه إلى القبر : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، [٨١] اللهم أنت قلتَ وقولك الحق : « وأتوا البيوت من أبوابها » ، وهذا باب من أبوابك ، اللهم فاغفر لى به كل خطية ، واقض لى به كل حاجة ، وأكفنى ببركة كل منهم ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » ، وانصرف .

وكانت وفاة المقتفى لأمر الله يوم الأحد ثانى ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وكانت مدة خلافته أربعا وعشرين سنة ، وثلاثة أشهر ، واثنين[٤] وعشرين يوما ؛ وعمره ست وستون سنة .

---

(١) هو عون الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة ، توفى سنة ٥٦٠ ؛ انظر ترجمته فى : (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٧٦ — ٢٧٩)

(٢) فى الأصل : « بتذراف » .

(٣) فى الأصل : « بين الثرى والدكادك » .

(٤) فى (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٩٦) و (ابن الجوزى : المرجع السابق) : « وستة عشر يوماً » .

ذكر بيعة المستنجد بالله

وفى هذا اليوم بويع ببغداد للخليفة المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفى، بنص من أبيه عليه، وبايعه عمومته وبنو عمه، وأقرّ الوزير عون الدين أبا المظفر يحيى بن هبيرة على وزارته، وكان له معظما مكرما لأن والده أوصى إليه بذلك، وبلغ من تقريبه أن بعضهم حكى، قال: «دخلت الدار فوجدت الخليفة المستنجد بالله، وبين يديه وزيره يحيى بن هبيرة، والخليفة ينشده شعراً لنفسه يمدح به وزيره، وهو:

صفَتْ نُعْمتان، خَصّتاك وعَمّتا، فذِكْرُهما حتى القيامة يُذْكَرُ:(١)
وُجودُك والدنيا إليك فقيرةٌ، وَجُودُك والمعروفُ فى الناس يُنكَرُ
فلو رام يا يحيي مقامَك جعفرٌ ويحيى لكفا عنه يحيى وجعفرُ
ولم أرَ من ينوى لك الشرّ يا أبا الـ ـمُظَفَّرِ إلا كنتَ أنت المُظَفَّرُ

ذكر حصر نور الدين مدينة حارم

وفى سنة سبع وخمسين وخمسمائة جمع نور الدين محمود بن زنكى — رحمه الله — العساكر وسار بهم إلى حارم، فحصرها وجدّ فى قتالها، فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم ومقاتيلهم، ولما علم الفرنج منازلة نور الدين حارم جمعوا فارسهم وراجلهم واستعدوا وحشدوا، وساروا نحوه ليرحلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصاف، فلم يجيبوا إليه، وراسلوه، وتلطفوا معه الحال، فلما رأى عجزه عن أخذ الحصن وأنهم(٢) لا يجيبونه إلى المصاف عاد إلى بلاده.

---

(١) فى (ابن الجوزى، ج ١٠، ص ٢١٤): «ينشر».
(٢) فى الأصل: «وأنه».

ذكر هزيمة نور الدين من الفرنج

وفى سنة ثمانية وخمسين وخمسمائة [٨٢] جمع نور الدين — رحمه الله — العساكر، فنزل بالبقيعة، تحت حصن الأكراد، عازما على دخول بلادهم، ومنازلة اطرابلس؛ فبينا الناس فى بعض الأيام فى خيامهم وإذا بصلبان الفرنج وراء الجبل الذى عليه الحصن، فكبسوا المسلمين، ووضعوا فيهم السيف، وأكثروا فيهم القتل والأسر، وقصدوا خيمة نور الدين محمود، فخرج من ظهر خيمته عجلا بغير قباء، فركب فرساً(١) هناك للنوبة، ولسرعته ركبه وفى رجله الشَّبَحَة(٢)، فنزل إنسان من الأكراد فقطعها، فنجا نور الدين، وقُتل الكردى، فسأل نور الدين من بعد ذلك عن مخامِيه فأحسن إليهم جزاء الفعلة.

وكان أكثر القتل فى السوقة، وسار نور الدين إلى حمص، فنزل ظاهرها، وأحضر ما يحتاج إليه من الخيام فنصبها على بحيرة قدس، وكان الناس يظنون أنه لا يقف دون حلب، واجتمع إليه كل من نجا من المعركة، وأرسل إلى دمشق، وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام وجميع ما يحتاج إليه، وفرّق ذلك على من سلم، ومن قُتل أقرّ إقطاعه على أولاده، ومن لم يكن له أولاد فعلى بعض أهله، فعاد العسكر(٣) فى مدة قريبة كأنه لم يفقد منه أحد؛ فرحمه الله وقدّس روحه، وهكذا فلتكن الملوك.

---

(١) فى الأصل: «فرس».

(٢) كذا فى الأصل، وفى (اللسان): «الشبحة العود»، ولعل المقصود أن رجل الفرس كانت لا تزال مربوطة إلى الوتد.

(٣) بعد هذا اللفظ فى الأصل: «كأنه لم يفقد منه أحد» وقد حذفها الناشر لأنها تكرار من الناسخ يخل بالمعنى.

ولما انهزم العسكر الإسلامى عن الفرنج — لعنهم الله — ظنوا أنهم لا يقوم لهم قائمة بعدها ، وصمموا على قصد حمص وأخذها ، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها ، قالوا : « لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا » ؛ وأكثر نور الدين من الخرج ، فذكر أنه قسَّم فى يوم واحد مائتى ألف دينار سوى غيرها من الدواب والسلاح والخيام ؛ وتقدم إلى الديوان أن يحصروا الجند ، ويسألوا كل واحد عن الذى أخذ منهم ، فكلما ذكر شيئاً أعطوه عوضه ، فحضر بعض الجند وادعى شيئاً كثيراً علم بعض النواب كذبه فيما ادعاه لمعرفتهم بحاله ، فأرسلوا إلى نور الدين وأنهوا إليه القضية واستأذنوه فى تحليفه على ما ادعاه ، فخرج الجواب : « لا تكدروا عطاءنا ، فإنى أرجو الأجر والثواب [٨٣] على قليله وكثيره » .

ومن أحسن ما يؤثر عنه أنه قال له أصحابه : « إن لك فى بلادك إدرارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنتَ الآن بها لكان أمثل » ، فغضب وقال : « والله إنى لا أرجو النصر إلا بأولئك ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم فى فراشى بسهام لا تخطئ ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عنى إلا إذا رآنى ، بسهام قد تخطئ وتصيب ؟ ثم هؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال أصرفه إليهم ، كيف أعطيه غيرهم ؟ » فسكتوا .

وراسلت الفرنج نور الدين فى معنى المهادنة ، فامتنع ، فتفرقوا فى بلادهم ؛ وفى هذه الوقعة يقول مهذب الدين بن أسعد الموصلى (١) المدرس بحمص قصيدة منها :

---

(١) هو أبو الفرج عبيد الله بن أسعد بن على بن عيسى الموصلى الحمصى المعروف بابن الدهان . الفقيه الشافعى الشاعر وينعت بمهذب الدين ، توفى سنة ٥٥٩ هـ . ترجم له (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٦٥ — ٣٦٦) قال : « كان فصيحاً فقيهاً فاضلا أديباً شاعراً غلب عليه الشعر واشتهر به ، وله ديوان صغير وكله جيد ، ورحل البلاد ومدح بمصر الوزير الصالح طلائع بن رزيك وغيره » ، أنظر أيضاً : (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٨) .

ظُبَى(١) المواضى وأطرافُ القَنا الذُّبل ... ضوامنٌ لك ما حازوه من نفلِ
وكافلٌ لك كافٍ ما تحاوله ... عزٌّ وحزمٌ(٢) وبأسٌ غير منتقلٍ(٣)
وما يعيبك ما نالوه(٤) من سَلَبٍ ... بالختل ، قد تؤسر الأساد بالحِيَل
وإنما أخلدوا حيناً إلى خدعٍ ... إذ لم يكن لهم بالجيش من قِبَل
واستيقظوا ، وأراد الله غفلتكم ... لينفذ القدرُ المحتومُ فى الأزلِ
قناً لقاً ، وقسىٌّ غير موترة ... والخيل عارية(٥) ترعى مع الهَمَلِ
ما يصنع الليثُ — لا نابٌ ولا ظفر — ... بما حواليه : من عُفْرٍ ومن وُعُلِ
هلا وقد ركب الأسد المنصور وقد ... تَمَلُّو الظبى تحت غابات من الأَسَل

ذكر مسير أسد الدين شيركوه الأول إلى مصر

ولما كانت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وصل أمير الجيوش أبو(٦) شجاع شاور ابن مجير السعدى إلى دمشق ، وذلك لست مضين من ربيع الأول ، مستنصرا بنور الدين على ضرغام بن سوّار الملقب بالمنصور ، وكان تغلب على الوزارة وأخرج شاورا منها ، وقتل ولده طيًّا ، والخليفة يومئذ العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف ابن أبى الميمون عبد المجيد [٨٤] الحافظ لدين الله . والحكم للوزراء ، مَنْ قَهَرَ

(١) فى الأصل : « ظبا » .
(٢) فى (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٨) : « وعزم » .
(٣) فى المرجع السابق : « منتحل » .
(٤) فى نفس المرجع : « ما حازوه » .
(٥) فى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٨) : « عازبة » .
(٦) فى الأصل : « نصر بن شجاع ، وهو خطأ واضح ، واسمه بالكامل : « أبو شجاع شاور بن مجير ابن نزار بن عشائر بن شاس السعدى » انظر ترجمته فى : (ابن خلكان : الوفيات ج ٢ ، ص ١٥٦ — ١٦٠) .

بالسيف أخذها ، والخلفاء بمصر تحت قهرهم ؛ وكان الأمر كذلك من أيام المستنصر بالله معدّ بن الظاهر .

وشرط شاور لنور الدين أنه إن سيّر معه العسكر ليقوى بهم على خصمه ضرغام ، وينتزع الوزارة منه ، أن يكون لنور الدين حصة من البلاد ، ويكون شاور متصرفاً تحت أمره ونهيه واختياره ، فتردد نور الدين — رحمه الله — فى إجابته ، فتارة يقوى عزمه على ذلك طلباً للزيادة فى الملك وليقوى على عدو الدين ، فإن لم يكن له — رحمه الله — همة إلا جهادهم ؛ وتارة يثنى عزمه خوفاً على العساكر من خطر الطريق بسبب توسط الفرنج بينه وبين الديار المصرية .

ثم إنه قوى عزمه ، وصمم على إجابة شاور إلى ملتمسه ، واستخار الله سبحانه فى ذلك ، فتقدم إلى أسد الدين بالتجهيز للمضى مع شاور ، واستصحب معه العساكر ، وسار وفى صحبته شاور ، وسار معهما نور الدين إلى طرف بلاد الإسلام مما يلى بلد الافرنج فى بقية العسكر ، ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين .

وكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين ، ثم فارق أسد الدين نور الدين ، وسار بمن معه إلى الديار المصرية ، وكانت الطريق إذ ذاك شرقى الكَرَك والشَّوْبَك ، على عقبة أَيْلَة(١) إلى صَدْر(٢) وسُوَيْس ، ثم إلى البركة(٣) التى على باب القاهرة .

---

(١) مدينة على ساحل بحر القلزم وهى المعروفة اليوم باسم العقبة اختصاراً . انظر أخبارها فى : (ياقوت : معجم البلدان) و (المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٩٨ — ٣٠٠) .

(٢) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها قلعة خراب بين القاهرة وأيلة .

(٣) هى بركة الجب ، وقد عرفها (المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٦٥ — ٢٦٧) بقوله : « هذه البركة فى الجهة البحرية من القاهرة على نحو بريد منها ، عرفت أولا بجب عميرة ، ثم قيل لها أرض الجب ، وعرفت اليوم ببركة الحجاج من أجل نزول حجاج البر بها عند مسيرهم من القاهرة وعند عودهم .. إلخ » .

ولما قارب أسد الدين مصر خرج إلى لقائه ناصر الدين أخو الضرغام بعساكر مصر ، فلقيهم ، فانهزم ناصر الدين وعاد إلى القاهرة مهزوما ، ووصل أسد الدين فنزل على القاهرة فى أواخر جمادى الأول سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، فخرج الضرغام من القاهرة سلخ الشهر ، فأدرك وقُتل عند مشهد السيدة نفيسة بنت الحسن ابن زيد بن الحسن بن على — رضوان الله عليهم — ، وبقى مطروحا يومين ، ثم حُمل ودُفن بالقرافة ، وقتل أخوه أيضاً .

وخُلع على شاور خلع الوزارة فى مستهل رجب من السنة المذكورة ، وأُعيد إلى الوزارة وتمكّن منها ، وأقام أسد الدين [٨٥] بظاهر القاهرة ، وغدر به شاور ، ورجع عما كان وافق نور الدين عليه ، وأرسل إليه يطلب منه الرجوع إلى الشام ، فامتنع أسد الدين ، وطلب منه ما وقع الاستقرار عليه ، فلم يجبه شاور ، فلما رأى أسد الدين إصرار شاور على الغدر ، وأرسل نوابه إلى مدينة بلبيس ، فتسلموها ، وحكم على الأعمال الشرقية ، فأرسل شاور حينئذ إلى الفرنج يستمدهم ، ويخوفهم من نور الدين إنْ تَملَّكَ الديار المصرية ما يطيب لهم معه مقام ، وكان الفرنج لما سمعوا بتوجه عساكر نور الدين إلى الديار المصرية قد خافوا خوفا شديداً ، وأيقنوا بالهلاك ، وأن بلادهم تستأصل ، فلما وصلتهم رسل شاور يدعوهم إلى مساعدتهم سروا بذلك ، وبادروا إليه .

ذكر وصول الفرنج إلى الديار المصرية

ومحاصرتهم أسد الدين ببلبيس

فسارعوا إلى تلبية شاور ، وطمعوا فى الديار المصرية ، وتجهزوا — بعد وقوع الاتفاق بينهم وبين شاور — على مال كثير يحمله إليهم إن رحّلوا عسكر نور الدين عن البلاد .

ولما بلغ نور الدين — رحمه الله — توجُّهُ الفرنج إلى مصر سار بالعسكر إلى طرف بلادهم ليمتنعوا عن المسير، فلم يمنعهم ذلك، لعلمهم أن الخطر فى تملك أسد الدين مصر أكثر، فتركوا فى بلادهم من يحفظها من نور الدين، وتوجّه ملك القدس فى بقية عساكره إلى ديار مصر، واستعان بجمع كثير من الفرنج الذين كانوا قد وصلوا لزيارة البيت المقدس، فلما قارب الفرنج مصر قصد أسد الدين شيركوه مدينة بلبيس وأقام بها هو وعسكره، وتحصّن بها، واجتمعت العساكر المصرية والفرنج، ونازلوا بلبيس وحصروها، وحماها أسد الدين وعسكره ثلاثة شهور، مع أن سورها من طين، وليس لها خندق يحميها، وجدَّ فى قتالهم بكرة وعشية، فلم ينالوا منها غرضا.

ذكر وقوع الصلح بين أسد الدين والمصريين والفرنج

فبينما هم يجدُّون فى حصار بلبيس إذ أتاهم الجند بكثرة الفرنج على حارم، وتملك [٨٦] نور الدين لها، ومسيره بعد ذلك إلى بانياس لأخذها، فعظم ذلك عليهم، وخافوا على البلاد فراسلوا أسد الدين فى الصلح وتسليم ما أخذه من البلاد إلى المصريين، ففعل ذلك، لأن الأقوات قلّت عليه، وعلم عجزه عن مقاومة الفريقين؛ فصالحهم، وخرج من بلبيس فى ذى الحجة من هذه السنة، فذُكر من شجاعته وشهامته التى لم يسمع بمثلها أن أصحابه خرجوا بين يديه، وخرج خلفهم وبيده لَتٌّ (١) حديد، وهو يحمى ساقتهم، والمسلمون من المصريين، والفرنج، ينظرون إليه ويتعجبون منه، فأتاه إفرنجى من الغربا (٢)، وقال: «أما تخاف

---

(١) لفظ فارسى، وجمعه «لتوت»، ومعناه القدوم أو الفأس الكبيرة. انظر: (محيط المحيط) و (Dozy : *Supp. Dict. Arab*).

(٢) يقصد أنه افرنجى من الوافدين من أوربا، لا من الفرنج المستقرين فى الشام.

أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج ، وقد أحاطوا بك وبأصحابك ، فلا يبقى منكم بقية » . فقال أسد الدين : « ليتهم ، لو فعلوا حتى كنت ترى ما أفعل ، كنتُ والله أضع فيهم السيف ، فلا يُقتل منا رجل حتى يقتل رجالا ، وحينئذ يقصدهم نور الدين وقد ضعفوا وفنيت شجعانهم ، فيملك بلادهم ، ويهلك من بقى منهم ، والله لو أطاعونى هؤلاء لخرجت إليكم أول يوم ، ولكنهم امتنعوا » ، فصلّب الفرنجى على وجهه وقال : « كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم فى وصفك وخوفهم منك ، والآن فقد عذرناهم » .

ثم سار أسد الدين إلى الشام سالماً ، وكان الفرنج قد وضعوا له فى الطريق رصداً ليأخذوه ، فعلم بذلك ، فعاد عن تلك الطريق ، ففى ذلك يقول عمارة يمدحه من قصيدة :

أَخَذْتُم على الإفْرِنْج كلَّ ثَنِيَّةٍ ... وقُلْتُم لأَيْدى الخَيْلِ مُرِّى على مُرَّى
لَئِنْ نَصَبُوا فى البَرِّ جِسْرًا فإنَّكُم ... عَبَرْتُم بِبَحْرٍ مِنْ حَدِيدٍ على الجِسْرِ[1]

ووصل أسد الدين إلى نور الدين ، وفى عَوْد الوزارة إلى شاور بعد عزله عنها يقول عمارة بن على اليمنى ، يمدحه من قصيدة :

فَنُصِرتَ فى الأولى بضربٍ[2] زلزل الـ ... ـأقدامَ ، وهى شديدةُ الإقدامِ
ونُصِرتَ فى الأخرى بضربٍ صادق ... أضحى يطير به غُرابُ الهامِ
[٨٧] أدركتَ ثأرًا ، وارتجعتَ وزارةً ... نَزْعاً بسيفك من يدىْ ضِرْغامِ

وفى حصار بلبيس والانتصار على أسد الدين شيركوه ، يقول عمارة من قصيدة يمدح بها العاضد ووزيره شاور أولها :

إنْ السعادةَ قد أظل زمانُها ... وافترّ عن ثغر المنا ألوانُها

---

(١) ورد هذان البيتان فى : (عمارة : النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية ، ج ١ ، ص ٨٠) .

(٢) فى (المرجع السابق ، ص ٨٩) : « برعب » ، وهناك أبيات كثيرة أخرى هى بقية القصيدة .

وافاكَ أولُ عامها بمسرَّةٍ … لا الفِطْرُ أهداها ولا رمضانُها
مَجْدًا بنى عبد المجيد فإنكم … من دوحةٍ نبويةٍ أغصانُها
كم آيةٍ رُويت ، لكم أسرارها … آلَ الوصيِّ ، وللورى إعلانُها
وَهَبِ الخلافةَ شاركوكم فى اسمها … أو ليس فرّق بينكم فُرْقَانُها
فكأنما تأويلُكم أرواحُها … وكأنما تفسيرُكم أبدانُها
نطقتْ بآية نصركم من شيركوه(١) … سِيَرٌ يزيد على السماع عيانُها
أخبرتمونا عنه قبل مجيئه … أخبارَ صدق صحّ عنه بيانُها
وكأنّ علم الحادثات(٢) وديعةٌ … مخزونةٌ ، وصدورُكم خُزّانُها
تأتى الأمورُ وقد سطرتم ذكرها … فيكون بعد حديثكم حَدَثَانُها

ومنها(٣) فى مدح شاور :

ولقد دُفعت إلى ثلاث(٤) نوائب … كادت تشيبُ لهولها وِلْدَانُها
فعِصابةٌ غُزِّيَّةٌ غادرتَها … وأجلُّ ما ترجوه منك أمانُها
وعِصابة روميّةٌ عاشرتَها … فتأدّبتْ وتهذّبتْ أذهانُها
وعصابةٌ مصريّةٌ بك(٥) أصبحتْ … فوق البريّةِ راجحاً ميزانُها
خلّصتَ كلَّ قبيلةٍ من ضدّها … لما التوتْ وتعقدتْ عقدانُها(٦)
أشبهتَ نوحاً مدّةً وهدايةً … فى أمةٍ متزايدٍ طُغيانُها

---

(١) فى الأصل : « فى شيركو » والتصحيح عن : (ديوان عمارة ، ص ٣٦٨) .
(٢) فى الديوان : « الكائنات » .
(٣) بهذا اللفظ يتقابل النص مرة أخرى مع نسخة س فى أولى (ص ١٢٧) .
(٤) فى س (ص ١٢٧) : « نكب » بدون نقط والتصحيح عن : (ديوان عمارة ، ص ٣٦٩) .
(٥) فى س (ص ١٢٧) « لك » .
(٦) فى : (عمارة : النكت العصرية ، ج ١ ، ص ٨٣) : « اشطانها » .

وتداركتْ بِلْبِيسَ منك عواطفٌ يَسَعُ الزمانَ وأهلَه غفرانُها
[٨٨]أقسمتُ لولا حسنُ رأيك لاغتدى الـ ـناقوس فى بلبيسَ وهو أذانُها
بلدٌ لو انهدمتْ قواعدُ سُوره[1] بيد النَّصارى لم يُعَد بنيانُها

ومنها فى عود الوزارة إليه :

كانتْ وَزَارتُك القديمةُ مَشْرَعاً صَفْوًا ، ولكن كُدِّرتْ غُدرَانُها
غَصَبَتْ رجالٌ تاجَه وسريرَه من بعد ما سجدتْ له تيجانُها
أخلى لهم[2] دَسْتَ الوَزارةِ عالماً أنْ سوف ينزغ بينهم شيطانُها[2]
قد كان أودع[3] فى الرقاب صَنَائعاً كفرتْ به ، فأبادها[4] كُفْرَانُها

ذكر فتح حارم وكسر الفرنج

لما قصد الفرنج ديار مصر — كما تقدم ذكره — أراد نور الدين — رحمه الله — قصدَ بلاد الفرنج ليعودوا عن مصر ، فاستعد للجهاد ، وكاتب أخاه قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكى — صاحب الموصل — وقرا أرسلان[5] بن داوود بن سقمان بن أرتق — صاحب حصن كيفا والديار الجزيرية — ، ونجم الدين ألب أرسلان بن تمرتاش ابن إيلغازى بن أرتق — صاحب ماردين — وأصحاب الأطراف يدعوهم إلى مساعدته على الجهاد ، فجمع قطب الدين مودود عساكره وسار إلى نجدة أخيه ؛ وأما فخر الدين

(١) فى س : « سورها » .
(٢) فى س : « احلام » « وبسطانها » .
(٣) فى س : « أصنع » .
(٤) فى الأصل : « فأوداها به » ، والتصحيح من : (المرجع السابق ، ص ٨٤) . والذى رواه المؤلف هنا أبيات مختارة ، والقصيدة فى (الديوان) و (النكت) أكثر أبياتاً ، فانظرها هناك .
(٥) فى الأصل : « قرأ رسلان » ، وما هنا عن : س (ص ١٢٧)

صاحب الحصن فقال له ندماؤه وخواصه : «على أى شئ عزمت (١) ؟» فقال : «على القعود ؛ فإن نور الدين قد تحشف (٢) من كثرة الصوم والصلاة ، فهو كل يوم يُلقى نفسه فى وقعة ، والناس معه فى المهالك» ؛ فوافقه أصحابه على هذا الرأى ؛ فلما كان الغد أمر أصحابه بالتجهز للغزاة ، فقال له أصحابه : «ما عدا مما (٣) بدا ؟ فارقناك بالأمس على حال ونرى منك اليوم على (٤) ضدها» ؛ فقال : «اعلموا أن نور الدين قد سلك معى طريقا إن لم أنجده خرج أهل بلادى عن طاعتى ، وأخرج البلاد عن يدى ، فإنه قد كاتب زهّادها وعبّادها يذكر لهم ما لقى المسلمون (٥) من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر ، ويستمدهم الدعاء ، وطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة ؛ [٨٩] وقد قعد (٦) كل واحد منهم ومعه أصحابه وأتباعه يقرأون كتب نور الدين ويبكون ، ويلعنونى ويدعون علىّ ، ولا بد من المسير إليه» ثم إنه تجهز وسار إليه .

وأما صاحب ماردين فإنه سيّر إليه عسكرا [وكذلك سار إليه كل من كاتبه] (٧) ، ولما اجتمعت العساكر عند نور الدين — رحمه الله — نازل حارم ونصب عليها المجانيق ، فاجتمع من بقى فى الساحل من الفرنج ، وجاؤوا إليه فى جموعهم ، ومعهم صاحب أنطاكية وابن جوسلين وغيرهما ، وقصدوا نور الدين — رحمه الله — فرحل عن حارم إلى أرتاح ، وطمع فى أن يتبعوه فيتمكن منهم ببعدهم عن بلادهم

---

(١) فى س (٢٧ ب) : «قد عولت» .
(٢) فى س : (٢٧ ب) : «لشف» .
(٣) فى س : «فيما» .
(٤) فى س : «الآن ضدها» .
(٥) فى الأصل وفى (س) : «المسلمين» .
(٦) فى س (ص ٢٧ ب) : «مدمه» بدون نقط .
(٧) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (ص ٢٧ ب) .

إذا لقوه ، فساروا ونزلوا على عِمٍّ(١) ، ثم علموا عجزهم عن لقائه ، فعادوا إلى حارم ، فتبعهم نور الدين فى عساكره ، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال ، فحمل الفرنج على ميمنة المسلمين — وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن — فانهزموا ، وتبعهم الفرنج ، فأبعدوا عن راجلهم ، فحينئذ عطف الأمير زين الدين على كُوجَك فى عساكر الموصل على راجل الإفرنج فأفناهم قتلا وأسرا ، فعادت خيَّالتهم الذين ساقوا وراء المنهزمين خوفا على راجلهم ، فلما عادوا عاد المنهزمون ، وحملوا على الإفرنج ، وأحدق المسلمون بهم من كل جانب ، واشتدت الحرب ، وقامت على ساق ، فتمت الهزيمة على الفرنج ، وأنزل الله سبحانه [وتعالى] نصره على المسلمين وأسر من الفرنج ما لا يُحد ، ومن جملة الأسرى : صاحب أنطاكية ، والقومص صاحب طرابلس ، وابن جوسلين ؛ وقُتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف [فارس وراجل(٢)] .

وسار نور الدين — رحمه الله — إلى حارم ، فتسلمها لتسع بقين من رمضان من هذه السنة ، — أعنى سنة تسع وخمسين وخمسمائة — وأشار عليه أصحابه بالمسير إلى أنطاكية ليملكها ، لخلوها ممن يحميها ويدفع عنها ، فامتنع ، وقال : « أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة فهى منيعة لا تؤخذ إلا بعد حصار طويل ، وإذا ضيَّقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية فيسلموها إليه ، ومجاورة بيمند أحب إلينا من جوار ملك الروم » . ثم أطلق نور الدين بيمند صاحب أنطاكية على أن يحمل أموالا كثيرة وأسرى من المسلمين أطلقهم .

---

(١) كذا فى الأصل ، وهى فى س (٢٧ ب) : « غم » ، وهم قرية من أعمال حارم وتقع فى منتصف الطريق تقريبا بين حلب وأنطاكية ، انظر : (ياقوت : معجم البلدان) و (ابن الشحنة : تاريخ مملكة حلب ، ص ١٦٧) .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (ص ٢٨ ا) .

وفى هذه السنة توفى جمال الدين محمد بن [٩٠] على الأصفهانى (١) وزير قطب الدين مودود بن [عماد الدين (٢)] زنكى — صاحب الموصل — ، وكان عظيم القدر جواداً حسن السيرة ؛ ولما توفى حُمل إلى مكة — حرسها الله تعالى — وطيف بنعشه حول الكعبة المعظمة ، ثم حمل إلى المدينة فدُفن بها فى تربة بنيت له قريبا من الحجرة المقدسة — على ساكنها [أفضل (٢)] الصلاة والسلام — .

(٣) ذكر فتح بانياس

كانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة — كما ذكرنا (٣) — ، ولما فتح نور الدين — رحمه الله — حارم أذن للعساكر الموصلية والديار بكرية بالعود إلى بلادهم ، وأظهر أنه يقصد طبرية ، فجعل الفرنج همتهم حفظها ، فسار مُجِدًّا إلى بانياس لعلمه بقلة المانعين لها ، فنازلها وضايقها ، ومعه أخوه الأمير نصرة الدين أمير أميران بن [عماد الدين (٤)] زنكى ؛ — [وكان قد عاد إلى خدمة أخيه نور الدين ، وقد رضى عنه نور الدين وأعطاه ما أراد (٤)] — فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه ، فقال له نور الدين : « لو كُشف لك عن الأجر الذى أُعدّ لك لتمنيت ذهاب الأخرى ».

وجدّ — رحمه الله — فى حصارها ، فحشد الفرنجُ وجمعوا ليمنعوه منها ، ففتحها قبل أن يتكامل جمعهم ، وملك القلعةَ وملأها ذخائر ورجالا ، ثم عاد إلى دمشق ، وكان فى يده خاتم يسمى الجبل بفص ياقوت من أحسن الجوهر لكبره وحسنه ، فسقط من يده فى شعرا بانياس ، وهى كثيرة الأشجار ، ملتفة الأغصان ، فلما أبعدوا

---

(١) انظر ترجمته فى : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١١٥) .

(٢) مابين الحاصرتين زيادة عن : س (ص ١٢٨ ا) .

(٣) مابين الرقمين غير موجود فى س .

(٤) مابين الحاصرتين زيادات عن : س (ص ٢٨ ب) .

عن المكان الذى ضاع فيه [الخاتم[١]] علم به [نور الدين[١]] ، فأعاد بعض أصحابه فى طلبه ، ودلّهم على المكان الذى كان آخر علمه وعهده به ، فعادوا فوجدوه ، فقال بعض الشعراء يمدحه من قصيدة [أولها[١]] :

إنْ يمترى الشُّكَّاكُ فيك بأنك الـ ـمهدىُّ مُطْفى[٢] جَمْرَةَ الدجَّالِ
فلعودة الجبل الذى أضللته بالأمس بين غيَاطِلٍ وجبال
لم يُعْطها إلا سليمان ، وقد نلتَ المنى[٣] بوشك[٤] الإعجال
زجر جرى لسرير مالك إنه كسريره عن كل جذع[٥] عال
فلو البحارُ السبعةُ استَهْوَيْنَهُ وأمرتهن[٦] ، قذفنه فى الحال

[قال : وفى سنة ستين وخمسمائة مات الوزير عون الدين يحيي بن هبيرة ، ذكر القاضى شهاب الدين[٧] فى تاريخه ، قال : كان الوزير ابن هبيرة عالماً ورعاً عفيفاً محباً لأهل العلم محسناً إليهم ، وزير الخليفتين] [٨] .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادات عن : س (ص ٢٨ ب) .

(٢) فى الأصل : « فتطى » وفى س (٢٨ ب) : « وتطى » ، والتصحيح عن :(الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٠) .

(٣) فى الروضتين : « الرقاء » ، وفى (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١١٤) : « نبت الربا بوشك الاعجال » .

(٤) فى الأصل وفى (س) : « بوسك » وما هنا عن الروضتين .

(٥) فى الأصل : « جد » وفى الروضتين : « جدر » ، وما هنا عن (س) .

(٦) فى الأصل وفى (س) : « وأمرته لقذفنه » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٧) القاضى شهاب الدين هو شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى أبو شامة ، وتاريخه هو « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين » . انظر ترجمة ابن هبيرة بهذا التاريخ (ج ١ ، ص ١٤١) .

(٨) مابين الحاصرتين زيادة أضفناها عن س (ص ٢٨ ب) ، وبها تنتهى الصفحة ويضطرب النص مرة أخرى فى تلك النسخة ، وبالتالى تنقطع الصلة بينه وبين نص النسخة الأصلية (ك) .

[٩١] ذكر فتح حصن المنيطرة

وفى سنة إحدى وستين وخمسمائة فتح الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى — رحمهما الله — حصن المنيطرة ، وكان بيد الفرنج ، سار إليه جريدة ، وانتهز[١] الفرصة فيه ، وجدّ فى قتاله عنوة وقهراً ، وقتل من به ، وسبى[٢] وغنم غنيمة كثيرة ، وذكر القاضى بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — أن الواقعة كانت سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

ذكر مسير أسد الدين شيركوه بن شاذى

المسير الثانى إلى مصر

وفى سنة اثنتين وستين وخمسمائة سيّر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى — رحمة الله عليهما — أسد الدين شيركوه إلى مصر ليملكها ، وذلك لما ثبت فى نفسه من غدر شاور به ورجوعه عما كان وقع من العهد والاتفاق عليه ، وسيّر معه جمعاً من الأمراء ، فبلغت عدتهم ألفى فارس ، وذلك فى شهر ربيع الأول من السنة ، وسار معه نور الدين إلى أطراف البلاد خوفاً من معرة (كذا[٣]) الافرنج .

---

(١) أمام هذا اللفظ بالهامش معناه باللغة اللاتينية : (captavit occasionem) ويبدو أن كاتبها واحد من المستشرقين الذين قرأوا هذه النسخة بمكتبة جامعة كامبردج .

(٢) فى الأصل : « سبا » .

(٣) كذا فى الأصل ، ولا يستقيم بها المعنى ، وصيغة (ابن الأثير) : « خوفاً من حادث يتجدد عليهم فيضعف الاسلام » .

وكان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن نجم الدين أيوب بن شاذى مع عمه أسد الدين فى هذه السفرة ؛ وفى ذلك يقول عَرْقَلَة (١) الدمشقى يمدح صلاح الدين، وجرى بملكه الفال، والفال موكل بالمنطق :

أقول والأتراكُ قد أزمعتْ　　مصر إلى حَرْبِ الأعاريبِ
ربِّ كما مَلَّكتَها يوسفَ الـ　　صدِّيقَ من أولادِ يعقوبِ
يُمَلِّكها فى عصرنا يوسفُ الـ　　صادقُ من أولاد أيوبِ
من لم يزل ضرَّابَ هامِ العِدَى　　حقًّا، وضرَّابَ العَرَاقِيبِ

ثم سار أسد الدين — رحمه الله — إلى الديار المصرية (وترك بلاد الافرنج عن يمينه فوصل الديار المصرية)(٢)، وعبر النيل عند أطفيح(٣) بالجانب الغربى، ونزل بالبلاد الجيزية، وتصرف فى البلاد، وأقام بها نيفا وخمسين يوما.

وأرسل شاور — وزير العاضد — يستنجد بالفرنج، فأتوه على الصعب والذلول، وحملهم على ذلك أمران : أحدهما الطمع فى تملك الديار المصرية، والثانى الخوف من تملك العساكر النورية لها ؛ وعلموا أنه إن ملكها نور الدين — رحمه الله — واستضافها إلى [٩٢] البلاد الشامية لم يبق لهم بالبيت المقدس والشام مقام، وأنه يستأصلهم وتصير بلادهم فى وسط بلاده ؛ ولما وصلوا مصر اجتمعوا بالعساكر المصرية وعبروا إلى الجانب الغربى.

---

(١) هو حسان بن نمير الكلبي أبو الندى الشاعر المعروف بعرقلة الدمشقى، كان شيخاً خليعا أعور مطبوعاً لطيفاً ظريفاً، اختص بالسلطان صلاح الدين وله فيه مدائحه، توفى سنة ٥٦٧ هـ. انظر : (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٦٤) و (سبط بن الجوزى : مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص ٢٨٦—٢٨٧).

(٢) هذه الجملة كتبت فى هامش الأصل وأشير إلى مكانها بالمتن بعلامة.

(٣) اطفيح حالياً قرية من قرى مركز الصف بمديرية الجيزة، وهى مدينة قديمة كانت تسمى فى العصر اليونانى «افروديتوبوليس». انظر : (مصلحة المساحة : فهرس مواقع الأمكنة) و (على مبارك : الخطط، ج ٨، ص ٧٧ — ٧٨).

ذكر واقعة البابين

وكان أسد الدين شيركوه قد سار بالعساكر فى الصعيد إلى أن بلغ إلى مكان يعرف بالبابين[١]، فسارت الفرنج والمصريون خلفه، فأدركوه به فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة؛ وكانت جواسيسه قد أخبروه بكثرة عدد الفرنج والمصريين وقوتهم؛ فجمع أصحابه واستشارهم، فكلهم أشاروا عليه بعبور بحر النيل إلى الجانب الشرقى والعود إلى الشام، وقالوا: «إن نحن انهزمنا فإلى من نلتجئ وبمن نحتمى، وكل من فى هذه الديار من جندى وفلاح عدو لنا». فقام أمير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين برغش — صاحب الشقيف — وكان شجاعا وقال: «من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون فى بيته مع امرأته، والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة وبلاء نُعذر فيه ليأخذن أموالنا وما معنا من الإقطاع[٢] والجامكية[٣]، وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منه من يوم خدمناه وإلى يومنا هذا، ويقول: تأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم، وتسلمون مثل مصر إلى الكفار». فقال أسد الدين: «هذا الرأى، وبه أعمل».

وقال ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب مثله؛ وكثر الموافقون، واجتمعت الكلمة على القتال، وأقاموا بمكانهم حتى وصل الفرنج والمصريون وهم على تعبيتهم، فجعل أسد الدين الأثقال فى القلب، لا ليتكثر بها لأنه لا يمكنه تركها فى مكان آخر خوفا من أن تنهب؛ وجعل صلاح الدين فى القلب وقال له ولمن معه: «إن المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب، فإذا حملوا عليكم

---

(١) قرية كانت تقع جنوب مدينة المنيا.

(٢) هذا نص قيم له فائدته عند دراسة نظام الاقطاع فى عهد نور الدين وعند الأتابكة عموما.

(٣) الجامكية ـ والجمع جامكيات وجوامك ـ الراتب. انظر: (Dozy: *Supp. Dict. Arab.*)

فلا تصدقوهم القتال ، ولا تهلكوا أنفسكم ، واندفعوا من بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا فى أعقابهم » ؛ واختار هو من شجعان عسكره جمعا يثق بهم ، ويعرف [٩٣] صبرهم فى الحرب ، ووقف بهم فى الميمنة ، فلما اصطفوا للحرب ، حمل الفرنج على القلب ، فقاتلهم من به قتالا يسيرا ، ثم انهزموا بين أيديهم غير متفرقين ، وتبعهم الفرنج ، وحينئذ حمل أسد الدين بمن معه على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنج — الفارس والراجل — فهزمهم ، ووضع السيف فيهم ، وأثخن وأكثر من القتل والأسر.

فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين ، ورأوا عسكرهم مهزوما ، والأرض منهم قفرا انهزموا أيضاً ، ونصر الله المسلمين .

ذكر استيلاء أسد الدين شيركوه على الاسكندرية

ثم سار أسد الدين — رحمه الله — إلى ثغر الاسكندرية ، وجبى ما فى طريقه من القرى ، ووصل إلى الاسكندرية ، فسلمها أهلها إليه — لميلهم إلى مذهب السنة وكراهتهم لرأى المصريين — ، فاستناب بالاسكندرية ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وعاد إلى الصعيد ، فملكه وجبا أمواله ، وأقام به حتى صام شهر رمضان .

ذكر محاصرة الفرنج لصلاح الدين يوسف بالاسكندرية

وعاد الفرنج والمصريون بعد الوقعة إلى القاهرة ، وأصلحوا عساكرهم ، وجمعوا ثم ساروا إلى الإسكندرية فحصروا صلاح الدين ، واشتد الحصار وقل الطعام بها ، فصبر أهلها على ذلك ، ولما بلغ ذلك أسد الدين سار من الصعيد إليهم ، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان .

ذكر وقوع الصلح بين أسد الدين والفرنج والمصريين

ثم راسل المصريون والفرنج أسد الدين يطلبون الصلح ، وبذلوا له خمسين ألف دينار ، فأجابهم إلى ذلك بشرط أن الفرنج لا يقيمون فى البلاد ، ولا يتملكون منها قرية واحدة ، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا ، وعاد إلى الشام .

وتسلم المصريون الاسكندرية فى منتصف شوال ، وعاد أسد الدين إلى دمشق لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة ، واستقر بين الفرنج والمصريين أن يكون لهم بالقاهرة شِحنة ، وتكون أبوابها مع فرسانهم وبأيديهم ، ليمتنع نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم (١) ، ثم عاد الفرنج [٩٤] إلى بلادهم ، وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم .

وكان الكامل شجاع بن شاور قد أرسل إلى نور الدين مع بعض الأمراء ينهى محبته وولاءه ، ويسأله الدخول فى طاعته ، وضمن عن نفسه أنه يجمع بمصر الكلمة على طاعته ، ويبذل له مالاً يحمله كل سنة ، فأجابه إلى ذلك ، فحمل إلى نور الدين مالا جزيلا .

ذكر فتح صافيثا والعزيمة

وفى هذه السنة — أعنى سنة اثنتين وستين وخمسمائة — سار قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكى إلى أخيه الملك العادل نور الدين محمود ، وجمعا العساكر

---

(١) أضاف (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٢٢) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٤٣) نصا آخر هاماً من نصوص هذه المعاهدة ، وهو : « ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار » .

ودخلا بلاد الفرنج ، فاجتازوا على حصن الأكراد (١) ، فأغاروا ونهبوا وسبوا ، ونزلوا عَرْقَة ، وحاصروا حلبة ، وأخذوها وخربوها ، وسارت العساكر إلى بلادهم يمينا وشمالا تُغير وتخرب ؛ وفتحوا العزيمة وصافيثا ، وعادوا إلى حمص ، فصاموا بها رمضان ، ثم ساروا إلى بانياس ، وقصدوا حصن هونين ، فانهزم الفرنج عنه ، فأخربوه ، فوصل إليه نور الدين من الغد ، فهدم سوره جميعه ، وأراد الدخول إلى بيروت ، فتجدد فى العساكر خُلف أوجب التفرق ؛ وعاد قطب الدين إلى الموصل فأعطاه نور الدين الرقة .

وفى هذه السنة عصى غازى بن حسّان المنبجى بمَنْبِج (٢) ، وكانت قد صارت له بعد أبيه إقطاعا من نور الدين ، فسيّر إليه عسكرا فحصروه ، وأخذها منه ، وأقطعها أخاه قطب الدين ، فأعطاها ينال بن حسّان ؛ فبقى فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

وفيها توفى فخر الدين قَرَا أرْسلان (٣) بن داوود بن سُقْمان بن أُرْتُق — صاحب حصن كَيْفا — وأكبر ديار بكر ، ولما اشتد مرضه أرسل إلى الملك العادل نور الدين يقول له : « بيننا صحبة فى جهاد الكفار ، أريد أن ترعى بها ولدى » ؛ ثم توفى

(١) حصن منيع على الجبل الذى يقابل حمص من جهة الغرب وهو جبل الجليل ، وذكر (ياقوت) أن بعض أمراء الشام كان قد بنى فى موضعه برجا وجعل فيه قوماً من الأكراد طليعة بينه وبين الفرنج ، وأجرى لهم أرزاقاً ، فتديروها بأهاليهم ثم خافوا على أنفسهم فى غارة فجعلوا يحصنونه إلى أن صار قلعة حصينة منعت الفرنج عن كثير من غاراتهم فنازلوه فباعه الأكراد منهم ورجعوا إلى بلادهم وملكه الفرنج . ثم يقول : وبينه وبين حمص يوم . انظر أيضاً : (G. Demombynes : *La Syrie a l'Epoque des Mamelouks. P. 112*)

(٢) إحدى مدن العواصم ، وذكر (ياقوت) أنها مدينة كبيرة كان عليها سور مبنى بالحجارة بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ .

(٣) ولى حكم حصن كيفا من سنة ٥٣٩ إلى سنة ٥٦٢ هـ . انظر : (Zambaur : Op. Cit. P. 228)

فملك بعده ولده نور الدين [1] محمود بن قرا أرسلان ، فقام الملك العادل نور الدين بنصرته والذبّ عنه ، فأراد قطب الدين مودود بن زنكى — صاحب الموصل — قصده ، فأرسل إليه أخوه نور الدين ومنعه ، وقال : « إن قصدته أو تعرضت إلى بلاده منعتك قهراً » ، فامتنع من قصده .

ذكر فراق الأمير زين الدين على كوچك قطبَ الدين مودود ابن زنكى صاحب الموصل

[٩٥] كان زين الدين على كُوچَك بن بكتكين هو النائب عن قطب الدين بالموصل والمتحكم فى دولته ، وكانت بيده إربل ، وفيها بيته وأولاده وخزائنه ، وكانت أيضاً بيده شهرزور وجميع القلاع التى معها ، وجميع قلاع الهكّارية ، ومنها قلعة العمادية ، و بلد الحميدية ، وتكريت ، وسنجار ، وحران ، فأصابه طرش وعمى فى سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، فلما عزم على مفارقة الموصل إلى إربل سلم جميع ما كان بيده من الأعمال إلى قطب الدين ، وبقى معه إربل حسبُ ، وكان شجاعا عادلا حسن السيرة ميمون النقيبة ، لم ينهزم فى حرب قط ، وكان كريماً كثير العطاء للجند ؛ ولما توجه إلى إربل توفى فى هذه السنة ، وصارت إربل بعده لولده زين الدين ، ثم توفى على مرج عكا وهو فى خدمة السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، فملكها بعده أخوه مظفر الدين كوكبورى إلى سنة ثلاثين وستمائة ، فملكها الخليفة المستنصر بالله ، وصارت نوابه فيها ، وملكها المستعصم بالله ، إلى أن ملكها التتر [2] الملاعين حين ملكوا البلاد .

(١) ولى الحكم فى حصن كيفا من سنة ٥٦٢ — ٥٨١ هـ . انظر المرجع السابق .

(٢) لهذا النص أهمية خاصة ، فهو يدل على أن المؤلف كان يكتب هذا الجزء من كتابه بعد سنة ٦٥٦ هـ وهى السنة التى استولى فيها هولاكو على بغداد وقتل الخليفة المستعصم ، ثم أرسل قائدا من قواده لمهاجمة إربل والاستيلاء عليها ؛ انظر : (دائرة المعارف الاسلامية — الترجمة العربية — ، مادة إربل ، وما بها من مراجع) .

ذكر استيلاء الملك العادل نور الدين على قلعة جعبر

كان السبب فى تملك نور الدين لها أن صاحبها شهاب الدين مالك العقيلى نزل يتصيَّد فأخذه بنو كلب أسيراً ، فحملوه إلى نور الدين — رحمه الله — فى رجب سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، فاعتقله وأحسن إليه ، ورغَّبه فى المال والإقطاع ليسلم إليه القلعة ، فلم يفعل ، فعدل إلى الشدة والعنف وتهدده ، فلم يفعل ، فسير إليها نور الدين الأمير فخر الدين مسعود بن على بن الزعفرانى ، فحصرها مدة ، فلم يظفر بطائل ، فأمدهم بعسكر ، وجعل على الجميع مجد الدين أبا بكر بن الداية ، فلم يحصل على غرض ، فأخذ صاحبها بطريق اللين ، وأشار عليه أن يأخذ عوضا عنها ، فقبل ذلك ، وتسلَّمها ، وتسلَّم سرُوج وأعمالها ، والملاحة التى فى بلد حلب ، وباب ، وبُزَاعة[1] ، وعشرين ألف دينار معجلة ؛ وكانت قلعة جعبر بيد هؤلاء القوم من حين سلمها إليهم جلال الدولة ملكشاه ، وقد ذكرناه فى موضعه . وكان استيلاء نور الدين عليها سنة أربع وستين وخمسمائة .

ذكر مسير أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية

[٩٦] المسير الثالث

وكان السبب فى ذلك أن الفرنج كانوا قد دخلوا ديار مصر مرتين ، واطلعوا على عوراتها ، وكان لهم بالقاهرة شِحْنة ، وأبوابها مسلمة إليهم ، وبالقاهرة جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم ، فحكموا على المسلمين حكما جائراً ، وركبوهم بالأذى الشديد ، فلما رأوا تمكنهم من البلاد ، وأنه ليس بها راد ولا عن أخذها صاد كاتب

(١) جاء فى (ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ١٧٢) أن « الباب » و « بزاعة » قريتان عظيمتان بل مدينتان صغيرتان فى كل واحدة منهما منبر وخطيب ، وهما من أعمال حلب ، أما الباب فهى أكثر عمارة من بزاعة .

الفرنج الذين بالقاهرة ملكهم بالشام المعروف بمُرّى[١] ، وكان ذا شجاعة ومكر ودهاء ، يستدعونه لتملكها ، وأعلموه خلوها من المانع ، وهوّنوا أمرها عليه ؛ وكاتبه أيضاً جماعة من أعيان المصريين كانوا أعداء لشاور ؛ منهم : ابن الخياط[٢] ، وابن قرجلّه[٣] ، فشاور الملك فرسان الفرنج وذوى الرأى منهم ، فكل منهم أشار بقصدها وملكها ، فقال لهم : « الرأى أنا لا نقصدها ، فإنها طعمة لنا ، وأموالها تساق إلينا ، نتقوى بها على نور الدين ، وإن نحن قصدناها لنملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلموها إلينا ، ويقاتلوننا دونها ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها لنور الدين ، ولئن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام » . فلم يقبلوا قوله ، وقالوا : « إنه لا مانع منها ولا محامى ، وإلى أن يتجهز نور الدين ويسير إليها نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها ، وحينئذ يتمنى نور الدين السلامة » . فوافقهم على كره ، وتجهز للسفر ، وأظهروا أنهم يريدون قصد حمص .

وسمع نور الدين بتجهيزهم فجمع عساكره ، وتجهز للقائهم وتأهب ، ثم سار الفرنج من عسقلان إلى الديار المصرية .

---

(١) هو « أملريك الأول Amalric I » ملك بيت المقدس ، وتسميه المراجع العربية « مرّى » أو « عمورى » ، وقد ولى الملك بعد وفاة أخيه « بلدوين الثالث Baldwin III الذى لم يعقب . انظر : (Runciman : *A History of the Crusades. Vol. 2. The Kingdom of Jerusalem and the Frankish East. 1100 - 1187. PP. 362. ff).*

(٢) هو يحيى بن الخياط ، كان من قواد الدولة فى عهد وزارة الصالح طلائع بن رزيك ، ثم أصبح من رجال شاور : بل أصبح اسفهسلار العساكر فى أول عهده ، ولكنه اختلف معه فى عهد وزارته الثانية وخرج عليه فى قوص يطلب الوزارة لنفسه ، فأخضع حركته الكامل بن شاور . انظر: (عمارة ، النكت العصرية ، ص ٣٥ و ٦٩ و ٧٨ و ٣١٩ و ٣٤٨) ، (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٦) .

(٣) ورد ذكره فى (النكت العصرية ص ٤٩٥) عند الحديث عن المؤامرة الكبرى ضد صلاح الدين التى اشترك فيها عمارة ، قال : « وكاتبوا سنانا صاحب الحشيشية بأن الدعوة واحدة والكلمة واحدة . . . وكان الرسول خال ابن قرجلة » أنظر أيضاً : (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٠) .

ذكر منازلة الفرنج بلبيس وملكهم لها

فوصلوا إلى مدينة بلبيس فنازلوها وملكوها غرة صفر من هذه السنة — سنة أربع وستين وخمسمائة — فنهبوا أهلها ، وقتلوا وسبوا وأسروا ، ثم رحلوا عنها .

ذكر منازلة الفرنج القاهرة

ونازلوا القاهرة عاشر صفر وحصروها ، فامتنع أهل البلد واستحصنوا خوفا أن تملكها [٩٧] الفرنج ، فيسيروا فيهم سيرتهم فى أهل بلبيس ، فقاتلوا ، وبذلوا الجهد فى الحفظ .

ذكر إحراق مصر

وأمر شاور بإحراق مصر ، وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة ، وأن ينهب البلد ، فانتقلوا ، وبقوا على الطرق ، ونُهبت مصر ، وافتقر أهلها ، وذهبت أموالهم ونعمهم ، وذلك فى تاسع صفر قبل نزول الفرنج على القاهرة بيوم واحد ؛ فبقيت النار تعمل فى مصر أربعة وخمسين يوما إلى خامس ربيع الآخر ، واشتد الأمر ، وعظم الخطب ، وضاق الحصار ، وخيف البوار ، وعلم شاور عجزه وضعفه ، وأن البلاد ذاهبة لا محالة ، فسلك طريق التمحل ، وأرسل إلى ملك الإفرنج مُرِّى يذكر له مودته ومحبته ، وأن هواه معه ، وتخوفه من نور الدين ، وأن المسلمين لا يوافقونه على التسليم ، ويشير بالصلح وأخذ مال ، لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين .

ذكر وقوع الصلح بين شاور والفرنج

فأجابه مُرّى إلى الصلح على ألف ألف دينار، يعجل البعض ويؤخر الباقى؛ ورأى الفرنج أن المصلحة فى ذلك لئلا يتدارك نور الدين البلاد ويأخذها، فعجّل لهم شاور مائة ألف دينار، وماطل بالباقى خداعاً ومكراً، وسيّر الكتب إلى نور الدين مُسَوَّدَةً وفى طيها ذوائب نساء أهل القصر مجزوزة؛ وواصل الكتب إليه مستغزاً ومستنصراً، ويقول: « إن لم تبادر ذهبت البلاد »، وأرسلها مع نجابين — يتلو بعضهم بعضاً — وأقام منتظراً ما يرد عليه من نور الدين، وهو مع ذلك يدافع الفرنج ويماطلهم.

ووردت مكاتبة العاضد لدين الله إلى نور الدين فى هذا المعنى، وبذل له — إن وصل — ثلث البلاد، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده فى عسكر، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذى لنور الدين.

ولما وردت الرسل إلى نور الدين بذلك كان بحلب، فأرسل إلى أسد الدين شيركوه — وكان بحمص، وهى إقطاعه — يستدعيه، فلما خرج القاصد من حلب متوجهاً إلى أسد الدين وجده قد وصل إلى حلب، لأنه كان أيضاً قد أتته كتب المصريين يحثّونه على سرعة الوصول إليهم، فلحرص أسد الدين على التجهز إلى الديار المصرية سار من حمص إلى حلب، فوصلوا فى ليلة واحدة، فأمره نور الدين بالتجهيز [٩٨] إلى مصر والسرعة فى ذلك، وأعطاه مائتى ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكّمه فى العساكر والخزائن، فاختار من العسكر ألفى فارس، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس.

وندب الملكُ العادلُ نورُ الدين صلاحَ الدين أبا المظفر يوسف بن أيوب ابن شاذى أن يمضى مع عمه إلى الديار المصرية ، فكره ذلك صلاح الدين ، فروى عنه القاضى بهاء الدين بن شداد — قاضى حلب رحمه الله — قال : لقد قال لى السلطان — يعنى صلاح الدين — « كنت أكره الناس فى الخروج فى هذه الوقعة ، وما خرجت مع عمى باختيارى » ، قال : وهذا معنى قوله سبحانه « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » .

قال عز الدين بن الأثير — رحمه الله — فى تاريخه الكامل : « أحب نور الدين مسير صلاح الدين ، وفيه ذهاب بيته ؛ وكره صلاح الدين المسير ، وفيه سعادته وملكه » قال : « فلقد حكى لى صلاح الدين ، قال : لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين — رحمه الله — أحضرنى وأعلمنى الحال ، وقال : تمضى إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسول إليه تأمره بالحضور ، وتحثه أنت على الإسراع ، فما يحتمل الأمر التأخير .

قال : ففعلت ، فلما فارقت حلب ، على ميل منها ، لقيناه قادماً فى هذا المعنى ، فقال له نور الدين : تجهز المسير ؛ فامتنع خوفاً من غدرهم أولا وعدم ما ينفقه فى العساكر ثانياً ؛ فأعطاه نور الدين الأموال والرجال ، وقال له : إن تأخرت عن المسير إلى مصر ، فالمصلحة تقتضى أن أسير أنا بنفسى إليها ، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج ، ولا يبقى معهم مقام بالشام ولا غيره ؛ قال : فالتفت إلىَّ عمى أسد الدين وقال : تجهز يا يوسف ؛ قال : فكأنما ضرب قلبى بسكين ؛ فقلت : والله لو أعطيتُ مُلْك مصر ما سرت إليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق بها ما لا أنساه أبداً ؛ فقال عمى لنور الدين : لا بد من مسيره معى ، فترسم له ، فأمرنى نور الدين وأنا استقيله ؛ فانقضى المجلس ، ثم جمع أسد الدين العساكر

من التركمان وغيرهم ، ولم يبق [٩٩] غير المسير ، فقال لى نور الدين : ولا بد من مسيرك مع عمك ، فشكوتُ إليه الضائقة وقلة الدواب وما احتاج إليه ، فأعطانى ماتجهزت به ، وكأنما أساق إلى الموت ؛ — وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته — ، فسرتُ معه . فلما توفى أعطانى الله من الملك ما كنت أتوقعه » .

ثم سار نور الدين وأسد الدين من حلب إلى دمشق فوصلاها سلخ صفر ، ثم رحلا إلى رأس الماء ، وأنفق نور الدين لكل فارس عشرين ديناراً ، وأضاف إلى أسد الدين جماعة من الأمراء ، ومنهم مملوكه عز الدين جورديك — وهو الذى لما توفى نور الدين كان نائباً عنه بقلعة حماة — ، والأمير غرس الدين قِلج — والد الأمير سيف الدين وعماد الدين — ، وشرف الدين برغش ، وعين الدولة الياروقى ، وقطب الدين ينال بن حسان — صاحب منبج — ، وغيرهم .

ثم [١] سار أسد الدين شيركوه من رأس الماء منتصف ربيع الأول .

ذكر قدوم أسد الدين شيركوه مصر ورحيل الفرنج عنها

ولما قرب أسد الدين — رحمه الله — من الديار المصرية رحل الفرنج عنها خائبين ، وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم ، لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، ووصلت الأخبار بذلك إلى نور الدين — رحمه الله — ، فأمر بضرب البشائر [٢] فى البلاد الإسلامية ، فإنها كانت أجل الفتوح [٣] وأعظمها ، إذ لو استولى العدو — لعنه الله — على الديار المصرية لاستولى على سائر الخطة الإسلامية .

---

(١) بهذا اللفظ تبدأ (ص ١١٦ ا) من نسخة س ، وبذلك نعود للمقارنة بين نصى النسختين .
(٢) فى الأصل : « المشاير » وما هنا عن : س (ص ١١٦ ا) .
(٣) فى س : « الفتوحات » .

وكان وصول أسد الدين — رحمه الله — إلى القاهرة لأربع مضين من ربيع الآخرة من هذه السنة ، — أعنى سنة أربع وستين وخمسمائة — ، ودخل إلى القصر ، واجتمع بالعاضد[١] لدين الله ، وخلع عليه ، وعاد إلى مخيمه بالخلعة العاضدية ، وفرح به أهل مصر ، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والإقامات الوافرة .

ذكر مقتل شاور[٢]

وأقام شاور يتردد إلى أسد الدين شيركوه ، وكان قد وعده بمال فى مقابلة ما خسره من النفقة ، فلم يوصل إليه شيئاً ، وقيل إنه ماطله فى تقرير ما بذل[٣] له من المال والإقطاع [١٠٠] للعساكر ، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين ؛ وذكر أنه كان [شاور[٤]] قد عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ، ويقبض عليهم [فيها[٤]] ، فنهاه ابنه الكامل ، وقال : « والله لئن عزمت على هذا الأمر لأُعَرِّفَنَّ أسد الدين » . فقال أبوه : « والله لئن لم نفعل هذا لَنُقتلن جميعاً » ، قال : « صدقت ، ولئن نُقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نُقتل وقد ملكتها الفرنج ، وليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على [أسد الدين[٤]] شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً ، ويملكون الفرنج البلاد » . فترك [شاور[٤]] ما كان عزم عليه واجتمع أسد الدين وأصحابه على الفتك بشاور لأنهم علموا أن الفرنج متى وجدوا فرصة

(١) فى س : « بالخليفة العلوى العاضد » .
(٢) هذا العنوان غير موجود فى س .
(٣) فى س (ص ١١٦ ا) : « فى الذى استقر بينهما من المال .. الخ » .
(٤) مابين الحاصرتين عن س .

أخذوا البلاد ، وإن ترددهم إليها فى كل وقت لا يفيد ، وإن شاور يلعب بنا [١] تارة وبالفرنج أخرى ، وإنهم إن قتلوه واستولوا على البلاد حفظوها من عدو الدين ، وقيل إن صلاح الدين وعز الدين جرديك اتفقا على ذلك ، وشاورا أسد الدين فى ذلك ، فنهاهما عنه ؛ وقيل إن أسد الدين سيّر الفقيه ضياء الدين عيسى [٢] إلى شاور يشير عليه بالاحتراس [٣] ، وقال : « أخشى عليك ممن عندى من الناس » ؛ فركب شاور منبسطاً على عادته واسترساله ، وكان يركب على قاعدة الوزراء بالطبل والبوق والعلم ، وكان أسد الدين قد توجه لزيارة قبر الشافعى — رحمة الله عليه [٤] — بالقرافة [٥] ، فقصد شاور مخيّم أسد الدين ليجتمع به على العادة ، فصادفه صلاح الدين يوسف ابن أيوب والأمير عز الدين جُرْديك — رحمهم الله — ومعهم جمع من العسكر ، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين فى الزيارة ، فقال : « نمضى إليه » ، فسار — وهما

---

(١) فى س : « بهم » .

(٢) هو الفقيه أبو محمد ضياء الدين عيسى بن محمد بن عيسى الهكارى ، كان فى مبدأ أمره يشتغل بالمدرسة الزجاجية بحلب ، ثم اتصل بالأمير أسد الدين شيركوه فعينه إماما له ، وأتى معه إلى مصر وكانت لعيسى اليد الكبرى فى إقناع أمراء الجيش النورى بمصر لتولية صلاح الدين الوزارة للعاضد بعد موت عمه أسد الدين ، وأصبح منذ ذلك الحين واحدا من كبار الأمراء الصلاحية ، وكان عيسى فقيها وجنديا مجاهداً ، يلبس زى الأجناد ويتعمم بعمامة الفقهاء ، وقد أسره الفرنج وبقى فى الأسر إلى أن افتداه صلاح الدين بمبلغ كبير من المال . وتوفى فى ذى القعدة سنة ٥٨٥ هـ . انظر : (ابن خلكان ، الوفيات ، ج ٣ ، ص ١٦٥ — ١٦٦) .

(٣) فى س (١١٦ب) : « بالاحتراز على نفسه » .

(٤) فى س : « رضى الله عنه » .

(٥) خطة من خطط الفسطاط الأولى كانت لبنى غصن بن يوسف بن وائل من المعافر ، وقرافة بطن من المعافر ، نزلوها عند الفتح فسميت بهم ، قال (ياقوت) : وهى اليوم مقبرة أهل مصر وبها أبنية جليلة ومحال واسعة وسوق قائمة ومشاهد الصالحين وترب الأكابر مثل ابن طولون والماذرائى وبها قبر الامام أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى فى مدرسة للفقهاء الشافعية . وقد أصبح هذا اللفظ علما يطلقه المصريون إلى اليوم على كل مقبرة لدفن الموتى فى أى مكان وفى أى مدينة من مدنهم .

معه — قليلا ، فأخذ صلاح الدين بتلابيبه [١] ، وأمر العسكر أن يقبضوا على أصحابه ، ففروا ، ونهبهم العسكر ، وألقى شاور عن فرسه ، ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين ، فذهبوا به إلى خيمة مفردة ، فسجنوه بها ، ووكل به من يحفظه بها ؛ وعلم أسد الدين الحال فعاد من القرافة مسرعاً ، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه ، وجاء رسول العاضد لدين الله فى الوقت ، وهو أحد الخدم [١٠١] الخواص [٢] ، ومعه [٣] توقيع يتضمن : « [أنه [٤]] لا بد من [أخذ [٤]] رأسه » ، جريا على عادتهم فى وزرائهم فى تقرير قاعدة من قوى منهم على صاحبه ؛ فضرب عنقه وحمل رأسه إلى القصر ، وذلك سابع ربيع الآخر .

ودخل أسد الدين القاهرة ، ورأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خاف منه على نفسه ، فقال لهم : « إن أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور » ، فقصدوها الناس فنهبوها ، وتفرقوا عنه .

ذكر استيلاء أسد الدين شيركوه على الديار المصرية وتقلده وزارة العاضد

ثم خلع العاضد على أسد الدين خلع الوزارة ، فلبسها ، وسار ، ودخل القصر ، وفوضت إليه الوزارة والتقدم على الجيوش ، ولقّب الملك المنصور أمير الجيوش ؛

---

(١) كتب فى هامش الأصل معنى هذه العبارة باللغة اللاتينية هكذا (Vestis quae circa Jugutu)

(٢) إلى هنا تنتهى (ص ١١٦ ب) من نسخة س ، وبعدها يسود الاضطراب فى ترتيب الصفحات .

(٣) بهذا اللفظ تبدأ (ص ١٢٩ ا) من نسخة س .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة من س .

وقصد دار الوزارة [١] فنزلها ، واستقر فى الأمر ، ولم يبق له منازع ولا مناوئ وكُتب له منشور بالإنشاء الفاضلى أوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله ووليّه [عبد الله [٢]] أبى محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولى الأئمة ، مجير الأمة ، أسد الدين ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، أبى الحرث شيركوه — العاضدى — عضّد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته ، وأعلى كلمته : سلام عليك ، فإنه يحمد [٣] إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله [٣] أن يصلى على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين [صلى الله عليه [٢]] وعلى آله الطاهرين ، والأئمة المهديين ، وسلّم تسليما [كثيرا [٢]] » .

ثم مضمون بقية [٤] المنشور تفويض أمور الخلافة إليه ، والقيام بأعباء حفظها ، والذبّ عنها ، والتوصية بتقوى الله تعالى ، والعمل بفرائضه ، والانتهاء عن مناهيه ، وإلى غير ذلك من الوصايا ، أعرضنا عن ذكرها لطولها .

---

(١) ذكر المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٠١ — ٣٠٤) أن هذه الدار أنشأها الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى ، ولهذا كان يقال لها أيضاً الدار الأفضلية ، وكانت تقوم بجوار القصر الكبير الشرقى تجاه رحبة باب العيد ، وما زال وزراء الفاطميين أرباب السيوف من عهد الأفضل يسكنون بدار الوزارة إلى أن زالت الدولة فاستقر بها الملك الناصر صلاح الدين ثم من تلاه من ملوك الأيوبيين وصاروا يسمونها الدار السلطانية ، وأول من انتقل عنها وسكن بالقلعة الملك الكامل محمد ، وجعلت منذ ذلك الحين منزلا لضيافة الرسل .

(٢) مابين الحاصرتين زيادة عن : (صبح الأعشى ج ١٠ ، ص ٨٠) .

(٣) فى س (١٢٩ ا) : « فانى أحمد » ، « نسأله » .

(٤) ورد نص هذا المنشور كاملا فى : (صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٨٠ — ٩٠) فراجعه هناك ، وانظر أيضاً نفس المرجع ، ص ٦ ؛ (ابن الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ١٨ ا — ١١٠) .

وكتب العاضد فى هذا (١) المنشور بخطه :

« هذا عهد لم يُعهد لوزير مثله ، فتقلَّد أمانةً رآك أميرُ المؤمنين أهلا لحملها (٢) ، والحجة عليك . عند الله ، بما (٣) أوضحه لك من مراشد سبله (٤) ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزَّتْ خدمتُك إلى بنوّة النبوّة ، واتخذه (٥) للفوز سبيلا ، ولا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا [١٠٢] وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا (٦) » .

ولما انتظمت الأمور لأسد الدين بالديار المصرية أقطع البلاد للعساكر التى (٧) قدمت معه ، وصلاح الدين — رحمه الله — ابن أخيه ، مباشرٌ الأمور مقررٌ لها ، وبيده زمام الأمر والنهى .

ومدح الشعراء أسد الدين ، فممن مدحه عماد الدين أبو حامد محمد بن محمد (٨) الأصفهانى الكاتب من قصيدة سيَّرها إليه من الشام ، وهو فى خدمة نور الدين — رحمه الله — :

بالجدِّ أدركتَ ما أدركتَ لا اللعبِ ... كم راحةٍ جُنيت من دوحة التعبِ

(١) فى س : « فى طرة » وقد ورد نص هذا التوقيع فى : (صبح الأعشى ج ٩ ، ص ٤٠٦ — ٤٠٧)

(٢) النص فى : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٤٠٦) هو : « وتقليد أمانة رآك الله تعالى وأمير المؤمنين أهلا لحمله » .

(٣) فى الاصل : « وبما » والتصحيح عن : (س) و (صبح الأعشى) .

(٤) فى س : « سبيله » .

(٥) فى : (صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٤٠٧) « واتخذ أمير المؤمنين » .

(٦) السورة ١٦ (النحل) ، الآية ٩١ (ك) .

(٧) فى الأصل : « الذى » .

(٨) انظر ترجمته فى : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ، ص ٢٣٣ — ٢٣٨) و (الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج ١ ، ص ١٣٢ — ١٤٠) و (النعيمى : الدراس فى تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٤٠٨ — ٤١٢) و (مقدمة خريدة القصر للعماد ، الجزء الأول من القسم الأول — شعراء مصر — نشر أحمد أمين وشوقى ضيف وإحسان عباس) .

يا شيركوه بن شاذى الملكُ دعوةُ من ... نادى فعرّف خيرَ ابنٍ بخيرِ أبِ
جرى الملوكُ ، وما جازوا بركضهمُ ... من المدى فى العُلى ما حُزتَ بالخَبَبِ
تَملَّ من مُلكِ مصرَ رتبةً قصرتْ ... عنها الملوك فطالتْ سائرَ الرُّتَبِ
فتحتَ مصرَ ، وأرجو أن تصيرَ بها ... مُيَسِّرًا فَتْحَ بيتِ القُدْسِ عن كَثَبِ
قد أمكنتْ أسدَ الدين الفريسةُ من ... فتحِ البلاد ، فبادرْ نحوها وَثِبِ
أنت الذى هو فردٌ من بسالته ، ... والدينُ من عزمِهِ فى جحفلٍ لَجِبِ
فى حلْقِ ذى الشركِ من عدوى سُطاكَ شَجًا ، ... والقلبُ فى شَجَنٍ ، والنفسُ فى شَجَبِ
زارت بنى الأصفر البيضُ التى لقيتْ ... حُمْرَ المنايا بها مرفوعةَ الحُجُبِ
وإنها نَقَدٌ(١) من خلفها أسَدٌ ... أرى سلامتَها من أعجبِ العَجَبِ(٢)
لقد رَفعْنا إلى الرحمن أيدينا ... فى شكرِنا ما به الإسلام عَنْكَ(٣) حُبِى
يشكو(٤) إليك بنو الإسلامِ يُتْمَهُمُ ... فقُمْتَ فيهم مقامَ الوالدِ الحَدِبِ
فى كل دارٍ من الإفرنج نادبةٌ ... بما دهاهم ، فقد باتوا على نَدَبِ
من شرِّ شاور أنقذتَ العبادَ ، فكم ... وكم قضيتَ لحزبِ الله من أرَبِ
هو الذى أطمعَ الأفرنج فى بلد الـ ... إسلامِ حتى سعَوْا للقصدِ والطَّلَبِ
وإنَّ ذلك عند الله محتسبٌ ... فى الحشرِ من أفضلِ الطاعاتِ والقُرَبِ
[١٠٣] أذلَّه الملكُ المنصورُ منتصراً ، ... لما دعا الشركُ : هذا قد تَعزَّزَ بِى
وما غضبتَ لدينِ الله منتقماً ... إلا لِنيْلِ رضا الرحمن بالغَضَبِ
وأنتَ من وقعت فى الكفرِ هيبتُه ... وفى ذويه وقوعَ النار فى الحَطَبِ
وحين سرتَ إلى الكفار فانهزموا ... نُصرتَ نَصْرَ رسول الله بالرعبِ

---

(١) النَّقَد جنس من الغنم قصار الأرجل قباح الوجوه تكون بالبحرين ، وقيل هى غنم صغار حجازية . (اللسان) .

(٢) بهذا اللفظ تنتهى (ص ٢٩ ب) من نسخة س ، ثم يضطرب بعد ذلك ترتيب الصفحات فى تلك النسخة وبالتالى تنقطع الصلة بين النص هناك وبين المتن هنا (نسخة ك) .

(٣) فى (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٩) : « منك » .

(٤) نص الروضتين : « شكا » .

يا محيي الأمة الهادي بدعوتِهِ   للرُّشْدِ كل غوى منهم وَغبي
لما سعيْتَ لوجه الله مُرْتقباً   ثَوَابَهُ ، نلتَ عفوا كُلَّ مُرْتقبِ
أعدت نقمة مصر نعمة ، فغدتْ   تقول لكم نكث(١) لله فى النوب
أركبتَ رأسَ سنان رأسَ ظالمها   عدلا ، وكنتَ لوِزْرٍ غيْرَ مُرْتكِبِ
رُدَّ الخلافةَ عباسيةً ، وَدَعِ الـ   ـمُدَّعِيَّ فيها يصادِفْ شَرَّ مُنْقَلَبِ
لا تقْطَعَنْ ذَنَبَ الأفْعَى وَتُرْسِلها ،   فالحزمُ عندى: قَطْعُ الرأسِ والذَّنَبِ .

وفى قتل شاور وتولى أسد الدين الوزارة يقول عرقلة الدمشقى الشاعر ويمدح صلاح الدين يوسف بن أيوب وأخاه الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب من قصيدة :

لقد فاز بالمُلْكِ العَقِيمِ خليفةٌ   له شيركوه العاضدىُّ وزيرُ
كأنَّ ابن شاذى والصلاح وسيفه   علىٌّ ، لديه شَبَّرٌ وشبيرُ(٢)
هو الأسدُ الضارى الذى جلَّ خَطْبُهُ ،   وشاورُ كَلْبٌ للرجال عَقورُ
بغى وطغى ، حتى لقد قال صَحْبُهُ(٣)   على مِثْلِها كان اللعينُ يَدُورُ
فلا رَحِمَ الرحمنُ تربةَ قَبْرِهِ   ولا زال فيها مُنْكَرٌ ونَكِيرُ

ذكر وفاة أسد الدين شيركوه بن شاذى — رحمه الله —

ذكر القاضى بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — فى تاريخه أن أسد الدين كان كثير الأكل شديد المواظبة على اللحوم الغليظة ، تتواتر عليه التخم والخوانيق ، وينجو منها بعد معاناة شديدة عظيمة ، فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق(٤) عظيم

(١) كذا فى الأصل ، ولعلها : كم مِنن .
(٢) شَبَّرٌ وشَبِيرٌ اسمان للحسن والحسين ولدى على بن أبى طالب ، فقد جاء فى (اللسان) : شبر وشبير ومُشَبِّر م أولاد هارون على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، ومعناها بالعربية : حسن وحسين ومحسن ، وبها سمى على أولاده شبر وشبيرا ومشبرا يعنى حسنا وحسينا ومحسنا .
(٣) النص فى (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٧) : « قائل » .
(٤) الخناق أن يحدث فى المبلع ضيق ، يقال له خوانيق ، وهو مخنوق . (الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ٩٧) .

فقتله ؛ وقيل بل توفى فجأة ، وكانت وفاته يوم السبت [١٠٤] لثمان بقين من جمادى الآخرة من هذه السنة — سنة أربع وستين وخمسمائة — فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام .

ذكر استيلاء صلاح الدين يوسف بن أيوب – رحمه الله – على الديار المصرية ، وتقلده وزارة العاضد .

ذكر القاضى بهاء الدين أن الوصية كانت إليه من عمه أسد الدين ، وأنه لما فُوض إليه الأمر تاب عن شرب الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمّص لباس الجد والاجتهاد ، وما عاد وما زاد إلا جداً إلى أن توفاه الله إلى رحمته .

قال : « ولقد سمعته — رحمه الله — يقول : لما يسّر الله تعالى الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل ، لأنه أوقع ذلك فى نفسى » .

وذكر عن بهاء الدين أنه لما توفى أسد الدين كان بمصر جماعة من أكابر الأمراء النورية ، منهم : عين الدولة الياروقى (١) ، وقطب الدين خسرو بن التليل ، — وهو ابن أخى ابن أبى الهيجا الهَذَبانى صاحب إربل وقد ذكرناه — وسيف الدين على بن أحمد المشطوب ، — وكان جده صاحب قلاع الهكاريّة — وشهاب الدين الحارمى — خال صلاح الدين — ، وكل منهم تطاول إلى الأمر ورام التقدم ، فأرسل العاضد من القصر يستدعى صلاح الدين ليخلع عليه ويوليه الوزارة ، وكان الذى حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين ، وعلم أنه إذا ولى وليس له عسكر ولا رجال كان تحت يده وحكمه ، ولا يجسر على المخالفة ؛ وأنه يضع على العسكر الشامى من يستميلهم إليه ، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين ، وتعود البلاد

---

(١) لعل النسبة هنا إلى « الياروقية » وهى محلة بظاهر حلب . أنظر : (الروضتين ج ١ ، ص ١٨٠) .

إليه ، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين ، فامتنع صلاح الدين ، وضعفت نفسه عن هذا المقام ، فأُلزم به ، وأُحضر إلى القصر ، وخُلعت عليه خلع (١) الوزارة ، ولُقِّب الملك الناصر ، وعاد إلى دار الوزارة ، وهي الدار التي كان بها عمه ، فلم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء ولا خدموه ؛ فقام بأمره الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى ، وما زال بسيف الدين على بن أحمد المشطوب حتى أماله إليه ، وقال : « إن هذا الأمر لا يصل إليك مع (٢) وجود عين الدولة وشهاب الدين الحارمى وابن تليل » ، ثم قصد به شهاب الدين وقال : « إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك ، وملكه لك ، وقد استقام الأمر له ، فلا تكن أول من يسعى [١٠٥] فى إخراجه عنه ، فلا يصل إليك » ؛ ولم يزل به حتى استحلفه له .

واجتمع بعد ذلك بقطب الدين وقال له : « إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغير الياروقى ، وعلى كل حال فالجامع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد ، فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك » ؛ ووعده زيادة فى إقطاعه ، فأجاب وحلف .

---

(١) ورد فى (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٣) وصف كامل لهذه الخلع التى خلعت على صلاح الدين عند توليته الوزارة ، وقد آثرنا نقله هنا لأهميته : « وكانت خلعة الوزارة : عمامة بيضاء تنيسى بطرز ذهب ، وثوب دبيقى بطرازى ذهب ، وجبة تحتها سقلاطون بطرازى ذهب ، وطيلسان دبيقى بطراز دقيق ذهب ، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار ، وسيف محلى بجوهر قيمته خمسة آلاف دينار ، وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية أسبق منها ، وطوق ، وتخت ، وسرفسار ذهب مجوهر ، وفى رقبة الحجر مشدة بيضاء ، وفى رأسها مائتا حبة جوهر ، وفى أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر ، وقصبة ذهب فى رأسها طالعة مجوهرة ، وفى رأسها مشدة بيضاء بأعلام ذهب ، ومع الخلعة عدة بقج ، وعدة من الخيل ، وأشياء أخر » .

(٢) فى الأصل : « إلا مع » وقد حذفت « إلا » ليستقيم المعنى . راجع : (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٧) .

ثم اجتمع بالياروقى — وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا — ، فلم ينفع فيه رقاه ولا نفث فيه سحره ، وقال : « أنا لا أخدم يوسف أبدا » . وعاد إلى نور الدين ومعه غيره ، فأنكر عليهم فراقه له .

وذكر عماد الدين الكاتب فى كتابه المعروف بالبرق الشامى : « أن أسد الدين لما توفى ومضت له التعزية اختلفت آراء الأمراء واختلطت آراؤهم ، ثم اجتمعت كلمتهم على عقد الأمر لصلاح الدين ، وألزموا العاضد — صاحب القصر — بتوليته ، فولاه وزارته ، وكتب له منشور(١) بالإنشاء الفاضلى ، من جملته :

« فأنت راضعُ درِّه وناشئةُ حجْرِهِ ، وظهور الخيل مواطنُك ، وظلال الخيام مساكنُك ، وفى ظُلُمات قساطله (٢) تجلى محاسنُك . وفى أعقاب نوازلة تُتلى مناقبك(٣) ، فشمِّر له عن ساق من القَنَا ، وخُضْ فيه بحوافر (٤) الظُّبا ، واحلُلْ فى عقد كلمة الله وثيقات الحِبى(٥) ، وأسِلِ الوِهَادَ بدم العدا ، وارفع برءوسهم الرُّبا ، حتى يأتى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخوراً لأيامك ، ومشهوداً لك يوم مقامك » .

وكتب العاضد لدين الله فى طرته (٦) بخطه :

« هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وحُجّتُه عند الله سبحانه عليك ، فأوفِ بعهدك ويمينك ، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك ، ويمن مضى بجدنا رسول الله

---

(١) هذه فقرة قصيرة من المنشور ، وقد أوردها بعينها (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٦١) أما نص المنشور كاملا فقد ورد فى : (صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٩١ — ٩٨) فراجعه هناك فهو وثيقة هامة . وورد فى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٢) أن منشور الوزارة هذا كان ملفوفاً فى ثوب من الأطلس الأبيض .

(٢) فى صبح الأعشى : « مشاكه » .

(٣) فى صبح الأعشى : « ميامنك » .

(٤) فى المرجع السابق . « بجرامن » .

(٥) فى نفس المرجع : « واحلل فيه عقدة كلمات الله سبحانه وثيقات الحبى » .

(٦) ورد نص ما كتبه العاضد فى الطرة فى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦١ — ١٦٢) و (صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٤٠٧) .

—صلى الله عليه وسلم— [أحسن](١) أسوة، [ولمن بقى بقربنا سَلْوة] (١) «وَتِلْكَ الدَّارُ الآخرةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِين لاَيُرِيدونَ عُلُوًّا فى الأَرْضِ وَلافَسَادا، والعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»(٢).

وهذا آخر منشور كتب عنهم، وانقرض أمرهم، وانفصمت عرى دولتهم.

وفى هذا التاريخ ابتداء الدولة الأيوبية، وأخذت الدولة المصريه فى الوهن والضعف والانحطاط إلى أن انقرضت بالكلية بعد سنتين على ما سنذكره — إن شاء الله تعالى —

ورثى عماد الدين الكاتب أسد الدين — رحمه الله — بقصيدة عزى بها أخاه نجم الدين [١٠٦] أيوب وولده الأمير ناصر الدين محمد بن شيركوه، وهنأهما بملك الملك الناصر صلاح الدين الديار المصرية :

ما بعد يَوْمِكَ للمعنى المُدْنَف غيرُ العويلِ وحسرةِ المُتَأَسِّفِ
ما أجرأ الحدثان! كيف عدا(٣) على الأ سد الخوف سطا، ولم يتوقَّفِ
مَنْ ثابتٌ دون الكُماةِ سواه؟ إن زَلَّتْ بهم أقدامُهم فى المَوْقِفِ
مَن ذا رأى الأسَدَ المصورَ فريسةً أم أبصرَ الصبحَ المنيرَ وقد خَفى؟
ما كان أسنى البدر لو لم يستتر! ما كان أبهى الشمس لو لم تُكسَفِ!
أيامُ عمرك لم تَزَلْ مقسومةً لله : بين تَعَبُّدٍ وتَعَرُّفِ
متهجداً لعبادةٍ، أو تالياً من آيةٍ، أو ناظراً فى المُصْحَفِ
فُجِعَ الندا والبأسُ منك بحاتمٍ وبحيدرٍ، والعلمُ منك بأحْنَفِ
بالملك فُزتَ، وَحُزْتَهُ عن قُدرَةٍ، ومضيتَ عنه بسيرةِ المُتَعَفِّفِ
ووُصفتَ ياأسداً لدين محمد مدحاً بما مَلِكٌ به لم يُوصَفِ

(١) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة المرجعين السابقين.
(٢) السورة ٢٨ (القصص)، الآية ٨٣ ك.
(٣) فى : (الروضتين، ج ١، ص ١٦٢) «سطا».

وَقَفَوْتَ آثارَ الشريعةِ كُلِّها ، وقد اهتدى من للشريعةِ يقتفى
أأنِفْتَ من دنياك حين عَرَفْتَها ؟ فَلَوَيْتَ وجهَ العارف المستنكف (١)
يا ناصرَ الدين استمد بتَصَبُّرٍ مُدْنٍ إلى مرضاةِ رَبٍّ مزلف
وتَعَزَّ نجمَ الدين عنه مُهَنَّأً أبد الزمان بملكِ مصرَ ، ويوسفِ
لا نستطيعُ سوى الدعاء ؛ فكلنا — إلا بما فى الوُسْعِ — غيرُ مُكَلَّفِ

ولما ملك الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب — رحمهما الله — مصر كتب إلى بعض أصدقائه وأودائه بالشام كتابا أوله :

« أيها الغائبون عنى وإن كنـ ـتم لقلبى بذكركم جيرانا
إننى مذ فقدتكم لأراكم بعيون الضمير عندى عيانا »

فأجابه ، والشعر والترسل لعماد الدين الأصفهانى :

[١٠٧] « أيها الظاعنون عنا (٢) وقلبى معهم (٣) ما يفارق الأشجانا (٤)
ملكوا مصرَ مثلَ قلبى ، وفى هـ ـذا ، وفى تلك (٥) أصبحوا سُكَّانا
فاعدلوا فيهما ، فإنكم اليو م ملكتم عليهما سُلْطَانا
لا تروعوا بالهجر قلبَ محبٍ أورثتْهُ أوصابه (٦) الخفقانا
حبذا معهدٌ قضينا به العيـ ـش ، وكنا بِرَبْعِهِ جيرانا (٧)

---

(١) فى الروضتين : « التنكف » .
(٢) فى الروضتين : « عنى » .
(٣) فى الروضتين : « لا » .
(٤) فى الروضتين « الاظعانا » .
(٥) فى الروضتين « وهاتيك » .
(٦) فى الروضتين : « روعاته » .
(٧) هذه المقطوعة ينقصها بيتان يليان هذا البيت الأخير ، أوردهما صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ١٦٢) وهما :

إذ وجدنا من الحوادث أمنا وأخذنا من الخطوب أمانا
ورتعنا من التى فى رياض وسكنا من المنائى جنانا

وبعد : فإن وفود الهناء ، وأمداد الدعاء ، متواصلة على الولاء ، صادرة عن محض الولاء ، إلى عالى جنابه المأنوس ، ومنيع كنفه المحروس ، فليهنه الظفران بالملك وبالعدو ، وفرع هضاب المجد والعلو ، وكيف لا يكون النصر مساوقاً لدين هو صلاحه ، والتأييد موافقا لعزم هو (١) نجاحه وفلاحه .

فالشامُ يَغبِطُ مصرًا مُذ حَلَلتَ بها كما الفراتُ عليكم يحسدُ النيلا
نِلتُم من المُلكِ عفوًا ما الملوكُ به عُنُوا قديما وراموه فما نِيلا »

وثبتت قدم الملك الناصر صلاح الدين فى الملك ورسخ ملكه ، والخطبة مع ذلك على المنابر بالديار المصرية للخليفة العاضد ، وبعده للملك العادل نور الدين ؛ فالملك فى الظاهر له ، ولا يتصرف صلاح الدين إلا عن أمره ، والمكاتبة ترد عليه من نور الدين : «بالأمير الاسفهسلار(٢)» ، ويكتب نور الدين اسمه قبل علامته(٣) تعظيما لنفسه ، ولا يُفرده بالمكاتبة ، بل يكتب إليه : « الأمير الاسفهسلار صلاح الدين ، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا » .

---

(١) الأصل : « موافقا به نجاحه » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٢) انظر ما فات هنا ص ٢ ، هامش ١ .

(٣) العلامة مصطلح خاص يكتبه الخليفة أو السلطان بيده على الرسائل أو الأوامر أو السجلات الصادرة عنه ، ولا تصدر هذه الوثائق على اختلافها إلا بعد كتابة هذه العلامة ، وكان كل خليفة أو سلطان أو ملك يتخذ لنفسه مصطلحاً خاصاً ليكون علامته ، وقد يكون توقيعا باسمه أو آية قرآنية أو قولا مأثوراً إلخ . . وهذه العلامة هى التى تطورت فى أواخر العصر المملوكى وفى العصر العثمانى فأصبحت تعرف « بالطغراء » . أنظر : (المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٦٧ — ٣٦٨) حيث يشير إلى « الطغرا » و « العلامة » بقوله : « وكان فى الدولة السلجوقية يسمى ديوان الانشاء بديوان الطغرا ، وإليه ينسب مؤيد الدين الطغرائى . والطغرا هى طرة المكتوب ، فيكتب أعلى من البسملة بقلم غليظ ألقاب الملك ، وكانت تقوم عندهم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب ويستغنى بها عن علامة السلطان ، وهى لفظة فارسية » .
أنظر أيضا : (C. Cahen : *la Tughrâ Seljukide. Journal Asiatique, 1945* ; *La Correspondance de Ḍiyā ad- Din Ibn al-Athir. B. S. O. S. V. XIV. Part 1.*)
و (المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٤ ، هامش ١) .

ثم شرع صلاح الدين فى استمالة قلوب الناس إليه ، ويبذل من الأموال ما كان أسد الدين جمعه ، وطلب من العاضد شيئاً يخرجه ، فلم يمكنه منعه ، فمال الناس إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه ، وضعف أمر العاضد .

ثم بلغ نور الدين أن الفرنج قد اجتمعت لتسير إلى مصر ، فأمد نورُ الدين صلاح(١) الدين بعسكر فيهم الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب — وهو أكبر من صلاح الدين — وقال له نور الدين لما أراد أن يسيره إلى أخيه : « إن كنت تسير إلى مصر [١٠٨] وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذى كان يقوم فى خدمتك وأنت قاعد ، فلا تسر ، فإنك تفسد البلاد ، وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامى ، وتخدمه بنفسك كما تخدمنى ، فسر إليه ، واشدد أزره ، وساعده على ما هو بصدده » ؛ فقال : « أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يصل إليك إن شاء الله تعالى » ، فكان كما قال .

ذكر وقعة السودان بالقاهرة

وكان بالقاهرة خَصِىٌّ يقال له مؤتمن الخلافة(٢) ، وكان متحكما فى القصر ، ولما ثقلت وطأة الملك الناصر على أهل القصر ، وعلموا أن دولتهم زائلة بسببه ، أحبوا الراحة منه ، فأجمعوا على مكاتبة الفرنج ليصلوا إلى البلاد ، فإذا خرج صلاح الدين إلى لقائهم قبضوا على من بقى من أصحابه بالقاهرة ، واجتمعوا هم والفرنج

(١) فى الأصل : « لصلاح » .
(٢) اسمه الكامل : « مؤتمن الخلافة جوهر » وكان أحد الأستاذين المحنكين بالقصر . انظر : (المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٢) .

على حربه وحرب أصحابه واستئصالهم ، ويكون بعد ذلك البلاد بينهم وبين الفرنج يقتسمونها ، فسيَّر مؤتمن الخلافة رجلا وحمَّله [١] كتابا إلى الفرنج ، فخرز عليه نعله ، وظنوا أن ذلك يخفى عن صلاح الدين والمسلمين [٢] ، « وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ [٣] » .

فاتفق أن ذلك القاصد لما عبر بالبئر البيضاء [٤] رآه رجل تركمانى وعلى القاصد خلقان ، وفى يده النعلان اللذان [٥] أخفيت فيهما المكاتبة ، وليس فيهما أثر شىء ، فأنكرهما التركمانى ، فأخذهما ، وأحضرهما إلى صلاح الدين ، ففتقهما فوجد مكاتبة الفرنج فيهما من أهل القصر ، فأخذ صلاح الدين الكتاب ، وقال : « دلونى على كاتب هذا الخط » ، فدلوه على رجل يهودى ، فلما أحضروه ليسألوه ويعاقبوه ويقابلوه ، نطق بالشهادتين واعتصم بهما ، واعترف أنه كاتب الكتاب عن أهل القصر ، فأخفى صلاح الدين الحال ، واستشعر مؤتمن الخلافة ، وخاف على نفسه ، ولازم القصر لا يخرج منه ، فإذا خرج لم يُبعد ، وصلاح الدين مُعرِضٌ عن ذكره البتة ، مغضٍ عنه ، لا يأمر فيه ببسط ولا قبض ، فاسترسل حينئذ وظن أنه لا يقدم عليه ؛ وكان له قصر

---

(١) فى الأصل : «وأصحابه» ولا يستقيم المعنى بها ، وقد صححت بعد مراجعة : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٢٩) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٨) .

(٢) بين كلمة « المسلمين » والآية القرآنية لفظ « دبابا » ولا معنى لها لحذفت .

(٣) السورة ٩ (التوبة) ، الآية ٣٢ (م) .

(٤) ذكر (المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢) أنها قريبة من بلبيس ، هذا ويستفاد مما ورد فى (صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٧٦) عند الكلام عن مراكز البريد وعن الطريق بين القاهرة وغزة أن هذه البئر كانت واقعة بين بلدتى الخانكاة وبلبيس ، وقد حقق المرحوم محمد رمزى بك موقعها ، قال فى : (النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٤٤ ، هامش ٢) : « وبالبحث عن موقعها تبين لى أن مكانها اليوم عزبة أبى حبيب الواقعة فى حوض البيضاء بأراضى ناحية الزوامل بمركز بلبيس ، ولا يزال اسم البيضاء والمنسوب إليه هذه البئر يطلق على الحوض المذكور » .

(٥) فى الأصل : « اللذين » .

بقرية على شاطىء النيل بقرب قليوب تعرف [١٠٩] بالخَرْقانيّة [١] ، ذات متنزه وبساتين ، فخرج إليها للتنزه ، فلما علم صلاح الدين أرسل إليه جماعة من أصحابه فاغتالوه من مأمنه ، وقتلوه وأتوا برأسه ، وذلك يوم الأربعاء لخمس بقين من ذى القعدة من هذه السنة — أعنى سنة أربع وستين وخمسمائة — .

فلما قُتل غار السودان[٢] عبيد القصر وثاروا ، وكانوا يزيدون على خمسين ألفا ، وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه ؛ فلما ثاروا أنهض[٣] إليهم الملك الناصر صلاح الدين أبا الهيجاء السمين ، ووقعت الحرب بين الفريقين — بين القصرين بالقاهرة — واشتد القتال بين الفريقين ، واستمر ذلك يومين ، وصاروا كلما لجأوا إلى محلة أحرقت عليهم ، وكانت لهم محلة عظيمة على باب زويلة ، تعرف بالمنصورة ، [٤] ، فأرسل صلاح الدين إليها من أوقع الحريق فيها على أموالهم وأولادهم وحريمهم ، فلما أتاهم الخبر بذلك ولوا منهزمين ، وركبتهم السيوف ، وأخذت عليهم

---

(١) ذكر (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٠ ، ص ٩٧) أنها قرية صغيرة من مديرية القليوبية من قسم قليوب واقعة على الشط الشرقى للنيل فى الشمال الغربى لقرية أبى الغيط بنحو نصف ساعة ، ومنها إلى القناطر الخيرية نحو ثلثى ساعة ، وأبنيتها ريفية وبها جامع بمنارة ؛ وذكر أنها كانت تسمى فى العصر الفاطمى « الخاقانية » .

(٢) أشار (المقريزى فى الخطط ، ج ٣ ، ص ٣) إلى بعض الفرق السودانية التى شاركت فى هذه الوقعة ، وهى : « الطائفة الريحانية ، والطائفة الجيوشية ، والطائفة الفرحية ، وغيرهم من الطوائف السودانية ، ومن انضم إليهم بين القصرين » .

(٣) فى الأصل « نهض » ولا يستقيم بها المعنى . وقد صححت بعد مراجعة : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٨) ، فالنص هناك نقلا عن العماد : « فثار أصحاب صلاح الدين إلى الهيجا ، ومقدمهم الأمير أبو الهيجا » .

(٤) ذكر هذه المحلة (المقريزى فى الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٩) باسم « الحارة المنصورية » ، قال : « هذه الحارة كانت كبيرة متسعة جداً ، فيها عدة مساكن للسودان ، فلما كانت واقعتهم فى ذى القعدة سنة ٥٦٤ هـ ، من صلاح الدين يوسف بن أيوب بتخريب المنصورة هذه وتعفية أثرها ، فخربها خطلبا بن موسى الملقب صارم الدين ، وعملها بستانا » . ثم حدد مكانها فى (ص ٣٠) قال : « وكان موضع المنصورة على يمنة من سلك فى الشارع خارج باب زويلة ، وهى إلى جانب الباب الحديد الذى يعرف اليوم بالقوس عند رأس المنجبية فيما بينها وبين الهلالية » .

أفواه السكك ، فطلبوا الأمان بعد أن كثر فيهم القتل ، فأجيبوا إلى ذلك ؛ وذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة ، فمضوا إلى الجيزة ، فعبر إليهم الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب — أخو السلطان — فى طائفة من العسكر فأبادهم بالسيف ، فلم يبق منهم إلا الشريد ، وضعف أمر العاضد بالكلية وتلاشى أمره ؛ وأمر صلاح الدين بتخريب محلة السودان ، وأعفى أثرها ، فخربها بعض الأمراء واتخذها بستانا ؛ وأصبح أمر السودان كأن لم يكن قط (١) ؛ فنى ذلك يقول عماد الدين الكاتب يمدح صلاح الدين ، وسيرها إليه من الشام :

بالملكِ الناصرِ استنارتْ ـــ فى عصرنا ـــ أوجهُ الفضائل
علىَّ من حقه فروضٌ شُكْرًا لما جاد من نَوَافِل
يوسفُ مصرَ الذى إليه تَشُدُّ آمالُنا الرواحل
أجريتَ نيلينِ فى ثراها : نيل نجيع ، ونيل نائل
وما نفيتَ السودانَ حتى حكَّمتَ البيضَ فى المقاتل
[١١٦] صيَّرتَ رَحْبَ الفضاءِ ضَيِّقاً عليهم كفه بحائل (٢)
وكلٌّ رأى منهم كراء وأرضُ مصر كلام واصل
وقد خلَتْ منهمُ المغانى وأقفرتْ منهمُ المنازل

(١) أورد المقريزى فى كتابه (الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٩) نصا هاما يشير إلى مكانة السودانيين فى الجيش الفاطمى ومبلغ ما كان لهم من نفوذ ، وكيف تتبعهم صلاح الدين فى الصعيد بعد هذه الوقعة إلى أن قضى على نفوذهم نهائيا ، قال : « وكان للسودان بديار مصر شوكة وقوة ، فتتبعهم صلاح الدين ببلاد الصعيد حتى أتنام بعد أن كان لهم بديار مصر فى كل قرية ومحلة وضيعة مكان مفرد لا يدخله وال ولا غيره ، احتراما لهم ، وقد كانوا يزيدون على خمسين ألفا ، وإذا ثاروا على وزير قتلوه ، وكان الضرر بهم عظيما لامتداد أيديهم إلى أموال الناس وأهاليهم ، فلما كثر بغيهم وزاد تعديهم أهلكهم الله بذنوبهم . . الخ » .

(٢) الأصل : « كفة لحابل » ، وما هنا عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٨) ، وقد وردت هذه القصيدة أيضا فى : (المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٩ — ٣٠) ، وهى هناك أكثر أبياتا فانظرها

وما أصيبوا إلا بِطَلٍّ فكيف لو أمطروا بوابل !
والسودُ بالبيض قد أبيحوا [١] فهى بِوَادِيهم نَوَازِل
مؤتمنُ القومِ خان حتى غالَتْهُ من شَرِّه غوائل
عاملكم بالخنا فأضحى ورأْسه فوق رأس عامل
يامخجلَ البحر بالأيادى قد آن أنْ تفتحَ السواحل
فتقتَس القدسَ من خباث أرجاس كفر غُتْم أراذل

وذكر عماد الدين أنه وصل فى هذه المدة كتاب من الملك الناصر صلاح الدين إلى بعض أصحابه بدمشق ، وضمنه هذا البيت :

وانثر دُرَّ الدمع من قبل أبيضا وقد حال مذ غبتم فأصبح ياقوتا

فنظمتُ فى الجواب أبياتا منها :

هنيئاً لمصر كون يوسف ملكها بأمرٍ من الرحمن قد كان مَوْقوتا
وما كان فيها قتل يوسف شاورا يماثل إلا قتل داود جالوتا
وقلتُ لقلبى أبْشر اليومَ بالمنى فقد نلتَ ما أمّلتَ ، بل حزتَ ما شِيتا

ولما وقعت هذه الواقعة تلاشى أمر العاضد خليفة مصر ، إلا أن الخطبة باقية له ، وبعده لنور الدين ، فحكى لى الأمير حسام [٢] الدين بن أبى على قال :

« كان جدى فى خدمة الملك الناصر صلاح الدين ، فحكى أنه لما وقعت هذه الواقعة شرع صلاح الدين كل يوم يطلب من العاضد شيئاً من الخيل والرقيق

(١) الأصل : « ألجوا » وما هنا عن الروضتين ، وفى الخطط : « تنحوا » .
(٢) كان الأمير حسام الدين بن أبى على قائدا من كبار قواد الدولة فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ونائب السلطنة فى عهده ، كما كان صديقاً حميما للمؤلف ابن واصل ، وسينقل عنه فيما يلى الكثير من أخبار الدولة وأسرارها وخاصة فى عهد الصالح نجم الدين ، وهذا أول حديث ينقله عنه ، وهو من الأخبار التى ينفرد ابن واصل بإيرادها ، وقد نقله عنه (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٢٩) .

والأموال ، ليقوى بذلك ضعفه ، قال : فسيَّرنى يوما إليه أطلب منه فرساً ، ولم يبق عنده إلا فرس واحد ، فأتيت [١١١] إليه وهو راكب فى بستانه المعروف بالكافورى[١] ، الذى يلى القصر الغربى[٢] ، فقلت : صلاح الدين يسلم عليك ، ويطلب منك فرسا ، فقال : ما عندى إلا الفرس الذى أنا راكبه ؛ ونزل عنه ، وشقَّ خفَّيه ، ورمى بهما ، وسلم إلىَّ الفرس ، فأتيت به صلاح الدين ؛ ولزم العاضد بيته ، ولم يعد لركوب حتى كان منه ما كان » .

ذكر منازلة الفرنج دمياط وعودتهم عنها خائبين

ولما ملك صلاح الدين — رحمه الله — الديار المصرية ، واستقرت قدمه بها ، واستقرت بها العساكر النورية ، أيقن الفرنج بالهلاك ، وأيقنوا أن بلاد الساحل من المسلمين على شفا جرف هار ، وأنهم إن لم يتداركوا الأمر وإلا ذهبت البلاد

(١) ذكر هذا البستان (المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٩) عند كلامه عن « خط الكافورى » ، قال : « هذا الخط كان بستانا من قبل بناء القاهرة وتملك الدولة الفاطمية لديار مصر ، أنشأه الأمير أبو بكر محمد بن طغج الاخشيد ، وكان بجانبه ميدان فيه الخيول وله أبواب من حديد ، فلما قدم جوهر القائد إلى مصر جعل هذا البستان من داخل القاهرة وعرف ببستان كافور ، وقيل له فى الدولة الفاطمية البستان الكافورى ، ثم اختط مساكن بعد ذلك . وقد حقق المرحوم محمد رمزى بك مكان هذا البستان فى القاهرة الحالية فى تعليقاته على كتاب النجوم الزاهرة (ج ٤ ، ص ٤٨ ، هامش ٢) فقال إنه كان بستانا كبيراً واقعاً قبل إنشاء القاهرة فى المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بشارع أمير الجيوش الجوانى ، ومن الغرب بشارع الخليج المصرى ، ومن الجنوب بشارع السكة الجديدة ، ومن الشرق بشارع الخردجية وبين القصرين والنحاسين . ولما خرب هذا البستان وبنى فى مكانه الدور والمساكن وغيرها أصبح خط الكافورى قاصرا فيما بعد على المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بشارع أمير الجيوش الجوانى ، ومن الغرب بشارع الشعرانى البرانى ، ومن الجنوب بشارع الخرنفش ، ومن الشرق بحارة برجوان .

(٢) كان موضعه حيث البيمارستان المنصورى (ومستشفى قلاوون للرمد يشغل جزءاً منه الآن) وكل المساكن التى تجاوره إلى الخليج . انظر : (النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٦٦ ، هامش ١) .

من أيديهم ، فكاتبوا افرنج صقلية [والأندلس][1] وغيرهم ، واستمدوهم واستنصروهم لدين النصرانية ، وأمدوهم بالأموال والرجال والسلاح ، واعتمدوا للنزول على دمياط ، فوصل إلى دمياط الفرنج والروم من داخل البحر ، واستصحبوا معهم المنجنيقات [2] والدبابات [3] وآلات الحصار وغير ذلك ، واشتد أمر الفرنج بالشام لما قدم فرنج

---

(١) مابين الحاصرتين عن الكامل لابن الأثير ، والروضتين . والمعروف أن أموري عندما أدرك خطورة استيلاء نور الدين على مصر أرسل يستنجد بمسيحي أوربا جميعاً . ولكنهم تقاعسوا عن نجدته لأسباب مختلفة . فلجأ إلى مانويل امبراطور الدولة البيزنطية ، فلبي دعوته ، ولهذا كانت الحملة على دمياط تتكون من جيش أموري الصليبي وأسطول بيزنطي ضخم . لمعرفة أخبار هذه الاتصالات وموقف البيزنطيين في الحملة انظر : (حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ، ص ١٣٤ — ١٤٠) .

(٢) المنجنيق — بفتح الميم وكسرها — أو المنجنوق ، او المنجميق ، والجمع : مجانيق ومناجيق ومنجنيقات ، لفظ أعجمي معرب فهو في اللاتينية (Mangonellus) ، وفي الفرنسية (Mangonneon) وفي الانجليزية (Mangonel) ، وهو آلة من آلات الحصار في العصور الوسطى ، يقوم مقام المدفع الحالي ، وإن كانت قذائفه من الحجارة ، وقد وصفه صاحب صبح الأعشى (ج ٢ ، ص ١٤٤) بأنه « آلة من خشب له دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله الأعلى أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه ، فما أصاب شيئاً إلا أهلكه . وقد ذكر (مرضى بن على بن مرضى الطرطوسي) في مخطوطته « تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء .. الخ » التي ألفها خصيصاً للسلطان صلاح الدين الأيوبي أن المنجنيقات على عهده كانت ثلاثة أنواع : « فمنها العربي وهو أيقن مصنوعاتها ، وأوثق معمولاتها ، ومنها التركي وهو أقلها كلفة وأحصرها مؤونة ، ومنها الفرنجي » ثم وصف هذه الأنواع جميعاً وصفاً دقيقاً مشفوعاً بالرسوم . وقد نشر مقتطفات من هذه المخطوطة مع ترجمة فرنسية وتعليقات قيمه الأستاذ كلود كاهن . أنظر : (Claude Cahen: *Un Traité D'Armurerie Composé pour Saladin. Extrait du Bulletin d'Études Orientales, Damas, Tome XII. 1947-1948.*) هذا ويوجد ايضاً في : (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩١ — ١٩٣) وصف ممتع للمنجنيق وطرق استعماله . انظر كذلك : (الجواليقي : المعرب ، ص ٣٠٥ — ٣٠٧) و (نعمان ثابت : الجندية في الدولة العباسية ، ص ١٩٠ — ١٩٣) و (المقريزي : اتعاظ الحنفا ، نشر الشيال ، ص ١١٩ ، هامش ٣) .

(٣) جاء في (اللسان) أن « الدبابة آلة تتخذ من جلود وخشب ، يدخل فيها الرجال ويقربونها من الحصن المحاصر لينقبوه وتقيهم ما يرمون به من فوقهم ، سميت بذلك لأنها تدفع فتدب ، وقد قرن (مرضى بن على) بينها وبين الأبراج والستائر ، ووصفها جميعاً وطرق صنعها في كتابه =

الغرب إلى دمياط ، فسرقوا حصن عكار من المسلمين ، وأسروا صاحبها ، وكان مملوكا لنور الدين يقال له خطلخ [(١)] الجمدار ، وكان وصول الفرنج إلى دمياط فى صفر سنة خمس وستين وخمسمائة .

وكان سبق إلى دمياط الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن أخى السلطان ، وكذا شهاب الدين خاله ، فدخلا دمياط ، وتابع إليهما صلاح الدين الأمداد والنجد فى البحر ، وأمدهما بالسلاح والمال والذخائر ، واتصل على دمياط حصار الفرنج وضايقوها ، وتابع صلاح الدين رسله إلى الملك العادل نور الدين — رحمه الله — يشكو إليه ما هو فيه من المخاوف ، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج ، وإن سار إليها خافه المصريون فى مخافيه ومخانى عسكره بالسوء ، وخرجوا عن طاعته ، وصار الفرنج أمامه والمصريون خلفه ، فجهز إليه نور الدين العساكر أرسالا ، كلما تجهزت طائفة أرسلها ، فسارت إليه يتلو بعضها بعضا .

ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر ودخل بلاد الفرنج ، [١١٢] فنهبها وأغار عليها واستباحها ، لتتحرك الفرنج إلى حفظ البلاد الشامية ويشتغلوا عن دمياط ؛ وذكر أنه بلغ من اهتمام نور الدين بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرئ

= السالف الذكر . انظر : (C. Cahen: *Op. Cit. P.18 -19*) كذلك وصفها (الحسن عبدالله : آثار الأول ، ص ١٩٢) بقوله : « هى آلة سائرة تتخذ من الخشب الثخين المتلزز ، وتغلف باللبود والجلود المنقعة فى الخل لدفع النار ، وتركب على عجل مستديرة ، وتحرك فتنجر ، وربما جعلت برجا من الخشب ، ودبر فيها هذا التدبير ، وقد يدفعها الرجال فتندفع على البكر » وقد وصف (العماد الأصفهانى : الفتح القسى) باحدى دبابات الفرنج بأنها «كانت دبابة عظيمة هائلة ولها أربع طباق ، وهى خشب ورصاص وحديد ونحاس » . انظر المراجع المذكورة فى الحاشية السابقة ؛ (المقريزى فى السلوك ، ج ١ ، ص ٩٦ ، حاشية ٨) و(Dozy: *Supp. Dict. Arab.*) هذا وقد كتب قارئ فى هامش الأصل معنى هذا اللفظ باللاتينية وهو (mufculos machinas bellicas) .

(١) فى الاصل : « خلطلخ » وقد صحح الاسم بعد مراجعة (الروضتين ، ج ١ ص ١٨٠) وهو يسميه هناك «العلمدار» لا « الجمدار » .

بين يديه جزء من حديث كان له به رواية ، فجاءه في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم ، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتبسم ليتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث ، فغضب من ذلك ، وقال : « إنى لأستحى من الله تعالى أن يرانى مبتسما والمسلمون محاصرون بالفرنج » .

وذُكر أن إماما لنور الدين رأى ليلة رحل الفرنج عن دمياط فى منامه النبى — صلى الله عليه وسلم — وقال له : « أعلم نور الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط فى هذه الليلة » ، قال : فقلت : « يارسول الله لا يصدقنى ، فاذكر لى علامة يعرفها » ، [قال] : قل له « بعلامة ما سجدتَ على تل حارم ، وقلتَ : يارب انصر دينك [1] ، ولا تنصر محموداً ؛ مَنْ محمود الكلب حتى ينصر؟!» قال : « فانتبهت ، ونزلت إلى المسجد ؛ وكان من عادة نور الدين أن ينزل إليه بغلس ، ولا يزال يركع فيه حتى يصلى الصبح » ، قال : « فتعرضت له ، فسألنى عن أمرى ، فأخبرتُه بالمنام ، وذكرت له العلامة كلها ، إلا أننى لم أذكر لفظ الكلب » ؛ فقال نور الدين : « إذكر العلامة كلها » وألحَّ علىَّ ، فقلتها ، فبكى ، وصدّق الرؤيا . وأرختُ تلك الليلة ، فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك فى تلك الليلة » .

ولما رأى الافرنج تتابع الأمداد إلى دمياط من القاهرة والشام ، ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وإخرابها [2] رجعوا خائبين ؛ وكان مدة مقامهم

---

(١) فى الأصل : « دبنك » وهو خطأ واضح ، لم يكن تصحيحه يحتاج إلى الاشارة إليه فى الهامش ، لولا أن القارىء الفرنجى الذى اعتاد أن يسجل بعض شروحه باللاتينية على هوامش المخطوطة لم يفطن للقراءة الصحيحة للفظ ، وفهمه على أنه « دِبْن » ، وشرحه باللاتينية هكذا : (Caula gregis, mandre) ؛ وفى (اللسان) : الدبن حظيرة من قصب تعمل للغنم ، فان كانت من خشب فهى زرْب . فتأمل ! !

(٢) فى الأصل : « وخربها » والتصحيح عن الروضتين .

على دمياط خمسين يوما ، وكان رحيلهم لتسع بقين من ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

وأنفق صلاح الدين فى هذه النوبة أموالا عظيمة ، وذُكر عنه أنه قال : « ما رأيت أكرم من العاضد ، أرسل إلىّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها » ؛ وسُيِّرت الكتب إلى الشام بالبشارة برحيل الفرنج ، فكتب نور الدين إلى العاضد صاحب مصر يهنئه برحيل الفرنج عن دمياط ، وكان قد ورد عليه كتاب [١١٣] من العاضد يستقيل فيه من الأتراك خوفا منهم ، ويطلب الاقتصار على صلاح الدين وخواصه وألزامه ؛ فكتب إليه (١) نور الدين يمدح (١) الأتراك ، ويعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قُنْطاريّات (٢) الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك ، وأن الفرنج لا يخافون إلا منهم ، ولولاهم لزاد طمعهم فى الديار المصرية ، ولعل الله سبحانه وتعالى يُيسِّر بهم فتح بيت المقدس .

ومما مُدح به الملك الناصر صلاح الدين بعد رحيل الفرنج ما كتب إليه به عماد الدين الكاتب — رحمه الله — من قصيدة (٣) مخلصها :

كأنّ قلبى وحُبّ مالِكُهُ ... مِصْرٌ وفيها المليك يُوسُفُهَا

(١) فى الأصل : « إلى » و « مدح » ، والتصحيح عن : (الروضتين ج ١ ، ص ١٨١) .

(٢) القنطارية نوع من الرمح ، وهى لفظ من أصل يونانى (κοντάριον = Kontarion) وسميت هكذا لأنها تصنع من نوع من الخشب يحمل هذا الاسم باليونانية . وقد وصفها (مرضى بن على) وصفاً دقيقا فى كتابه السالف الذكر ، قال : « وبنو الأصفر ومن جانسهم من الروم يمتدون رماحا من الخشب الزان والشوح وما شاكله ويسمونها القنطاريات ، وليست بالطويلة ، ويطعنون بها ، ومن فرسانهم من يَقربِص بها ، وهو أن يجعل طرفها فى قربوس سرجه ويطعن ، وأسنتها قصار عراض كهيئة البُلطية وما جرى مجراها » . أنظر : (C. Cahen : *Un Traité D'Armurerie Composé pour Saladin P.P 11, 155*) ; و (Dozy. *Supp. Dict. Arab*)

(٣) وردت هذه الأبيات فى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٢) ، أما القصيدة كاملة فموجودة فى : (العماد الأصفهانى : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ص ٩ — ١١) وقد استعنا بهذين المرجعين لتصحيح الأبيات وضبطها وشرحها .

هذا بسلْبِ الفؤاد يظلمنى ، وهو بقتل الأعداء يُنْصِفُهَا
الملكُ الناصرُ الذى أبدًا بعزٍّ سلطانه يُشَرِّفُهَا
قام بأحوالهـا ، فدَبَّرها حسنا ، وأثقالهـا يُخَفِّفُهَا
بعدله والصّلاحِ يَعْمُرُهَا ، وبالندى والجميـلِ يكنفها
من دَنَسِ الغادرين يَرْحَضُها ، ومن خَبَاث العدى يُنَظِّفُهَا
وإنَّهُ فى السَّمَاح حاتِمُهَا ، وإنَّهُ فى الوقارِ أَحْنَفُهَا
يوسفُ مصرَ التى (١) مَلاحِمُهَا جاءتْ بأوْصَافِهِ تُعَرِّفُهَا
كُتْبُ التواريخ لا يُزَيِّنُهَا — إلا بأوْصَافِهِ — مُصَنِّفُهَا
وحُطَتْ (٢) دمياط إذ أحاط بها مَنْ بِرجُومِ (٣) البلاء يَقْذِفُهَا
لاقتْ غواةُ الفرنج خَيْبَتَهَا فزادَ — مِنْ حسرةٍ — تَأَسُّفُهَا
أوردْتَ قُلْبَ (٤) القلوب أَرْشِيَةً من القَنا للدماء تَنْزِفُهَا (٥)
وَلِيتَهَا سَفْكَهَا فعامِلُهَا عامِلُهَا (٦) والسِّنَانُ مُشْرِفُهَا (٧)
يُمْضى لك اللهُ فى قتالهمُ عزيمةً للجهادِ تُرْهِقُهَا

---

(١) فى الأصل : « الذى » .
(٢) فى الأصل : « وحط » ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(٣) فى الأصل : « من رجوم » والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(٤) القلب جمع قليب وهو البئر ؛ والأرشية الحبال ، وهى جمع رشاء .
(٥) فى الأصل : « تعرفها » ، وما هنا عن المرجعين السابقين .
(٦) عامل الرمح صدره ؛ والعامل الوالى .
(٧) مشرف الشىء ما يعلوه ، والمشرف كذلك القائم على الأمر .

ذكر وصول الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شاذى والد السلطان إلى مصر

[١١٤] ثم أرسل السلطان الملك الناصر صلاح الدين إلى الملك العادل نور الدين — رحمه الله — يطلب أن يرسل إليه والده نجم الدين أيوب ، فجهّزه نور الدين وسيّر معه عسكراً ، واجتمع معهم من التجار خلق كثير ، وانضاف إليهم من كان له مع صلاح الدين أنس وصحبة ، ثم خاف نور الدين عليهم من الفرنج ، فسار إلى الكَرَك فى عساكره ، فحصره وضيّق عليه ، ونصب عليه المجانيق ليشغل الفرنج عنهم ، فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وحشدوا وساروا إليه ، فسار نور الدين نحوهم ، فرجعوا عنه القهقرى ، وسلك نور الدين وسط بلادهم يحرق وينهب ما على طريقه من القرى ؛ إلى أن وصل إلى عَشْتَرَا (١) ، فخيّم بها وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم ، فلم يبرحوا مكانهم ، وأقام هو حتى أتاه خبر الزلزلة العظيمة التى وقعت فى هذه السنة ، فرحل .

وهذه الزلزلة (٢) هى المعروفة بزلزلة حلب التى هدت أكثر منازلها ، وكانت عظيمة جداً ، وكان تأثيرها فى حلب وبلادها نظير تأثير الزلزلة التى كانت بحماة سنة اثنين وخمسين وخمسمائة — التى قدمنا ذكرها —

ووصل الملك الأفضل نجم الدين أيوب — رحمه الله — إلى القاهرة فى الرابع والعشرين من رجب من هذه السنة — أعنى سنة خمس وستين وخمسمائة — ، وخرج العاضد — صاحب القصر — لاستقباله ، وبالغ فى احترامه والإقبال عليه .

(١) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها موضع بحوران من أعمال دمشق .

(٢) حدثت هذه الزلزلة فى ثانى عشر شوال . انظر أخبارها بالتفصيل فى : (ابن الأثير : الكامل ٢ ج ١١ ، ص ١٣٢ — ١٣٣) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٤) .

واتفق لأيوب مع ولده صلاح الدين يوسف شبيه ما اتفق ليعقوب مع ابنه يوسف — عليهما السلام — حين قدم على ولده ، ووجده متملكا للديار المصرية ، وقال : « ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (١) » . وذكر أنه لما خرج ولده الملك الناصر صلاح الدين والخليفة العاضد إلى لقائه ، واجتمعا به قرأ بعض المقرئين : « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ (٢) » — الآية —

ولما اجتمع صلاح الدين بأبيه سلك معه من الأدب ما جرت به عادته ، وفوّض إليه الأمر كله ، فأبى ذلك عليه أبوه وقال له : « يا ولدى ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له ، فلا ينبغى أن تغير مواقع السعادة » [١١٥] فحكّمه فى الخزائن بأمرها ، وأنزله اللؤلؤة (٣) المطلة على خليج القاهرة ، فأنشده يوما ابن أبى حصينة (٤) وغضّ من خلفاء مصر :

---

(١) السورة ١٢ (يوسف) ، الآية ٩٩ ك .

(٢) السورة ١٢ (يوسف) ، الآية ١٠٠ ك .

(٣) اللؤلؤة منظرة من مناظر الفاطميين كانت تعرف بقصر اللؤلؤة ، ويشرف من شرقيه على البستان الكافورى ، ومن غربيه على الخليج ؛ وصفه (المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٤٨ إلى ٣٥٠) بأنه كان من أحسن القصور وأعظمها زخرفة ، أنشأ هذه المنظرة العزيز بالله ثم هدمها الحاكم ثم جددها الظاهر ؛ ومكانها اليوم تبعا لتحقيقات محمد رمزى (النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٤٦ ، هامش ٢) مدرسة الفرير التى بشارع الشعرانى البرانى على رأس شارع الخرنفش بقسم الجمالية . أنظر أيضاً : (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٢ ، ص ١٢٨) .

(٤) هو يحيى بن سالم بن أبى حصينة الأحدب ، ترجم له (العماد الأصفهانى : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ٢ ، ص ١٥٧) فقال إنه من أهل مصر ، وجده من أهل المعرة بالشام ، من نسب الشاعر المعروف ، ثم أورد له بعض شعره ، وقد ذكر ناشر الخريدة أن لهذا الشاعر ترجمة فى (ابن سعيد : المغرب ، الجزء الثانى ، الورقة ١٧٣) و (ابن حجر : التجريد ، الورقة ٢٥٧) . وقد ترجم صاحب الخريدة لأبيه سالم بن مفرج بن أبى حصينة فى (نفس المرجع ، ص ١٠٧ — ١٠٨) . أنظر أيضاً : (عمارة : النكت العصرية ، ص ٢٩٢) ، وفى (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٧٥) ترجمة لشاعر آخر من نفس الأسرة ، فقد قال فى وفيات سنة ٤٥٦ هـ : « توفى الحسن بن عبد الله بن أحمد أبو الفتح الحلبى الشاعر المعروف بابن أبى حصينة ، كان فاضلا شجاعا فصيحا مخاطب بالأمير » .

يا مَالِكَ الأرضِ لا أرْضَى له طَرَفَا ... منها ، وما كان فيها لم يكن طُرَفَا
قد عَجَّلَ اللهُ هذى الدارَ تَسكُنُها ، ... وقد أعَدَّ لك الجنَّاتِ والغُرَفَا
تَشَرَّفَتْ بك عَمَّنْ كان يَسكُنُها ... فالْبَسْ بها العزَّ ، وَلْتَلْبَسْ بك الشَّرَفَا
كانوا بها صَدَفًا ، والدارُ لؤلؤةٌ ، ... وأنت لؤلؤةٌ صارتْ لها صَدَفَا

فرد عليه عمارة[1] بن على اليمنى الشاعر ، وكان يتعصب لخلفاء مصر ، لاصطناعهم إياه وإحسانهم إليه ، فقال :

أَ ثِمْتَ[2] يا من هجا السادات والخُلفَا ... وقلتَ ما قلتَه فى ثَلْبِهم سَخَفَا
جعلتَهم صَدَفًا حَلُّوا بلؤلؤةٍ ... والعُرْفُ: ما زال سُكْنَى[3] اللؤلؤِ الصَّدَفَا
وإنما هى دارٌ ، حلَّ جوهرُهم ... فيها ،[4] وشفَّ فأسناها الذى وَصَفا
فقال : لؤلؤةٌ ! عُجْباً يبهجتها ، ... وكونِها حوَتِ[5] الأشرافَ والشَّرَفَا
فهى بُسُكَّانها[6] الآياتُ إذ سكنوا ... فيها ، ومن قبلها قد أسكنوا الصُّحُفَا
والجوهرُ الفردُ نورٌ ، ليس يعرفه ... — من البريَّةِ — إلا كلُّ من عرفا
لولا تجسُّمُه فيهم[7] لكان على ... ضَعْفِ البصائرِ للأبصارِ مختطِفَا
فالكلبُ – يا كلبُ – أسنى منك مكرمةً ،[8] لأنَّ فيه حِفاظاً دائماً وَوَفَا

---

(١) أشير إلى اسم الشاعر — فى الأصل — بعلامة ، وكتبت أمامه فى الهامش هذه الجملة اللاتينية : (Vide plura de hoc poeta infra pag. 128.) ويشير كاتب هذه الجملة من الفرنج إلى قصيدة أخرى لعمارة وردت فى ص ١٢٨ من المخطوطة وهى القصيدة التى رثى بها عمارة الفاطميين .

(٢) فى الأصل : « ألت » والتصحيح عن : (عمارة : النكت العصرية ، ص ٢٩٢) و (المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٥١) .

(٣) فى الأصل : « كن » والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٤) فى الأصل : « بها » ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٥) فى الأصل : « حلت » والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٦) فى الاصل : «فهم بسكانها» ؛ وفى الخطط «فهم بسكنام» ؛ وما هنا صيغة «النكت» .

(٧) كذا فى الاصل وفى (النكت) ؛ وفى (الخطط) : « فيه » .

(٨) كذا فى الاصل وفى (الخطط) ؛ وفى (النكت) : « معروفة » .

وفى هذه السنة — أعنى سنة خمس وستين وخمسمائة — سار الأمير شهاب الدين محمد بن إلياس ابن إيلغازى بن أُرْتُق — وكانت له البيرة — فى عسكره ، — وهم مائتا (١) فارس — إلى خدمة الملك العادل نور الدين محمود — رحمه الله — ، وهو نازل بعَشْتَرا ، فلما وصل إلى اللبوة من أعمال بعلبك ، وكان قد ركب متصيِّداً ، فصادف ثلاثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للإغارة على بلاد الإسلام ، فوقع بعضهم على بعض ، واقتتلوا ، وصبر الفريقان ، وكثر القتل فيهم ، فانهزم الفرنج ، واستولى عليهم القتل والأسر ، فلم يسلم منهم من يُعتد به ؛ ثم سار شهاب الدين بالأسرى ورؤوس القتلى إلى نور الدين ، فركب هو وعسكره إلى لقائه ، واستعرض الأسرى ورؤوس [١١٦] القتلى ، فرأى فيها رأس مقدَّم الاسبتارية (٢) ، صاحب حصن الأكراد ، وكان معظما عند الفرنج .

ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكى
صاحب الموصل

وفى ذى الحجة من هذه السنة توفى قطب الدين مودود بن زنكى بن آق سنقر — صاحب الموصل — وكان مرضه حاداً ، ولما اشتد مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكى بن مودود ، فلم يتم أمره ، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى الاصل : « مايتى » .

(٢) هذه هى التسمية العربية لطائفة الفرسان الهسبتاليين ، وهو تحريف ظاهر للفظ الانجليزى (Hospitallers) أو الفرنسى (Hospitalliers) ، وكان يطلق فى عصر الحروب الصليبية على طائفة من الفرسان الدينيين ، وقد أسس هذه الطائفة (Blessed Gerard) فى سنة ١٠٩٩ م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس . وكانت الدار التى يسكنها هؤلاء الرهبان (Hospice) موجودة قبل ذلك فى بيت المقدس وتتخذ مأوى للحجاج والمرضى من المسيحيين ، وتشبه هذه الطائفة فى كثير طائفة فرسان المعبد (Templiers) التى عرفها العرب باسم « الداوية » ، وقد لعب فرسان هاتين الطائفتين دورا خطيراً فى الحروب الصليبية انظر: (King: *Knights Hospitallers* pp.1—33) و (محمد فريد أبو حديد : صلاح الدين الأيوبى وعصره ، ص١٠٤ ، هامش ١) .

ذكر سيرته — رحمه الله —

كان من أحسن الملوك سيرة ، وأعفهم عن أموال الرعية ، محسناً إليهم ، كثير الإنعام عليهم ، محبباً عند الصغير والكبير منهم ، وكان سريع الانفعال للخير ، بطيئاً عن الشر ، جم المناقب ، قليل المعايب ؛ وجرت واقعة عجيبة ينبغي أن نتعظ بها ، حدث الشيخ عز الدين بن الأثير عن والده ، قال : « كنت أتولى جزيرة ابن عمر لقطب الدين كما علمتم ، فلما كان قبل موته بيسير ، أتاني كتاب من الديوان (١) بالموصل ، يأمرون بمساحة جميع بساتين العقيمة ، وهي قرية تحاذي الجزيرة وبينهما دجلة ، ولها بساتين كثيرة ، بعضها يُمسح فيؤخذ منه عن كل جريب (٢) شيء معلوم ، وبعضها عليه خراج ، وبعضها مطلق من الجميع ، وكان لي فيها ملك » ، فكتبت أقول : « إن المصلحة أن لا يُغيَّر على الناس شيءٌ ، وما أقول لأجل ملكي ، فإنني أنا أمسح ملكي ، وإنما أريد أن يدوم الدعاء من الناس لهذه الدولة» ؛ فجاءني كتاب النائب يقول : « لا بد من المساحة » ؛ قال : فأظهرت الأمر ، وكان بها قوم صالحون ، لي بهم أنس ، وبيننا وبينهم مودة ، فجاءني الناس كلهم وأولئك معهم ؛ يطلبون المراجعة ، فأعلمتهم أنني راجعت ، وما أُجبت إلى ذلك ؛ فجاءني منهم رجلان أعرف صلاحهما ، وطلبا مني معاودة المخاطبة ثانياً ؛ ففعلت ،

---

(١) كان لفظ « الديوان » يطلق أحياناً في ذلك العصر على موظف أو موظفي الديوان كما يتضح من النص هنا .

(٢) الجريب هنا مقياس للأرض ، ومقداره عشر قصبات في عشر قصبات ، على أنه قد يختلف باختلاف المكان والزمان ؛ والجريب في الأصل مكيال ، وسعته ما يكفي من الحب لبذر مساحة معينة ، ومن هنا سميت تلك المساحة باسم الجريب . انظر : (الماوردي : الأحكام السلطانية) و (المقريزي ، إغاثة الأمة ، ص ٥١ و ٦٣) و (Enc. Isl. *Art: Djarib*) وما بها من مراجع .

فأصروا على المساحة ، فعرفتهما الحال ، قال : « فما مضى إلا عدة أيام وإذا قد جاءنى الرجلان ، فلما رأيتهما ظننت أنهما يطلبان المعاودة ، فعجبت منهما ، وأخذت أعتذر إليهما ، فقالا : ما جئنا إليك فى هذا ، وإنما جئنا نعرفك أن حاجتنا قد قضيت » ؛ قال : « فظننت أنهما قد أرسلا إلى المحصل من يشفع لهما » ؛ قلت : « من الذى خاطب فى هذا [١١٧] بالموصل ؟ » فقالا : « إن حاجتنا قد قُضيت من السماء ، ولكافة أهل العقيمة » ؛ فظننتُ أن هذا مما حدثا به نفوسهما ، ثم قاما عنى ، فلم يمض غير عشرة أيام ، وإذا قد جاء كتاب من الموصل ، يأمرون فيه بإطلاق المحبسين والمساحة والمكوس ، ويأمرون بالصدقة » . ويقال إن قطب الدين — يعنى السلطان — مريض على حال شديدة ، ثم بعد يومين أو ثلاثة جاءنا الكتاب بوفاته ، فعجبت من قولهما ، واعتقدته كرامة لهما ، قال : فصار والدى بعد ذلك يكثر إكرامهما واحترامهما ويزورهما » .

ذكر استيلاء سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى على الموصل

كان النائب بالموصل والقيّم بأمور الدولة بعد زين الدين على كُوچك فخرَ الدين عبد المسيح ، وكان خادما لقطب الدين ، وكان يكره عماد الدين لأنه [١] كان طوع عمه [١] نور الدين ، لكثرة مقامه عنده ، ولأنه كان زوج ابنته ؛ وكان نور الدين يُبغض فخر الدين عبد المسيح ؛ واتفق فخر الدين والخاتون [٢] ابنة حسام الدين تِمُرْتاش [بن] إيلغازى — والدة سيف الدين — على صرف الملك عن عماد الدين

---

(١) الضمير هنا يعود على قطب الدين .

(٢) هى صفية خاتون وكانت زوجة لقطب الدين مودود ، انظر عنها وعن أبيها : (Zambaur *Op. Cit. PP.33,136. 227*).

إليه ، فأجلس فى الملك سيف الدين بن غازى بن قطب الدين مودود ، ورحل عماد الدين زنكى بن مودود إلى عمه نور الدين مستنصراً به ؛ وكان عمر قطب الدين لما توفى قريباً من أربعين سنة ، ومدة ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً .

وفى هذه السنة توفى الأمير مجد الدين بن الداية ، وهو رضيع نور الدين ، وكان أعظم الأمراء منزلة عنده ، وكان له من الإقطاع حارم ، وقلعة جُعْبَر ، فرُدَّ ما كان إليه إلى أخيه شمس الدين بن الداية .

ذكر استيلاء الملك العادل نور الدين — رحمه الله —

على الموصل ، و إقرار ابن أخيه سيف الدين عليها

ولما بلغ نور الدين — رحمه الله — وفاة أخيه قطب الدين بالموصل ، واستيلاء عبد المسيح واستبداده بالأمور أنف من ذلك وعظم عليه ، وكان شديد البغض لعبد المسيح — كما ذكرنا — فقصد الرَّقة ، فى سنة ست وستين وخمسمائة ، فتسلمها على عوض أعطاه النائب بها .

وحكى عماد الدين الكاتب — رحمه الله — قال : « استدعانى نور الدين — ونحن بظاهر الرَّقة — ، وقال لى : قد أنست بك ، وأمنت إليك ، وأنا غير مختار للفرقة ، لكن المهم [١١٨] الذى عَرَض لا يبلغ الغرضَ فيه غيرك ، فتمضى إلى الديوان العزيز جريدة ، وتنهى إليه أنى قصدت بيتى وبيت والدى ، فأنا كبيره ووارثه ، وتأخذ لى منه إذناً فى ذلك ، وأنا ممتثل لما يرد علىَّ منه ؛ وأمر الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه أن يسيِّرنى إلى الرحبة فى رجال من عنده ،

وسرت منها إلى البرية غربى الفرات بخفير من بنى خفاجة ، فوصلت ، وقضيت الحاجة ، ورجعت من عند الخليفة المستنجد بالله — وهو يحاصر سنجار — .

ولما ملك نور الدين الرَّقة سار إلى الخابور فملكه جميعه ، ثم ملك نصيبين ، وأقام بها بجميع العساكر ، فأتاه نور الدين محمود بن قرا أرسلان الأرتقى — صاحب الحصن — ، واجتمعت عليه العساكر ؛ ثم سار إلى سنجار فحاصرها ، ونصب عليها المجانيق ، وكان بها عسكر كثير من الموصل ، فكاتبه عامة الأمراء الذين بالموصل يحثونه على السرعة إليهم ليسلموا البلد إليه ؛ وأشاروا بترك سنجار ، فلم يقبل منهم ، وأقام حتى ملك سنجار وسلمها إلى ابن أخيه عماد الدين زنكى بن مودود ؛ ثم سار إلى الموصل فأتى إلى بَلَد ، وعبر دجلة من مخاضة عندها إلى الجانب الشرقى ، ثم سار حتى وصل شرقى الموصل على حصن نينوى ، ودجلة بينه وبين الموصل ؛ وبوصوله — أعنى وصول نور الدين — سقط من سور الموصل بدنة كبيرة .

وكان فخر الدين عبد المسيح قد سيَّره عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود إلى أتابك إيلدكز — صاحب بلاد الجبل وأذربيجان — ، وأراد يستنجده ، فأرسل إيلدكز رسولا إلى نور الدين ينهاه عن قصد الموصل ، ويقول له : إن هذه البلاد للسلطان ، ولا سبيل لك عليها ، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته ، وكان بسنجار ، فسار إلى الموصل ، وقال للرسول : « قل لصاحبك أنا أرفق ببنى أخى منك ، فلا تدخل نفسك بيننا ، وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب همذان ، فإنك قد ملكت نصف بلاد الإسلام ، وأهملت الثغور ، حتى غلب الكُرْج[1] عليها ،

---

(١) الكرج أمة من المسيحيين ، كانت مساكنها بجبال القوقاز المجاورة لتفليس ، ثم استولوا على تفليس من المسلمين سنة ٥١٥ هـ ، ولم يزالوا متملكين لها إلى أن أغار عليهم جلال الدين خوارزمشاه سنة ٦٢١ هـ واسترد تفليس منهم . انظر : (Allen: *History of the Georgian People* PP. 85-112.)

وبُليتُ أنا بأشجع الناس — الفرنج — ، وأخذتُ بلادهم ، وأسرت ملوكهم ، فلا يجوز لى أن أتركك على ما أنت عليه ، فإنه يجب علينا الحفظ لما أهملت من بلاد الإسلام ، وإزالة الظلم [١١٩] عن المسلمين » وعاد الرسول بهذا الجواب .

ثم إن الأمراء الذين بالموصل كاتبوا نور الدين وأعلموه عزمهم على الوثوب بعبد المسيح وتسليم البلد إليه ، ولما علم عبد المسيح بذلك راسله فى تسليم البلد إليه وتقريره على سيف الدين ، ويطلب الأمان وإقطاعا يكون له ، فأجابه إلى ذلك ، وقال : « لا سبيل إلى لقائك بالموصل ؛ بل تكون عندى بالشام ، فإنى لم آت لآخذ البلاد من أولادى . وإنما جئت لأخلص الناس منك ، وأتولى أنا تربية أولادى » ؛ واستقرت القاعدة على ذلك ؛ وتسلم نور الدين الموصل ، ودخلها لثلاث عشرة ليلة مضت من جمادى الأولى من هذه السنة — أعنى سنة ست وستين وخمسمائة — ، ونزل فى القلعة ، وولّى بالقلعة سعد الدين كُمُشْتِكين ، وأبقى بالموصل سيف الدين غازى بن مودود ، واسم الملك له ، وقسّم تركة قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة .

ذكر وفاة الخليفة المستنجد بالله (١)
أبى المظفر يوسف بن المقتفى وسيرته

كنا ذكرنا وفاة المقتفى لأمر الله فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، ومصير الخلافة إلى ولده المستنجد بالله أبى المظفر يوسف ، وأنه أقام بوزارته عون الدين

(١) أنظر ترجمته فى : (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١٩٢ — ١٩٤ و ٢٣٦) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٤ — ١٣٥) و (سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٨٢ — ٢٨٣) و (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٧٩ — ٢٨٢) و (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٢ — ٢٩٤) و (ابن دحية : النبراس ، ص ١٥٨ — ١٥٩) .

أبا[١] المظفر يحيى بن هبيرة[٢] — وزير والده — ، وكان عنده معظما كما كان عند والده ، ثم بعد ذلك جرت مشاحنة بين الوزير عون الدين وأستاذ الدار عضد الدين محمد بن عبد الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء ، واشتد الأمر بينهما[٣] ؛ وكان عضد الدين هذا متمكناً عند الخليفة المستنجد بالله ، فبقى عون الدين مداريا له مستوحشاً منه [وطلب الإقالة من الخليفة فأقاله ، ولزم بيته[٤]] ، إلى أن توفى الوزير عون الدين ليلة الأحد ثالث عشر جمادى الأول سنة ستين وخمسمائة .

وكان من أعيان الوزراء ، وكان إقطاعه فى ديوان الخلافة[٥] فى كل سنة ما يقارب مائة ألف دينار ، ومات وعليه ديون جمة ، ولم يدخر ملكاً ولا ديناراً ولا درهماً ؛ وكان ابتاع داراً من[٦] صدقة بباب العامة ، فقيل له : باسم من تكتبه ؟ فقال : باسم الوكلاء — أجابهم الله تعالى — يعنى وكلاء الخليفة ؛ فقيل له فى ذلك ، فقال : « إن كنت فى الوزارة فهذه الدار لى وغيرها ، وإذا عُزلت عنها فأرجو أن أمكَّن من الإقامة ببعض المساجد » .

وكانت مدة وزارته للخليفتين المقتفى والمستنجد ، ست[٧] عشرة سنة[٨] .

---

(١) فى الأصل : « أبو » .

(٢) أنظر ترجمته فى : (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢١٤ — ٢١٧) و (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٥ ، ص ٢٧٤ — ٢٨٧) .

(٣) بهذا اللفظ تبدأ ص (١٣٠) من نسخة س . وبذلك نعود للمقارنة بين نصى النسختين : (ك ، س) .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادات عن س (ص ١٣٠) .

(٥) فى س : « الخليفة » .

(٦) فى س : « دارين صدقة » .

(٧) فى س (١٣٠) : « سبع » .

(٨) يوجد فى س (ص ١٣٠) بعد هذا اللفظ الجملة الآتية : « وقد ذكرناه فى تاريخ القاضى شهاب الدين على غير هذه الصورة » .

ثم توفى الخليفة المستنجد [١٢٠ أ] بالله يوم الجمعة سابع ربيع الآخر من هذه السنة — أعنى سنة ست وستين وخمسمائة — فكانت خلافته إحدى عشرة سنة، وشهراً، وأحد عشر يوماً، وكان يقظاً (١) شهماً عادلا حسن السيرة، وله شعر حسن، ذكرنا بعضه، ومما أنشده وزيره عون الدين بن هبيره له [من قصيدة يقول (٢)] :

كُنْ عدواً مبرزاً صفحتَه أوْ فسالمنى إذا لم تَكُ قِرْنى
فى اشتباه الناس ود بينهم ومناواة إليها سوء ضغن
كم عدوٍ زلّ (٣) من ظهر أبى وصديقٍ أمُّهُ ما وَلَدَتْنى

ذكر البيعة بالخلافة للمستضىء بنور الله

ابن المستنجد بالله

ولما توفى المستنجد بالله بويع بالخلافة ولده الإمام المستضىء بنور الله أبو محمد الحسن بن المستنجد [بالله (٤)] بن المقتفى [لأمر الله (٤)] بن المستظهر فى عصر اليوم الذى توفى فيه أبوه — وهو يوم الجمعة سابع ربيع الآخر — البيعة الخاصة، وعمره إذ ذاك تسع (٥) وعشرون سنة وثمانية أشهر وثمانية أيام، لأن مولده فى ثالث عشر شعبان سنة ست وثلاثين وخمسمائة؛ وبويع يوم السبت غد هذا اليوم البيعة العامة،

(١) مكان هذا اللفظ فى س : « شجاعا » .
(٢) ما بين الحاصرتين عن س .
(٣) س (ص ١٣٠) : « نازل » .
(٤) ما بين الحاصرتين زيادات عن س .
(٥) فى س (ص ٣٠ ب) : « سبع » ، وما هنا هو الصحيح ، فقد ولد المستضىء سنة ٥٣٦ ، أنظر : المتن هنا و (السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٤) .

وأخذ له البيعة على الناس وزيره (١) عضد الدين بن رئيس الرؤساء ، وأقطعه المستضىء ما كان يجرى فى إقطاع ابن هبيرة ، وأقطع قايماز — مملوك والده (٢) — الحلة وأعمالها ، (٢) وأقطع تتامش وأخاه أردن — نسيبى قايماز (٣) — واسطا وقوشان ؛ وطَوَّق (٤) قايماز ولقّبه ملك العرب ، وسَوَّره (٤) ؛ ولم يكتف لهم بذلك حتى حمل إليهم من الأموال ما زاد على أمانيهم وآمالهم (٢) .

وبعث إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى خلعة — وكان بظاهر الموصل — فلبسها ، ثم بعد دخوله الموصل خلعها على ابن أخيه سيف الدين .

وأطلق نور الدين المكوس بالموصل كلها ، وكذلك فعل فى سائر ما فتحه من البلاد ؛ وأمر بإنشاء الجامع النورى بالموصل ؛ وأقطع جزيرة ابن عمر لابن أخيه سيف الدين غازى ، وكان مدة مقام نور الدين بالموصل سبعة عشر يوما ، ثم رحل إلى الشام ، وفى صحبته فخر الدين عبد المسيح ، فغير اسمه نورُ الدين ، وسماه عبد الله .

ووصل [١٢١] [نور الدين] إلى حلب فى شعبان ، وزوّج سيف الدين غازى ابنته ، وفوّض القضاء بسنجار ونصيبين والخابور إلى الشيخ شرف الدين عبد الله ابن أبى عصرون ، فولى بها نوابه ؛ ثم رحل نور الدين إلى دمشق وصام بها شهر رمضان من هذه السنة ؛ ثم خرج بعد العيد إلى المخيم ثم سار إلى عَشْتَرا .

---

(١) فى الأصل : « وأخذ له البيعة على الناس كما كان وزيره ووزير أبيه بعده ابن هبيرة عضد الدين إلخ » ، وفى س (ص ٣٠ ب) : « وأخذ له البيعة على الناس ووزيره ووزير أبيه عضد الدين الخ » وهو نص مضطرب المعنى فى كليهما ، وقد حذفنا بعض الألفاظ ليستقيم المعنى ، أنظر ترجمة هذا الوزير فى : (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٨٠ — ٢٨٢) ، واسمه بالكامل : « عضد الدين أبو الفرج محمد بن أبى الفتوح عبدالله بن رئيس الرؤساء » .

(٢) ما بين الرقمين غير موجود فى س .

(٣) أنظر أخبار قايماز وأقاربه فى : (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٥٣ — ٢٥٥) .

(٤) أى ألبسه الطوق والسوار .

وقد ذكر عماد الدين [الكاتب] فى البرق أن السرية (١) التى خرجت (٢) لصاحب البيرة باللبوة كانت فى هذه السنة بعد نزول نور الدين عَشْتَرا ، وروى ابن الأثير أنها كانت فى السنة الماضية ، وكان هذا هو الأقرب . والله أعلم بالصواب.

ذكر الأحداث الكائنة بمصر فى هذه السنة

— أعنى سنة ست وستين وخمسمائة —

وفى هذه السنة حرر (٣) صلاح الدين داراً كانت للمعونة (٤) بمصر مدرسة للشافعية ، ولم يكن بمصر للشافعية ولا لغيرهم مدرسة ، لأن الدولة كانت إسماعيلية ،

(١) فى س (ص ٣٠ ب) : « السيرة » ، وما هنا هو الصحيح .

(٢) فى الأصل : « جرت » ، وما هنا عن س ، أنظر أخبار هذه السرية بالتفصيل فى : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٣٢) .

(٣) فى س (٣٠ ب) : « خرب صلاح الدين داراً كانت للمعونة وبناها مدرسة للشافعية » .

(٤) أشار المقريزى عند كلامه عن السجون إلى حبسين كان كل منهما يسمى « حبس المعونة » أو « دار المعونة » ، الأول كان بالفسطاط : (الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٠٤) ، والثانى كان بالقاهرة : (الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٤٢) ، والأول هو المقصود هنا ، وقد سميت هذه الدار بالمعونة لأنها بنيت بمعونة المسلمين ينزلها ولاتهم ، ثم عرفت بدار الفلفل ، وكان مكانها قبلى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، ثم جعلت داراً للشرطة واستمرت كذلك إلى أن حولها يانس العزيزى — صاحب الشرطة فى عهد العزيز — إلى حبس عرف بالمعونة وذلك فى سنة ٣٨١ هـ . ثم حوله صلاح الدين أول توليته على مصر إلى مدرسة الشافعية ، وقد عرفت هذه المدرسة أول إنشائها « بالمدرسة الناصرية » نسبة إلى الناصر صلاح الدين ، ثم عرفت باسم « مدرسة ابن زين التجار » وهو أول فقيه تولى التدريس بها ، ثم عرفت بعد ذلك « بالمدرسة الشريفية » نسبة إلى الشريف القاضى شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين الأرموى قاضى العسكر ، أحد من تولوا التدريس بها . انظر أخبار هذه المدرسة بالتفصيل فى : (المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩٣) و (ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٩٣) ، وقال محمد رمزى فى تحقيقاته فى (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٨٥ ، هامش ١) ان هذه المدرسة زالت ، ومحلها اليوم أرض فضاء فى الجنوب الشرقى من جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة مشغولة بأقمان الجير والفواخير .

ولم يكن لهم ميل إلى شيء من هذه المذاهب ؛ ثم بنى — رحمه الله — دار الغزل (١) مدرسة للمالكية .

وفوَّض القضاء بالديار المصرية إلى قاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الهَذَبانى (٢) الشافعى ، فجعل صدر الدين القضاة فى سائر الديار المصرية شافعية ، فاشتهر مذهب الشافعية (٢) واندرس مذهب الإسماعيلية بالكلية ، وانمحى أثره ، ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به .

خروج الملك الناصر صلاح الدين إلى الغزاة

ثم خرج صلاح الدين إلى جهاد الفرنج ، وأغار على الرملة وعسقلان ، وهجم رَبَض غزة ، ثم عاد إلى القاهرة ، ثم وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله ، فأشفق عليها (٣) وخاف عليهم من الفرنج ، فخرج فى النصف من ربيع الأول ، [فالتقى بالقافلة ، وخفرهم إلى مصر بما معهم سالمين ، ثم رد على عقبه (٤)] .

---

(١) ذكر (المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩٣ — ١٩٤) أن موضع هذه المدرسة يعرف بدار الغزل لأنه كان قيسارية يباع فيها الغزل ، ثم هدمها صلاح الدين وبنى مكانها مدرسة للفقهاء المالكية وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة أهمها ضيعة بالفيوم ، كان يجمع منها قمح كثير يوزع على فقهاء المدرسة ، ولهذا عرفت بعد ذلك « بالمدرسة القمحية » . انظر عنها أيضا : (ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٩٥) . وقال محمد رمزى فى تحقيقاته (المرجع السابق) إن هذه المدرسة زالت ، ومكانها اليوم أرض فضاء فى الجهة الشرقية من جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة بجوار أقمان الجير والفواخير .

(٢) هذه النسبة تدل على أن هذا القاضى كردى كصلاح الدين ومن نفس القبيلة التى ينتمى إليها ، وتحويل القضاء فى مصر إلى المذهب الشافعى وتعيين قاضى قضاة كردى — والخليفة الفاطمى — لازال حيا — إجراء له دلالته السياسية الواضحة .

(٣) فى س : « عليهم » .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (١٣١) .

ذكر فتح قلعة أيلة

وكانت بأيلة (١) قامة فى البحر قد حصّنها الكفار من الفرنج ، فعمّر لها مراكب ، وحملها إلى ساحل أيلة على الجمال ، وركبها الصناع هناك ، وشحنها بالمقاتلة ، وزحف إلى القلعة ، ففتحت فى العشر الأول من ربيع الآخر ، واستباح أهلها قتلا وأسراً ، وملأها (٢) بالعَدَد والعُدَد واجتمع (٣ بأهله عليها ، ثم سار بهم إلى القاهرة ٣) فدخلها فى السادس والعشرين من جمادى الأولى .

ثم سار فى [١٢٢] الثالث والعشرين من شعبان إلى الإسكندرية (٤) ليشاهدها ويرتب قواعدها ، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها .

وفى النصف من شعبان فى هذه السنة اشترى الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه (٥) بن أيوب بن أخى صلاح الدين منازل العز (٦) وجعلها مدرسة للشافعية ، ووقف عليها وقوفاً جليلة .

---

(١) فى س (١٢١) : « أيلة » .

(٢) فى س : « وملأها من المدد والسلاح » .

(٣) مقابل هذا النص فى س : « ثم رجع إلى القاهرة » .

(٤) عن الاسكندرية فى عصر صلاح الدين انظر : (جمال الدين الشيال : الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ٢٢١ — ٢٢٦) .

(٥) فى الأصل : « شاهان شاه » .

(٦) ذكر (المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٧٦) أن منازل العز بنتها السيدة تغريد أم العزيز بالله ، ولم يكن بمصر أحسن منها ، وكانت مطلة على النيل لا يحجبها شىء عن نظره ، وما زال الخلفاء من بعد المعز يتداولونها وكانت معدة لنزهتهم . ثم قال عند كلامه عن « مدرسة منازل العز » فى : (الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩٤ — ١٩٥) ان تقى الدين عمر سكن منازل العز مدة ثم اشتراها من بيت المال فى شعبان سنة ٥٦٦ ، وبناها مدرسة للشافعية . وقال محمد رمزى فى تحقيقاته : (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٨٦ ، هامش ١) إن مكانها اليوم مجموعة المبانى التى تحد من الغرب بشارع مصر القديمة ، ومن الجنوب مدخل شارع المرحومى ، وحارة الشراقوة وعطفة زاهر ، ومن الشرق جنينة الجمجمى وعطفة الأسرلى ، ومن الشمال شارع القبوة ، وأما المدرسة نفسها فتعرف اليوم باسم جامع شهاب الدين أحمد المرحومى الذى يتوسط هذه المنطقة بشارع المرحومى بمصر القديمة .

ذكر إقامة الدعوة العباسية بمصر
وانقراض الدولة العلوية بها

كان الملك العادل نور الدين — رحمه الله — لما تحقق ضعف الدولة المصرية ، وأنه لم يبق لهم منعة كتب إلى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد ويخطب الخليفة من بنى العباس ، فاعتذر (١ صلاح الدين بن أيوب بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلوية ١) ، فلم يصغ نور الدين إلى قوله ، وأرسل إليه يلزمه ذلك إلزاماً لا فسحة فيه ؛ ثم اتفق مرض العاضد ، فاستشار صلاح الدين الأمراء فى قطع الخطبة له ، وكيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية ، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ، ومنهم من خاف من الإقدام على ذلك ؛ إلا أنه لم يمكنه إلا امتثال [أمر (٢)] نور الدين ؛ وكان قد رحل إلى ديار مصر رجل أعجمى يعرف بالأمير العالم (٣) ، فلما رأى ما بهم من الإحجام ، قال : « أنا أبتدى بها » .

---

(١) الصيغة فى س (٣١ ب) تختلف قليلا عنها هنا ، ونصها هناك : « فاعتذر صلاح الدين من وثوب أهل مصر عليه ، وامتناعهم من ذلك لميلهم إلى العلويين » .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤) .

(٣) ذكر (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٨) أن هذا الرجل هو أول من خطب للمستضىء وذكر أنه رآه بنفسه بعد ذلك فى الموصل . أنظر أيضاً : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤) ولكن (ابن الدبيثى : تاريخه باختصار الذهبى ، ونشر الدكتور مصطفى جواد ، ج ١ ، ص ١٤٢) ذكر أن أول من خطب للعباسيين رجل آخر اسمه « محمد بن المحسن بن الحسين ابن أبى المضاء البعلبكى أبو عبد الله » المتوفى سنة ٥٧٢ هـ . فقد قال فى ترجمته له : « وفاد إلى مصر ، واتصل بصلاح الدين سلطان مصر ، وهو الذى خطب للامام المستضىء بمصر ، ونفذه صلاح الدين رسولا إلى بغداد ، ثم رجع إلى دمشق فمات بها » . أنظر أيضاً : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٣ ، ١٩٥) حيث أورد نص رسالة بقلم القاضى الفاضل ، مرسلة من صلاح الدين إلى الخليفة المستضىء ، يبنئه فيها باقامة الخطبة له بمصر وأن من قام بالخطبة هو حامل الرسالة الخطيب شمس الدين بن أبى المضاء . انظر أيضاً : (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٣) و (المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٠) .

فلما كان يوم الجمعة (١) من المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة صعد المنبر قبل الخطيب ، ودعا للخليفة الإمام المستضىء بنور الله ، فلم ينكر [ذلك (٢)] أحد عليه ، فلما كانت الجمعة الآتية أمر صلاح الدين بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد ، وإقامة الخطبة المستضىء بنور الله ، ففعلوا ذلك ، فلم يتحرك مخالف لذلك ولا منكر له ، وانتظم الأمر ، وكوتب الخطباء فى ذلك فى سائر الأقاليم فخطبوا ؛ وكان العاضد قد اشتد مرضه ، فلم يُعلمه أهله وأصحابه بذلك ، وقالوا : « إن سلم فهو يعلم ، فلا ينبغى أن نُنَغِّص عليه هذه الأيام التى قد بقيت من أجله (٣) » .

ذكر وفاة العاضد

ثم توفى العاضد [١٢٣] فى يوم عاشوراء من السنة ، وهو آخر خلفاء مصر ، وانقضت مدتهم ، ولكل شىء آخر ، فسبحان المتفرد بالأزلية والأبدية .

وذكر ابن الأثير أنه لما اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه ليوصيه ، فظن أن ذلك خديعة ، فلم يمض إليه ، فلما توفى علم صدقه ، فندم على تخلفه عنه .

---

(١) فى س (٣١ ب) : « أول جمعة » . وكذلك فى الروضتين .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤) .

(٣) اختلفت الآراء فى أسباب موت العاضد ، وهل مات قبل أن تقطع الخطبة باسمه أم بعد ذلك وقد أورد (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٦) — نقلا عن ابن أبى طى — موجزاً لهذه الآراء ، قال : « . . وقيل إن العاضد لما اتصل به ما فعل من قطع اسمه من الخطبة ، قال : لمن خطب ؟ قيل له : لم يخطب لأحد مسمى ، قال : فى الجمعة الأخرى يخطبون لرجل مسمى . واتفق أنه مات قبل الجمعة الثانية . قيل إنه افكر واستولى عليه الفكر والهم حتى مات . وقيل إنه لما سمع انه قطعت خطبته اهتم وقام ليدخل إلى داره فعثر وسقط ، فأقام متعللا خمسة أيام ومات . وقيل إنه امتص فص خاتمه وكان تحته سم فمات . ولما اتصل موته بالملك الناصر قال : لو علمنا أنه يموت فى هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة ، فحكى أن القاضى الفاضل قال للسلطان : لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت ، أشار إلى أن العاضد قتل نفسه . . » .

وأما مؤلف كتاب الروضتين [١] فإنه حكى فى كتابه أنه اجتمع بالأمير أبى الفتوح ابن العاضد وهو محبوس مقيد سنة ثمان وعشرين وستمائة ، فأخبره أبو الفتوح أن أباه فى مرضه استدعى صلاح الدين فحضر ، قال : « وأحضرنا — يعنى أولاده — ونحن صغار ، فأوصاه بنا ، فالتزم إكرامنا واحترامنا » ؛ ولما توفى العاضد جلس الملك الناصر للعزاء وأظهر البكاء والحزن عليه . ومشى فى جنازته إلى قبره ؛ ثم تسلم القصر بما فيه من الخزائن [والذخائر [٢]] ، والدفاتر والدواوين .

وكان لما جرى لمؤتمن الخلافة ما جرى وقتل ، وكل صلاح الدين بالقصر الأمير بهاء الدين قراقوش [٣] الأسدى ، وجعله زمام القصر مقام مؤتمن الخلافة فترتب فى القصر فما كان يدخل إلى القصر شىء ولا يخرج منه شىء إلا بمرأى منه ومسمع ، فضاق خناق [٤] أهل القصر بسببه ؛ فلما مات العاضد احتيط على أهله وأولاده فى موضع خارج القصر فى مكان أفرد لهم [٥] ، وقرر لهم شيئاً برسم الكسوة والنفقة

---

(١) انظر (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س (١٣٢) .

(٣) قراقوش كلمة تركية معناها الطائر الأسود ، وإن كان ابن خلكان قد ذكر أن معناها « العقاب » ، أنظر ترجمته فى : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥) و (ابن أبى الوفاء : الجواهر المضية فى طبقات الحنفية ، ج ٢ ، ص ٤٤٣ — ٤٤٤) ، (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٧٦ — ١٧٨) . و (الدكتور عبد اللطيف حمزة : كتاب حكم قراقوش) و (المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢ — ٤) .

(٤) كتب كاتب أمام هذا اللفظ بالهامش من الأصل معناه باللاتينية هكذا « خناق funis » .

(٥) روى صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ١٩٤) عن الأمير أبى الفتوح بن العاضد أن قراقوش « جعلهم فى دار برجوان فى الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة ، وهى دار كبيرة واسعة ، كان عيشهم فيها طيباً ، ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها ، وأبعدوا عنها » .

وما يحتاجون إليه ، وجمع الباقين من عومتهم وعِترتهم (١) فى القصر فى إيوان ، واحترز عليهم فى ذلك المكان ، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا ، ثم عرض من بالقصر من الجوارى والعبيد والعدد والآلات والذخائر النفيسة : فأطلق من ثبتت حريته ، ووهب الباقى من الرقيق ، وأخلى الدور ، وأغلق القصور ، وأخذ ما صلح له ولأهله ولأمرائه وخواص مماليكه وأصحابه من نفائس الذخائر والملابس ؛ ومن جملة ذلك : الدُّرَّةُ اليتيمة ، والياقوتة الغالية القيمة ، والمصنوعات العنبرية ، والأوانى الفضية ، والصوانى الصينية ، والمنسوجات المغربية (٢) ، [١٢٤] والمزوجات (٣) الذهبية ، وغير ذلك مما لا يقع عليه الاحصاء ؛ وأسرف فى العطاء والبذل ، وأطلق البيع بعد ذلك فيما دون ذلك : واستمر البيع مدة عشر سنين .

وكانت خزانة الكتب (٤) لم تزيد على مائة ألف وعشرين ألف مجلدة ، وفيها النفائس من الكتب التى لا يكاد يوجد مثلها ، ومنها ما هو مكتوب بالخطوط المنسوبة التى لا توجد فى خزانة أحد من الملوك ، فحُمل من الكتب إلى الشام ثمانية أحمال ، وتُرك الباقى فبيع بعضه ، وأطلق البعض لمن يختص به .

وتملَّك صلاح الدين الأملاك التى لهم ، وضربت الألواح على رباعهم ودورهم ،

---

(١) كتب أمام هذا اللفظ بهامش الأصل معناه باللاتينية هكذا : « عِترة proganies familia » .

(٢) فى س (٣٢ ب) : «الغربية» .

(٣) فى الأصل : « المهروجات » وما هنا عن : « الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤) . والمزوج نوع من القماش الثمين المنسوج بالذهب . هكذا عرفه (Dozy : *Supp. Dict. Arab.*) بأنه : « nom d'une étoffe precieuse, brocarat d'or » .

(٤) لاستيفاء الكلام عن هذه المكتبة وقيمتها انظر : (المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ — ٢٥٥) و (ابوشامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٠) و (الدكتور حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ، ص ١٤٠ — ١٤١) .

ثم ملك بعضَها خاصتُه وأمراؤه ، وبعضها أُذن ببيعه ، وتعفَّت آثارهم بالكلية ، إن فى ذلك لموعظة وذكرى لأولى الألباب ، [كما قال بعضهم (١)] :

إذا امتحنَ الدنيا لبيبٌ تكشَّفتْ   له عن عدوٍّ فى ثيابِ صديقِ

وكان جميع من ولى الخلافة منهم بمصر أحد عشر خليفة(٢) ، وولى منهم بالمغرب ثلاثة ، فكانت عدتهم أربعة عشر خليفة (٢) ، عدة خلفاء بنى أمية بالمشرق .

وقد تكلم الناس فى أنسابهم فأكثروا وأطالوا ، فمن مصحح ومبطل ، والله أعلم بغيبه ؛ وقد ذكرت ما قيل فى ذلك فى التاريخ الكبير (٣) ، إلا أن الذى اعتقدته وحققته من تواريخ كثيرة أن القوم أدعياء لاحظ لهم فى النسب الهاشمى ، فمن المؤرخين من قال إن جدهم يهودى(٤) ، ومنهم من قال إنه من الفرس ؛ والنسابون

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٣٢ ب) .

(٢) فى الأصل : « رجلا » ، وما هنا عن س .

(٣) المعروف أن ابن واصل ألف فى التاريخ كتابين اثنين : أحدهما مفرج الكروب هذا ، والثانى ألفه للملك الصالح نجم الدين أيوب ، وسماه « التاريخ الصالحى » لأنه كان ينوى تقديمه اليه ، والمرجح أن هذه الاشارة إلى التاريخ الكبير يقصد بها التاريخ الصالحى . وهو تاريخ عام مختصر أرخ فيه ابن واصل للعالم الاسلامى منذ عهد الرسول إلى سنة ٦٣٧ هـ . وهى السنة التى تولى فيها الصالح عرش مصر . انظر : (الدكتور جمال الدين الشيال : جمال الدين بن واصل وكتابه مفرج الكروب) . وهو بحث لم ينشر بعد . و (C. Cahen : *La Syrie du nord à l'Epoque de Croisades.* p. 70—71)

(٤) تردد القول بانتساب الفاطميين إلى أصل يهودى فى كثير من المصادر التاريخية القديمة وناقش هذا القول كثيرون من المؤرخين المحدثين ، أنظر مثلا : (ابن مالك الحمادى اليمنى : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، ص ١٧ — ٢٠) و (الجندى أخبار القرامطة — ضمن تاريخ اليمن لعمارة — ص ١٤٠) و (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٧٥) و (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣) و (المقريزى : اتعاظ الحنفا ، نشر جمال الدين الشيال ، ص ٥٥ — ٥٦) و (O'Leary : *The Fatimid Caliphate.* p,33—84) و (B. Lewis : *The Origins of Ismailism.* p. 68.)

من الفاطميين قد أطنبوا فى ذلك وذكروه فى كتبهم ، وكتب الشريف المرتضى[١] الموسوى نقيب العلويين وأخوه الرضى[٢] خطهما بالقدح فى نسبهم ، وأنهم ليسوا من ولد على بن أبى طالب — رضوان الله عليهم — ، وشهد بذلك أيضاً جماعة من أكابر العلويين[٣] ، ومما يشهد بذلك أن القوم كانوا لا يوصلون نسبهم ، بل ينسبون أنفسهم إلى عبيد الله المهدى ، ثم يقولون : « ابن الأئمة المستورين » ؛ ولو كان نسبهم صحيحاً لصرّحوا كما صرّح بنو العباس بنسبهم ، وأى حاجة بهم إلى الغمغمة ؛ وغاية ما يقولون إن الثلاثة المستورين كانوا يسترون أنفسهم خوفاً من بنى العباس ، فهم لما ملكوا وقهروا وزال عنهم الخوف كان ينبغى [١٢٥] أن يصرحوا بأسماء أولئك ولا يكتموهم ، إذ قد زالت العلة المقتضية للكتم ، ولقد حُكى أن رجلا رمى ورقة إلى بعض خلائفهم[٤] وهرب فلم يعرف ، وكان فى الورقة :

---

(١) أبو القاسم على الشريف المرتضى ، ولد سنة ٣٥٥ وتوفى سنة ٤٣٦ ، تولى نقابة الطالبيين نيابة عن أبيه — مدة حياته — ثم وليها وحده سنة ٤٠٦ بعد وفاة أخيه الشريف الرضى ، كان شاعراً مجيداً كأخيه ، وله ديوان ومؤلفات فى المذهب الشيعى ، انظر : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٣ — ٦) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٥٣) وانظر بيان مؤلفاته المطبوعة فى : (معجم سركيس) .

(٢) أبو الحسن محمد الشريف الرضى ، ولد سنة ٣٥٩ وتوفى سنة ٤٠٦ ببغداد . كان شاعراً ممتازاً ، وطبع ديوانه مرتين . انظر ترجمته بالتفصيل فى : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ، ص ٤٤ — ٤٨) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣ — ٤) و (المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٣٨ ، هامش ١) .

(٣) انظر أسماء الذين وقعوا على هذا المحضر العباسى بالقدح فى نسب الفاطميين فى : (المقريزى : اتعاظ الحنفا ، نشر الشيال ، ص ٤٥ — ٤٦) .

(٤) حدث هذا فى عهد الخليفة العزيز بالله ، أول ولايته على مصر . انظر : (النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١١٦) .

[إنا سمعنا نسباً منكراً   يُتلى على المنبرِ فى الجامع][1]
إنْ كنتَ فيما تدّعى صادقاً   فا كشف لنا عن جدك السابع[2]
[وإن تُرد تحقيقَ ما قلته   فانسُبْ لنا نفسَك كالطائع][1]
أو فَدَعِ[3] الأنسابَ مستورةً   وادخُل بنا فى النسبِ الواسع
فإنّ أنسابَ بنى هاشم   يقل[4] فيها طَمَعُ الطامع

ولقد صدق كاتب هذه الورقة ، فإنا نجد الأشراف من بنى هاشم والعباس[5] يصلون أنسابهم ويصرحون بها ، وهؤلاء يكتمونها ، فللكتمان علة لا محالة ، وما أظن إلا أن غرضهم أنهم متى صرّحوا بالنسب بانَ زَيفُهم عند النقاد ، فهذا ما يتعلق بنسبهم .

و[أما[6]] مذاهبهم ، فدعوتهم باطنية إسماعيلية ، وعنهم انتشر دعاة الملاحدة الباطنية فى الآفاق ، وهذه المقالة معروفة فى كتب المقالات والأصول ، فلا معنى لإيداعها كتب التاريخ .

ورأى القوم فى الإمامة بعد النبى — صلى الله عليه وسلم — لعلى بن أبى طالب — رضوان الله عليه — ثم للحسن بن على ، ثم للحسين ، ثم لعلى — بن الحسين —

---

(١) أضفنا هذين البيتين عن : (ابن خلكان : وفيات الأعيان) و (النجوم ، نفس الجزء والصفحة) وإضافتهما ضرورية إذ بهما يتضح المعنى المقصود من الأبيات مكتملة .

(٢) كذا فى الأصل ، والمقصود «بالسابع» هنا : الأئمة الثلاثة المستورين والأئمة الأربعة الذين حكموا فى المغرب . وصيغة المرجعين السالفين : « فاذكر أبا بعد الأب الرابع » وهذه الصيغة فيما أرى أصح لأن آباء العزيز إلى الأب الرابع وهو المهدى معروفون ، وقصد الشاعر أن يسأله عن الأئمة المستورين المجهولة أسماؤهم .

(٣) فى النجوم : « فدع » .

(٤) فى النجوم : « يقصر عنها » .

(٥) هذا اللفظ غير موجود فى س .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س (٣٣ ا) ، وهو ضرورى لإيضاح المعنى .

زين العابدين ، ثم لابنه محمد الباقر ، — وفارقوا فى ذلك الزيدية : الذاهبين إلى إمامة زيد — ، ثم لابن محمد جعفر الصادق بن محمد ، ثم لابنه إسماعيل بن جعفر — ، وفارقوا بذلك الإمامية الاثنى عشرية القائلين بإمامة موسى بن جعفر ، وغيرهم من أصناف الإمامية — ، ثم لابن إسماعيل محمد بن إسماعيل ، ثم أنهم اعتقدوا أن الإمامة صارت بعد محمد بن إسماعيل فى ثلاثة يسمونهم أئمة سَتْر ، ولا يبوحون بأسمائهم ، ولا ينطقون بذكرهم ، والثلاثة من وَلد محمد بن إسماعيل ؛ وقد اختلف فى أسمائهم اختلافاً كثيراً ثم إنهم قالوا : صارت بعد ذلك للمهدى عبيد الله (١) الظاهر بسِجِلْمَاسَة (٢) من بلاد إفريقية ، وقالوا إن بينه وبين محمد بن إسماعيل ثلاثة آباءهم أئمة الستر ، لم يظهروا أمرهم خوفاً من أعدائهم بنى العباس ، ثم قالوا : إن الامامة صارت بعد ذلك لابنه القائم بأمر الله [١٢٦] أبى القسم محمد ، ثم لابن القائم المنصور بالله إسماعيل ؛ وتوفى المهدى وهذان بالمغرب ، ثم صارت لابن المنصور المعز لدين الله أبى تميم مَعَدّ (٣) ، وهو أول من ملك الديار المصرية منهم ، دخلها غلامه جوهر فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وشرع فى بناء القاهرة وقصور الخلافة بها .

ثم قدم المعز من الغرب واستقر بقصره فى القاهرة فى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ، ثم صارت بعده لابنه العزيز بالله أبى المنصور نزار بن مَعَدّ ، ثم لابنه الحاكم بأمر الله أبى على المنصور ، ثم لابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبى الحسن على ، ثم لابنه المستنصر بالله أبى تميم مَعَدّ بن الظاهر بن الحاكم ؛ وطالت مدة خلافته حتى بلغت ستين سنة ، ولم يلِ الخلافة أحد هذه المدة ؛ وهؤلاء كلهم على عمود النسب

(١) فى س (٣٣ ب) : « ابن عبد الله » ، وما هنا هو الصحيح .

(٢) ذكر (ياقوت : معجم البلدان) ان سجلماسة مدينة فى جنوب الغرب فى طرف بلاد السودان ، بينها وبين فاس عشرة أيام .

(٣) فى س : « بمصر » وما هنا هو الصحيح .

ثم اختلفت الباطنية من هنا وافترقوا ، (١ وسبب افتراقهم ١) . أن أحد الدعاة المسمى الحسن الصباح (٢) قدم على المستنصر بالله بمصر ، وطلب أن يكون داعياً له ببلاد العجم ، فأجابه إلى ذلك ، فسأله عن الإمام بعده ، فذكر أنه قال : إنه ولده نزار ؛ ولم يكن للمستعلي (٣) إذ ذاك ولد ، فمضى الحسن الصباح (٢) إلى بلاد العجم فدعا للمستنصر وبعده لولده نزار ، وبث دعوة الباطنية هناك ، فلما توفى المستنصر كانت الدعوة ببلاد العجم لنزار بن المستنصر وتسمى هذه الفرقة من الباطنية « النزارية » ، ودعوتهم ببلاد الآلَموت (٤) بالعجم ، وببلاد الشام بمَصْياف (٥)

---

(١) ما بين الرقمين غير موجود فى س .

(٢) فى الأصل : « الحسن بن الصباح » . أنظر : (الدكتور طه شرف : دولة النزارية أجداد أغا خان كما أسسها الحسن الصباح ، القاهرة ، ١٩٥٠) و (محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية ،شرقية وأندلسية ،ص٤٢ — ٦٠)و(Von Hammer: *Geschichte der Assassinen*)- ففيها جميعاً صورة واضحة للحسن الصباح ودعوته وملكه وجهاده فى سبيل نشر الدعوة وإقامة الملك .

(٣) كذا فى الأصل ، وهو غير واضح المعنى . إذ أن الحسن الصباح وصل إلى مصر سنة ٤٦٩ هـ وغادرها فى أوائل سنة ٤٧٢ هـ . وكان عمر المستعلى وقتذاك سنتين أو ثلاث (فقد ولد سنة ٤٦٧ هـ) فكيف يكون له ولد أولا يكون له فى ذلك الحين . وإذا قرىء النص على أنه « ولم يكن المستعلى إذ ذاك ولد » فان المعنى يظل غامضاً كذلك .

(٤) آلموت قلعة جبلية فى الشمال الشرقى من بحر قزوين ، ومعنى آلموت عش النسر . وكانت هذه القلعة مقر الاسماعيلية النزارية إلى أن قضى عليهم المغول هناك سنة ٦٥٤ هـ . انظر (دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « ألموت ») .

(٥) هى عند (ياقوت : معجم البلدان) : « مصياب » ثم يقول : « وبعضهم يقول : مصياف » ويعرفها بأنها حصن حصين مشهور للاسماعيلية بالساحل الشامى قرب طرابلس . ولكن (R. Dussaud: *Topographie Historique de la Syrie ... etc. p. 143 et suiv*) يذكر أن الرسم « مصياب » الوارد فى (ياقوت) وحده خطأ . إذ لم يشاركه فيه غيره ؛ ولكنه اعتماداً على المراجع الجغرافية الأخرى وعلى النصوص والوثائق التاريخية يذكر أنها تنطق غالباً « مصْياد masyad » ولكنها تكتب فى أشكال مختلفة : « مصّيات masyath » و « مصيات masyat » .

وقلاعها لنزار بن المستنصر (١ وولده ، وإمامهم الذى يعتقدون إمامته يقولون إنه من ولد نزار بن المستنصر ١) ، والله أعلم بذلك .

ولم يزل هؤلاء الذين ينتسبون إلى نزار ببلاد العجم إلى أن انتهى الأمر إلى آخرهم ، وهو ركن الدين خورشاه (٢) بن علاء الدين محمد بن الحسن ، فحاصره هلاوو (٣) ملك التتار (١ — خذلهم الله تعالى — سنة خمس وخمسين وستمائة ، ثم ظفر به هلاوو ١) فقتله ، وقتل من معه من الباطنية الملاحدة ، وبقيت لهم حصون بالشام ، ففتحها السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ملك الإسلام والمسلمين ، وطهر البلاد منهم كما طهرها من سائر الشرك ؛ وكان نزار [١٢٧] الذى تنسب إليه النزارية ظهر بعد أبيه بالاسكندرية ، فقُبض عليه وقُتل .

وأما الباطنية المصريون فخالفوا هؤلاء فى الإمام بعد المستنصر ، فقالوا : صارت الإمامة بعده للمستعلى بالله أبى القاسم محمد ، ثم لابن المستعلى الآمر بأحكام الله أبى على المنصور ، ثم لابن عمه الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد بن أبى القاسم أحمد بن المستنصر ، ثم لابن الحافظ الظافر بالله إسماعيل ، ثم لابن الظافر الفائز بنصر الله عيسى ، ثم لابن عمه العاضد لدين الله أبى محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ .

---

(١) ما بين الرقمين غير موجود فى س .

(٢) فى الأصل : « خسرو » وقد صحح بعد مراجعة : (دائرة المعارف الاسلامية : مادة « الاسماعيلية ») ، وركن الدين خورشاه هو ابن علاء الدين محمد الثالث بن جلال الدين حسن الثالث . وقد ولى الحكم فى آلموت من ذى القعدة سنة ٦٥١ هـ إلى سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) حيث استولى المغول — أثناء تقدمهم نحو الخلافة العباسية — على ملكه ، وقبضوا عليه وقتلوه فى نفس السنة : انظر أيضاً : (الدكتور مصطفى طه بدر : محنة الاسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية على أيدى المغول ، ص ١٠٨ ، ١١٦) ، (ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ، ص ٣١٢ — ٣١٤) .

(٣) كذا فى الأصل ، والمقصود به « هولاكو » ويرسم هذا الاسم فى بعض الكتب العربية الأخرى هكذا : « هلاون » .

ثم لما توفى العاضد وزالت دولتهم قالت دعاتهم : إن الإمامة بعده لابنه داوود ابن العاضد ، ولقبوه « الحامد لله[١] » ؛ ثم توفى داوود هذا فى أيام الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب فى الحبس ، ثم قالوا إنها صارت بعده لابنه سليمان[١] ابن داوود بن العاضد ، وكان هذا سليمان قد أدخلت أمه إلى داوود فى الحبس سراً فوطئها داوود فحبلت بسليمان، ثم حملت الجارية إلى الصعيد فولدت سليمان، وترعرع[٢] وخفى أمره من الدولة الأيوبية عند بعض الدعاة ، فأعلم السلطان به ، وأظنه[٣] الملك الكامل بن الملك العادل ، فظفر به وحبسه بقلعة الجبل[٤] ، وسافرتُ إلى مصر سنة إحدى وأربعين وستمائة ، وكان سليمان هذا حياً ، وسمعت أن دعوة الإسماعيلية المصريين له ، ولهم فيه اعتقاد عظيم ، ورأيت من اجتمع به[٥] وتحدث معه ، فسألته عنه ، فأخبر[٥] أنه فى غاية الجهل والغباوة ؛ ثم توفى هذا سليمان بن داوود ابن العاضد بقلعة الجبل فى شهر شوال سنة خمس وأربعين وستمائة فى أيام السلطان الملك الصالح بن الكامل — رحمه الله — ولم يخلف ولداً ذكراً فيما نعلمه ، وسمعت

---

(١) لم تنته الأسرة الفاطمية بموت العاضد ، بل بقى منها أفراد لبثوا زمنا فى أسر الأيوبيين وهم يعتقدون بأحقيتهم فى الخلافة ، وللتعرف على هؤلاء الأفراد وعلى الجهود الفاشلة التى بذلت فى سبيل إعادتهم للحكم فى بعض الأحيان انظر :

(Casanova : *Les Derniers Fatimides. Mémoires de La Mission Archéologique Francaise du Caire. Tome VI, 1893. P. P. 415-145*) ;

(S. M. Stern : *The Succession of the Fatimid Imam Al-Āmir, The Claims of the Later Fatimids to the Imamate, And the Rise of Tayyibi Ismailism. Oriens, Vol. 4, no. 2, P P. 193 ff*).

(٢) فى الأصل : « وتزع » ، وما هنا عن س (٣٤ ا)

(٣) فى س (٣٤ ب) : « وتطلبه » .

(٤) فى س (٣٤ ب) قبل هذا اللفظ الجملة الآتية : « قال صاحب الكتاب جمال الدين ابن واصل قاضى القضاة بحماة المحروسة » .

(٥) ما بين الرقمين يقابله فى س : « وتحدثت معه فسألت عنه فأخبرت . . إلخ » وما هنا هو الصحيح إذ به يستقيم المعنى ولاحظ ما لهذه الجملة من أهمية ، فهى تنص على وجود المؤلف فى القاهرة فى سنة ٦٤١ هـ ، وزيارته القلعة أثناء مقامه بها .

بعض من ينتمى إلى مذهبهم يدعى أن له ولداً ذكراً قد أخفى أمره حسب ما كان يخفى سليمان والده ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

وبقى منهم رجلان محبوسان بقلعة الجبل بالقاهرة المحروسة ، شيخان ، جدهما (١) العاضد ، [١٢٨] وكان أحدهما واسمه القاسم قد بلغه أنى صنفت تاريخاً (٢) للسلطان الملك الصالح ، وذكرت فيه أخبار هؤلاء القوم وما قاله النسّابون فيهم ، وأن بعضهم قال إن أصلهم من اليهود ، فطلعت يوماً إلى القلعة المحروسة ، ودخلت على باب الحبس والقاسم بن ابن العاضد هذا قاعد على بابه ، فسأل عنى ، فعُرِّف بى ، فاستدعانى ، فأتيته ، فقال : « أنت ذكرت أن نسبنا يرجع إلى اليهود ؟ » فخجلت منه ، وما أمكننى له إلا الاعتراف بذلك ، وأحلت الأمر على أقوال المؤرخين [فسكت (٣)] .

وبالجملة فمذاهب القوم رديئة مخالفة لكتاب الله تعالى وسنة رسوله — صلى الله عليه وسلم — وما كان عليه السلف الصالح ، واعتقادهم فى الإلهيات ينزع إلى رأى المتفلسفة ، وإنما سموا باطنية ، لأنهم ينزلون القرآن على معانٍ موافقة لرأيهم ، ويصرفونه عن ظاهره ، ولهم فى هذا الباب حديث كثير وخبط طويل ، وقد انتدب جماعة من أعيان العلماء للرد عليهم ، منهم : الشيخ أبو حامد الغزالى — رحمه الله —

---

(١) فى الأصل وفى س (٣٤ ب) : « أحدهما » ، وقد صححت كما بالمتن ليستقيم المعنى . وهذا نص نادر هام انفرد ابن واصل فيه بذكر بعض الحقائق عن بقايا الأسرة الفاطمية بعد زوال الدولة ، وفى (الروضتين) و (الخطط للمقريزى) نصوص أخرى تتصل بالموضوع ، وقد أفاد من هذه النصوص جميعاً (Casanova) فى بحثه السالف الذكر .

(٢) يشير إلى (التاريخ الصالحى) وهو الكتاب التاريخى الثانى للمؤلف .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س (٣٤ ب) .

فإنه رد عليهم فى كتاب له سمّاه : « المستظهرى [١] » ، حكى فيه صورة مذهبهم ، وبالغ فى الرد عليهم والنقض لأقاويلهم .

وكان عمارة بن على اليمنى شديد التعصب لهم ؛ لأنه قدم عليهم من اليمن فأحسنوا إليه وخوّلوه ، فرعى ذلك ووفى لهم ، والإنسان — كما قيل — صنيعة الإحسان ، ولم يكن على مذهبهم ، وإنما كان شافعياً سنياً ، فلما زال أمرهم رثاهم بأحسن [٢] الشعر ، وذبّ عنهم باللسان إذ لم يمكنه الذبّ عنهم باليد ؛ ثم لما تحرك جماعة فى عوْد الأمر إليهم ، كان من جملة المساعدين على ذلك ، شكراً لهم على إحسانهم إليه ، فأدّى به ذلك إلى أن شُنِق — على ما سنذكره إن شاء الله تعالى — ، فمن جملة قوله فيهم يرثيهم بقصيدة [٣] ، ذكرتها بجملتها لفرط حسنها وهى :

رمَيْتَ يا دَهْرُ كَفّ المَجْدِ بالشَّلَلِ ... وجِيدَهُ بعد حُسْنِ الحَلْى بالعَطَلِ

سَعَيْتَ فى مَنْهَجِ الرَّأْىِ العَثُورِ فإنْ ... قَدَرْتَ من عَثَرات الدَّهْرِ [٤] فاستَقِلِ

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالى ، أصله من غزالة ، قرية من أعمال طوس ، وكان والده يغزل الصوف ويبيعه . توفى سنة ٥٠٥ هـ . وله مؤلفات كثيرة ، منها هذا الكتاب المشار إليه هنا واسمه : (فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية) أو (المستظهرى) ، أهداه إلى الخليفة المستظهر العباسى ، وقد نشر الاستاذ كولدزيهر قطعة كبيرة منه ومعها مقدمة طويلة فى المذهب الباطنى باللغة الألمانية . (Goldziher: *Streitschrift des Gazali Gegen die Batinija-Sekte. Leiden. 1916*).

وانظر أيضاً ترجمة الغزالى فى : (ابن خلكان : الوفيات) و (السبكى : طبقات الشافعية ، ج ٤ ، ص ١٠١ وما بعدها) و (الدكتور زكى مبارك : الأخلاق عند الغزالى) و (سركيس : معجم المطبوعات العربية) .

(٢) فى س : « بالشعر » .

(٣) لتصحيح هذه القصيدة رجعنا إلى الكتب التاريخية المختلفة التى أوردتها ، وخاصة : (ديوان عمارة) و (الروضتين لأبى شامة) و (صبح الأعشى للقلقشندى ، ج ٣ ، ص ٥٢٦ وما بعدها) .

(٤) فى (الروضتين) : « البغى » .

جدعتَ مارِنَكَ الأقنى ، فأنفُكَ لا ... ينفكُّ ما بين أمرَ (١) الشَّيْنِ والخجلِ

[١٢٩] هدَمْتَ قاعدةَ المعروفِ عن عَجَلٍ ... سُقيتَ مُهْلًا (٢) ، أما تمشى على مَهَلِ ؟

لهْفِي ولهْفَ بنى الآمالِ قاطبةً ... على فجيعتِها (٣) فى أكرمِ الدُّوَلِ

قَدِمْتُ مصرَ فأولتْنِي خلائفُها ... من المكارمِ ما أربى على أملِي (٤)

قومٌ عرفتُ بهم كسْبَ الألوفِ ، ومِنْ ... كمالِها أنها جاءتْ ولم أسلِ

وكُنْتُ من وُزَرَاءِ الدَّسْتِ حيثُ سَمَا (٥) ... رأسُ الحصانِ يهاديهِ على الكَفَلِ

ونِلْتُ من عُظَمَاءِ الجَيْشِ تكرِمَةً ... وخُلَّةً حُرِسَتْ من عارِضِ الخللِ

يا عاذلى فى هوى أبناءِ فاطِمَةَ ... لكَ الملامَةُ إن قصَّرْتَ فى عذَلِي

باللهِ زُرْ ساحةَ القصرَيْنِ وابكِ معى ... علَيْهِما (٦) ، لا على صِفِّينَ والجَمَلِ

وقُلْ لأهليهما : واللهِ ما التحمَتْ ... فيكم جُرُوحِى ، ولا قَرْحِى بمُنْدَمِلِ

ماذا تُرى كانت الإفرِنْجُ فاعلةً ... فى نسلِ [آلِ] (٧) أميرِ المؤمنينَ علِي ؟

[هل كان فى الأمرِ شىءٌ غيرِ قِسْمَةِ ما ... ملَكْتُمُو بينَ حُكْمِ السَّبْيِ والنَّفَلِ (٨)] ؟

---

(١) فى (الروضتين) : « نقص » .

(٢) المهل ما ذاب من صفر او حديد ، وهكذا فسر فى التنزيل . (اللسان) ؛ وفى (صبح الأعشى) : « شقيت » مهلا . . . الخ » وهو اجتهاد غير موفق فى قراءة النص .

(٣) فى (الروضتين) : « لجيتنا » .

(٤) فى (الروضتين) : « على الأمل » .

(٥) فى س (١٣٥) : « أشا » .

(٦) فى الأصل : « ونح عليها » ولا يستقيم بها الوزن ؛ وما هنا عن : (الروضتين) و (صبح الأعشى) .

(٧) ما بين الحاصرتين عن س (٣٥ ب) ، و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٤) و (صبح الأعشى) .

(٨) هذا البيت غير وارد فى الأصل ، وإنما ورد فى (الديوان) وفى (الروضتين) و (صبح الأعشى) .

وقد حصلتُم عليها واسمُ جدِّكُمُ ... محمدٌ ، وأبوكُمْ خيرُ منتقِلِ (١)

مررتُ بالقصرِ ، والأركانُ خاليةٌ ... من الوفودِ ، وكانتْ قِبلَةَ القُبَلِ

فمِلْتُ عنها بِوَجْهِ(٢) ، خَوفَ مُنتقِدٍ ... من الأعادى ، ووجهُ الوُدِّ لم يمِلِ

أسبلتُ من أسَفٍ دمعى غَدَاةَ خلَتْ ... رِحابُكُمْ ، وغَدَتْ مهجُورةَ السُّبُلِ

أبكى على مَأثُراتٍ(٣) من مَكارِمِكُمْ ، ... حالَ الزمانُ عليها ، وهْىَ لم تَحُلِ

دارُ الضِّيافةِ كانتْ أُنسَ وافِدِكُمْ ... واليَوْمَ أوحشُ من رَسْمٍ ومن طَلَلِ

وفِطْرَةُ الصَّوْمِ إنْ أصغَتْ(٤) مَكارِمُكُمْ ... تَشكُو من الدَّهرِ حَيْفاً غيرَ مُحْتَمِلِ

وكُسْوَةُ الناسِ فى الفَصْلَيْنِ قد دَرَسَتْ(٥) ، ... ورَثَّ منها جَديدٌ عنهم(٦) وَبَلِى

ومَوْسِمٌ كان فى يومِ(٧) الخليجِ لكُمْ ... يَأْتى تجمُّلُكُمْ فيه على الجَمَلِ

وأوَّلُ العامِ والعيدَيْنِ(٨) كَمْ لَكُمْ ... فيهِنَّ من وَبْلِ جُودٍ ليس بالوَشَلِ

والأرضُ تهتزُّ فى يومِ الغَديرِ كما(٩) ... يَهتزُّ ما بَيْنَ قَصْرَيْكُمْ من الأَسَلِ

[١٣٠] والخيلُ تُعرَضُ فى وَشْيٍ وفى شِيَةٍ(١٠) ... مثلَ العرائسِ فى حَلْيٍ وفى حُلَلِ

---

(١) كذا فى الأصل وفى (صبح الأعشى) ؛ وفى (الديوان) و (الروضتين) : « غير منتقل » .

(٢) فى « الروضتين » : « بوجهى » .

(٣) فى الأصل وفى « الروضتين » و « الديوان » : « ما تراءت » ، وما هنا عن : « صبح الأعشى » .

(٤) فى « الصبح » : « إذا اضحت » .

(٥) فى س : « دنست » .

(٦) فى « الصبح » : « عندم » .

(٧) فى « الروضتين » : « كسر » .

(٨) فى « الروضتين » : « والعيدان كان لكم » .

(٩) فى « الروضتين » : « عيد الغدير بما » .

(١٠) فى « الروضتين » : « من وشى ومن شية » .

وما حملتُمْ[(١)] قِرى الأضيافِ من سَعَةِ الـ أطباقِ إلا على الأكتافِ والعَجَلِ
وما خصصتُمْ بِبِرٍّ أهلَ ملّتكُمْ[(٢)] حتى عممْتُمْ به الأقصى من المِلَلِ
كانتْ رواتبكُمْ للوافدين ،[(٣)] وللضيْـ ـفِ المقيم ، وللطارى من الرُسلِ
ثم الطِّرازُ بِتِنِّيسَ الذى عظُمتْ[(٤)] منه الصِلاتُ لأهلِ الأرضِ والدُوَلِ
وللجوامعِ من أحْبَاسِكُم[(٥)] نِعَمٌ لمن تصدَّرَ فى عِلْمٍ وفى عملِ
ورُبَّما عادتْ الدُنيـا ، فمعقلُها[(٦)] منكم ، وأضحتْ بكم محلولةَ العقُلِ
واللهِ لا فازَ يومَ الحشرِ مُبغِضُكُمْ ، ولا نجا من عذاب النّار غيرُ وَلِى
ولا سُقِى الماءَ من حرٍّ ومن ظَمأٍ مِنْ كفِّ خيرِ البرايا خاتمِ الرُسُلِ
[ولا رأى جنّةَ اللهِ التى خُلقتْ مَنْ خانَ عَهْدَ الإمامِ العاضِدِ بنِ علِى[(٧)]]
أئمتى ، وهُدَاتى ، والذخيرةُ لى ، إذا ارتُهِنْتُ بما قدّمْتُ من عَمَلِ
تاللهِ لم أُوفِهِمْ[(٨)] فى المدحِ حقَّهُمُ لأنّ فضلَهُمُ كالوابِلِ الهطِلِ
ولو تضاعفتْ الأقوالُ واستَبَقَتْ ما كُنتُ فيهم بحمدِ اللهِ بالخجِلِ[(٩)]
بابُ النجاةِ فهم ، دُنيا وآخرةً وحُبُّهُمْ فهْوَ أصلُ الدِّينِ والعملِ

---

(١) فى (الروضتين) : « ولا حملتم » .
(٢) فى (صبح الأعشى) : « أهل مماسكة » .
(٣) فى (الروضتين) : « للذمتين » .
(٤) فى الأصل : « التى عظمت من » ، وفى س (٣٥ ب) : « بيلبيس الذى » ، وما هنا عن (الديوان) و (صبح الأعشى) .
(٥) فى (الديوان) : « إحسانكم » ، وفى (الصبح) : « احباسكم » .
(٦) كذا فى الأصل وفى (الصبح) ، وفى (الديوان) : « لمعقلها » .
(٧) أضيف هذا البيت عن (الديوان) .
(٨) فى (الصبح) : « والله لم نوفهم » .
(٩) فى س (١٣٦) : « كالخجل » .

نورُ الهُدى ، ومَصَابِيحُ الدُّجَى ومحـ ـلُ الغيثِ إنْ وَنَتْ الأَنْواءُ فى المَحَلِ
أئِمَّةٌ خُلِقُوا نُوراً ، فَنورُهُمُ من نُورِ خَالِصِ نُورِ اللهِ لم يَفِلِ
واللهِ لا زِلْتُ عن حُبِّي لهم أبَداً ما أَخَّرَ اللهُ لى فى مُدَّةِ الأَجَلِ
[عُمَارَةٌ قالها المِسْكِينُ وهو على خَوْفٍ من القَتْلِ، لا خَوْفٍ من الزَّلَلِ(١)]

ولما وردت البشائر على الملك العادل نور الدين — رحمه الله — بالخطبة بمصر للإمام المستضىء بنور الله أمير المؤمنين سُرَّ بذلك ، وكتب إلى سائر الأطراف بالبشارة ، وندب القاضى شهابَ الدين أبا المعالى المُطَهَّر بن الشيخ شرف الدين ابن أبى عصرون بهذه البشارة إلى الديوان العزيز ؛ وأمر كاتبه عماد الدين الأصفهانى بإنشاء بشارة تُقرأ فى سائر البلاد الإسلامية ، وبشارة أخرى خاصة [١٣١] تُقرأ بحضرة الإمام فى مدينة السلام .

ونظم عماد الدين قصيدة مشتملة على ذكر الخطبة للدولة العباسية ، ويمدح فيها الإمام المستضىء بنور الله :

قَد خَطَبْنَا للمُسْتَضِىءِ بمصر نائبِ المُصْطَفَى إمَامِ العَصْرِ
وَخَذَلْنَا لِنُصْرَةِ العَضُدِ العَـ ـاضِدِ(٢) والقَاصِرِ الذى بالقَصْرِ
واتّبَعْنَا بها شِعَارَ بَنِى العَبَّـ ـاسِ ، فاستَبْشَرَتْ وُجُوهُ النَّصْرِ
وتَرَكْنَا الدَّعِىَّ يَدْعُو(٣) ثُبُوراً وهو بالذُّلِّ تحتَ حَجْرٍ وَحَصْرِ(٤)
وتَبَاهَتْ مَنَابِرُ الدين بالخُطْـ ـبَةِ لِلهَاشِمِىِّ فى أَرْضِ مِصْرِ

---

(١) أضيف هذا البيت عن (الديوان) .
(٢) فى س (١٣٦ ا) : « العاضل والقاصر بالقصر » .
(٣) فى الأصل وفى س (١٣٦ ا) : « يدعى » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٨) .
(٤) فى الأصل « وخسر » ، وما هنا عن : (الروضتين) .

وَلَدَيْنَا تَضَاعَفَتْ نِعَمُ اللَّـ ... ـهِ ، وَجَلَّتْ عن كُلِّ عَدٍّ وَحَصْرِ
واغْتَدَى الدينُ ثابتَ الرُّكْنِ فى مِصْـ ... ـرَ مَحُوطَ الحِمَى ، مَصُونَ الثَّغْرِ
واسْتَنَارَتْ عَزائِمُ المَلِكِ العَا ... دِلِ نُورِ الدينِ الكَرِيمِ الأَغَرِّ
فَبَنُو الأصفَرِ القَوَامِيصُ(١) منه ... فى وُجُوهٍ — من المَخَافَةِ — صُفْرِ
عَرَفَ الحَقَّ أهلُ مِصْرَ ، وَكَانُوا ... قَبْلَه بَيْنَ مُنْكِرٍ وَمُقِرِّ
هُوَ فَتْحٌ بِكْرٌ ، وَدُونَ البَرَايَا ... خَصَّنَا اللهُ بافْتِتَاحِ البِكْرِ
وَحَصَلْنَا بالحَمْدِ والأَجْرِ والنَّصْـ ... ـرِ وَطِيبِ الثَّنَا وحُسْنِ الذِّكْرِ
وَنَشَرْنَا أعلامَنَا السُّودَ ، قَهْرًا ... لِلعِدَى الزُّرْقِ ، بالمَنَايَا الحُمْرِ
واستَعَدْنَا من أدْعِيَاءَ حُقُوقًا ... تُدَّعَى بَيْنَهُمْ لِزَيْدٍ وَعَمْرِو
والذى يَدَّعِي الإمامَةَ بالقَا ... هِرَةِ انحطَّ فى حَضِيضِ القَهْرِ
خانَهُ الدَّهْرُ فى مُنَاهُ ، ولا يَطْـ ... ـمَعُ ذو اللُّبِّ فى وَفَاءِ الدهرِ
ما يُقَامُ الإمامُ إلا بِحَقٍّ ... ما تُحَازُ(٢) الحَسْنَاءُ إلا بِمَهْرِ
خُلَفَاءُ الهُدَى ، سَرَاةُ بنى العَبْـ ... ـاسِ ، والطَّيِّبُونَ أهلُ الطُّهْرِ
بِهِمُ الدينُ ظَافِرٌ مُسْتَقِيمٌ ... ظَاهِرٌ قُوَّةً ، قَوِيُّ الظَّهْرِ
[١٣٢] كَشُمُوسِ الضُّحَى ، كَمِثْلِ بُدُورِ التَّـ ... ـمِّ ، كالسُّحْبِ ، كالنُّجُومِ الزُّهْرِ
قَدْ بَلَغْنَا بالصَّبْرِ كُلَّ مُرَادٍ ، ... وَبُلُوغُ المُرَادِ عُقْبَى الصَّبْرِ
لَيْسَ مُثْرِى الرجالِ من يَمْلِكُ المَا ... لَ ، وَلَكِنَّمَا أخو اللُّبِّ مُثْرِى

---

(١) كذا فى الأصل وفى الروضتين ؛ وهى فى س (٣٦ ب) : « القواجر » .
(٢) فى الأصل وفى س : « تخار » ، وما هنا عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٨) .

ولهذا لم يَنْتَفِعْ صاحِبُ القَصْـ ـرِ وقد شارَفَ الدثُورَ بدثْرِ
دَامَ نَصْرُ الهُدَى بِمُلْكِ بنى العَبَّـ ـاسِ حتى يَقُومَ يَوْمَ الحشْرِ

ولما وصلت البشارة إلى الديوان العزيز النبوى قوبلت بالإكرام والإعظام والإنعام التام؛ وكان وصول البشارة بذلك يوم السبت لثمانٍ بقين من المحرم من هذه السنة — أعنى سنة سبع وستين وخمسائة — ، فجلس الوزير عضد الدولة ابن رئيس الرؤساء فى الديوان ، واستحضر أرباب المناصب والدولة والخواص والأمراء وأشار إلى كاتب الإنشاء أبى الفرج ابن الأنبارى (١) ، بقراءة مكتوب الملك العادل نور الدين ، ثم ثَنَّى بمكتوب بَرَزَ بخط الخليفة المستضىء بنور الله ، يتضمن الشكر لله على ما أباحه من عودة الحق إلى مستقره .

وكان مبدأ انقطاع الخطبة العباسية بها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وعادت الخطبة العباسية بها سنة سبع وستين وخمسائة ، فكان مدة انقطاع الخطبة العباسية بمصر نحو من مائتى سنة وتسع (٢) سنين .

ووصل إلى الشام جواب البشارة مع عماد الدين صندل (٣) المقتفوى ، وهو إذ ذاك أستاذ الدار العزيزة ، ولم يرد من بغداد رسول مثله فى جلالته وعظمة قدره؛ وورد صحبته التشريف الشريف لنور الدين مكملا بالأُهْبَة (٤) السود والحلل الموشية ، والطوْق الذهب الثقيل ، واللواء (٥) الجليل ؛ وحضر الرسول عند نور الدين ، وحضر أكابر الدولة والخواص ، وكان يوماً مشهوداً ؛ وقرأ موفق الدين خالد

---

(١) انظر ما فات هنا ، ص ٥٨ ، هامش ٣
(٢) فى س : « سبع » ، وهو خطأ .
(٣) فى (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٩) : « عماد الدين بن صندل » .
(٤) أهبة الحرب عدتها ، والجمع أُهَب . (اللسان) .
(٥) فى س (١٣٧) : « اللؤلؤ » وما هنا هو الصحيح ، انظر : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

ابن محمد بن صغير القَيْسَرَانى (١) كتابَ الديوان ، ثم لبس نور الدين الفَرَجِيَّة (٢) ، وتقلد بالسيفين (٣) ، ووُضع فى عنقه الطوق (٤) ، وخرج راكباً من داخل القلعة واللواء الأسود منشور على رأسه ، وقُدِّم له مركوبان ، أحدهما ركبه ، والآخر كان جنيباً [١٣٣] بين يديه ، محلى بحليته ، وجمع له بين تقليدى السيفين الإشعار بتقليده الاقليمين : الشام والديار المصرية ، وخرج إلى ظاهر دمشق ، ونثر عليه الذهب ، وانتهى فى تسييره إلى الميدان الأخضر ، ثم عاد إلى القلعة .

وكان صحبة الرسول تشريفٌ للملك الناصر صلاح الدين جليل كثير ، لكنه دون تشريف نور الدين ؛ فسيّره نور الدين — رحمه الله — إليه ، وسيّر أيضاً خلعاً من عنده برسم الأمراء من أصحابه .

---

(١) القيسرانى نسبة إلى قيسارية بليدة بالشام على ساحل البحر ، وقد ذكر صاحب الروضتين — نقلا عن البرق الشامى للعماد — أن خالداً هذا كان بمثابة الوزير لنور الدين ، ولم أعثر له على ترجمة وإنما ترجم (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ، ص ٨٢ — ٨٥) لأبيه محمد ابن نصر بن صغير القيسرانى ، وكان شاعراً مشهوراً ، وتوفى سنة ٥٤٨ هـ .

(٢) عرفها (Dozy : *Dictionnaire Detaillé des Noms des Vétements.* *p. p. 327—334 ; Supp. Dict. Arab*). بأنها « نوع من القباء المسترسل ، ويصنع غالبا اليوم من الجوخ وله أكمام واسعة طويلة تتعدى أطراف الأصابع ، وهى غير مفتوحة او مشقوقة "est une robe flottante, faite ordinairement aujourd'hui de drap, à manches amples et longues qui dépassent un peu l'extrémité des doigts, et qui ne sont point fendues".

(٣) ذكر صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ١٩٩) — نقلا عن البرق الشامى للعماد الكاتب — أن معنى إرسال الخليفة سيفين لنور الدين إنما هو رمز لتقليده ولاية مصر والشام معا فقد كان العماد حاضراً الحفل الذى قدمت فيه هذه الخلع والتشاريف إلى نور الدين ، قال — فيما رواه عنه صاحب الروضتين — : « وسألت عن معنى تقليده السيفين ، فقيل لى : هما الشام ومصر ، والجمع بين البلادين » وهو ما يؤكده المتن هنا بعد سطور قليلة .

(٤) ذكر صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ١٩٩) — نقلا عن البرق الشامى للعماد — ان وزن هذا الطوق مع أكرته كان ألف دينار من الذهب الأحمر ، هذا وتشابه النص هنا وفى الروضتين يدل دلالة واضحة على أن مصدرهما الذى ينقلان عنه واحد ، وهو البرق الشامى للعماد الأصفهانى ، وقد اعترف أبو شامة صراحة بالنقل عنه ، أما ابن واصل فقد نقل دون النص على مرجعه .

ولما وصل التشريف الخليفتى إلى مصر لبسه الملك الناصر صلاح الدين — رحمه الله — وركب به ، وذلك فى الحادى والعشرين من رجب من السنة المذكورة ، وهى أول خلعة عباسية دخلت مصر بعد انقراض دولة العلوية ؛ ووصل أيضاً إلى مصر أعلام ورايات سود ، وأهب عباسية للخطباء بسائر الأعمال المصرية ، ففرّقها صلاح الدين على الجوامع والمساجد والقضاة والعلماء ، واستقر قدم بنى أيوب بمصر ، واستتبت الملك لهم ، ففى ذلك يقول عرقلة الدمشقى :

أَصْبَحَ المُلْكُ بَعْدَ آلِ عَلِيٍّ مُشْرِقاً بالملوكِ مِنْ آلِ شَاذِى
وَغَدَا الشَّرْقُ يَحْسِدُ الغَرْبَ للقَوْ مِ ، وَمِصْرُ تَزْهُو على بَغْدَاذِ
ما حَوَوْها إلا بِعَزْمٍ وَحَزْمٍ وَصَلِيلِ الفُولاذِ فى الفُولاذِ
لا كَفِرْعَوْنَ والعَزِيزِ ، وَمَنْ كا نَ بِهَا كَالخَطِيبِ والأُسْتَاذِ

وفى هذه السنة — أعنى سنة سبع وستين وخمسمائة — خرجت من مصر مراكب ، إلى الشام فأخذ الفرنج فى اللاذقيّة منها مركبيْن مملوءتين من الأمتعة (١) والتجار ، وغدروا بالمسلمين ، وكانوا قد هادنوا نور الدين — رحمه الله — ونكثوا ، ولما بلغ ذلك نور الدين راسلهم فى إعادة المركبين فغالطوه ، واحتجوا بأن المركبين كان قد دخلهما ماء البحر (٢ لكسر فيهما ٢) ، وكانت العادة جارية بأخذ كل مركب يدخله الماء ، وكذبوا فى ذلك ، فلم يقبل مغالطتهم ، وجمع العسكر من الشام والموصل والجزيرة ؛ ووصل ابن أخيه سيف الدين غازى بن مودود إلى خدمته ، ثم بثّ السرايا نحو أنطاكية وطرابلس ، وحصر هو [١٣٤] حصن عرقا ، وأخرب ربضه ، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصن صافيتا وعزيمة ، فأخذوهما

---

(١) فى الأصل : « امتعة التجارة » ، وفى س (٣٧ ب) : « الأمتعة والتجار » وما هنا عن : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٤٠) .

(٢) هذان اللفظان غير موجودين فى س .

عنوة ، [وقتل كل من فيهما وسبى[1]] ، وخرَّب ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة ، وعادوا إليه وهو بعرقة .

وسار [نور الدين] بالعساكر نحو طرابلس فراسله الفرنج وبذلوا له إعادة[2] ما أخذوه من المركبين ، وطلبوا تجديد الهدنة ، فأجابهم إلى ذلك ، [ورُدت المركبان بما فيهما إليه ولم ينفد منها شيء[3]] .

ذكر ابتداء الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين
— رحمهما الله تعالى —

وفى هذه السنة أرسل نور الدين إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمصير بها إلى بلاد الفرنج ، والنزول بها على الكَرَك ومحاصرته ، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم ، فبرز صلاح الدين من القاهرة فى العشرين من المحرم من [هذه[3]] السنة ، وكتب إلى نور الدين أن رحيله لا يتأخر ، وكان نور الدين قد جمع العساكر وتجهز[4] ، فأقام ينتظر ورود [5] الخبر من صلاح الدين ورحيله ليرحل هو ؛ فلما أتاه [5] الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكَرَك ، فوصل إليه ، وأقام ينتظر صلاح الدين ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال أحوال البلاد[6] ، وأنه يخاف عليها من البعد عنها ، فعاد إليها ، فلم يقبل نور الدين عذره ورجع .

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٣٨ ا) ، ومكان هذه الجملة فى الأصل : « وكذلك غيرها » .

(٢) هذا اللفظ غير موجود فى س

(٣) ما بين الحاصرتين زيادات عن س (١٣٨) .

(٤) فى س : « وتجهزوا » .

(٥) هذه الجملة ساقطة من س .

(٦) فى س (١٣٨) : « باختلال البلاد وأحوالها » .

قلت : هكذا ذكر بعض المؤرخين ، ولم يذكر غيره أن نور الدين نازل الكرك فى هذه السنة ، بل كلهم ذكر أن نور الدين كاتب صلاح الدين بالمسير إلى الكرك ، فخرج متوجهاً إليها ، ثم عاد ، وكان السبب فى عود صلاح الدين أن أصحابه وخواصه خوّفوه من الاجتماع بنور الدين (١) .

ولما لم يمتثل صلاح الدين أمر نور الدين عظم ذلك عليه ، وعزم على الدخول إلى الديار المصرية وإخراج صلاح الدين عنها ، فبلغ الخبر إلى صلاح الدين فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين أيوب، وخاله شهاب الدين الحارمى ومعهم سائر الأمراء ، وأعلمهم بما قد عزم عليه نور الدين فى قصده وأخذ مصر منه ، واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشىء ، فقام ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه [١٣٥] بن نجم الدين أيوب ، وقال : « إذا جاء قاتلناه وصددناه عن البلاد » ، ووافقه غيره من أهله ، فشتمهم نجم الدين أيوب ، وأنكر ذلك عليهم غاية الإنكار ، وقال لصلاح الدين : « أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك ، أتظن فى هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا ؟ » فقال : « لا » ، فقال : « والله لو رأيتُ أنا وهذا خالُك نورَ الدين لم يمكننا إلا أن نترجل إليه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فإذا كنا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا ؟ وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ، ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه ، وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها ، فإن أراد عزْلك عزَلك (٢) ، وأى حاجة له إلى المجىء ؟ يأمر بكتاب مع نجّاب حتى تقصد خدمته ، ويولى بلاده من يريد » ، وقال للجماعة كلهم : « قوموا عنا فنحن

(١) صيغة س تختلف قليلا ، وهى : « بنور الدين فعاد إلى مصر ولم يمتثل أمر نور الدين ، فلما بلغ نور الدين ذلك عظم عليه . . . إلخ » .

(٢) فى س (٣٨ ب) « : فإن أراد عزلك فأى حاجة . . . إلخ » .

مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد » ، وتفرقوا على هذا الحال ، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر ، ولما خلا نجم الدين بابنه صلاح الدين قال له : « أنت جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما فى نفسك ، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك من أهم أموره وأولاها بالقصد ، ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحداً ، وكانوا يسلمونك إليه ، وأما الآن بعد هذا المجلس سيكتبون إليه ويعرفونه قولى ، فتكتب إليه وترسل فى هذا المعنى ، وتقول : « أى حاجة إلى قصدى ؟ نجَّاب يأخذنى بحبل يضعه [1] فى عنقى » ، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك [2] واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج ، والله كل يوم فى شأن » ؛ فعلم صلاح الدين صحة ما أشار به والده [ففعل ما أمره به [3]] ، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا عدل عن قصده ، واندرجت الأيام — كما قال نجم الدين [4] — وكان ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى س : « يصوره » .

(٢) فى س : « قصده اليك » .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (١٣٩) .

(٤) المصدر الأصلى لهذه القصة هو (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٩) وقد نقلها عنه مع تغييرات طفيفة (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٣ — ٢٠٤) ، ونص ابن واصل هنا متفق مع نص أبى شامة . وللأستاذ محمد فريد أبو حديد رأى مخالف فى هذا الموضوع . أنظر كتابه : (صلاح الدين الأيوبى وعصره ، ص ٧٣ — ٨١) . والذى نراه أن ابن الاثير يتلمس المناسبات أحياناً لغمز صلاح الدين ونقده وخاصة عند المقارنة بينه وبين نور الدين ، وقد يكون لنشأته فى الموصل — موطن نور الدين والبيت الأتابكى عموماً — أثر فى هذا . أنظر رأى الأستاذ جب فى هذا الموضوع فى : (H.A.H, Gibb : *The Arabic Sources for the Life of Saladin. Speculum. vol. XXV. No. 1 January 1950. pp. 58-74*).

ذكر منازلة السلطان الملك الناصر صلاح الدين
— رحمه الله — الكَرَك والشَّوبَك

وفى سنة ثمان وستين وخمسمائة خرج صلاح الدين — رحمه الله — فى النصف من شوال قاصداً الغزاة ، ومعه ما هو [١٣٦] برسم الهدية إلى نور الدين ، وهو : الفيل والحمارة العتّابيّة (١) وذخائر وأمتعة من القصر مستحسنة ، وآلات مثمنة ، وقطع بَلُّور (٢) ويَشْم (٣) ، وأوانٍ لا يُتصور وجودُ مثلها ، وثلاث قطع بَلَخْش (٤) أكبرها نيف وثلاثون مثقالا ، والثانية ثمانية عشر ، والأخرى دونها ، ومعها لؤلؤ نفيس ، وستون ألف دينار ، وغرائب من المصنوعات ، وطيب وعطر ، وغير ذلك ؛ فوصل (٥) إلى بلاد الكرك والشوبك ، فنازلها ونازل غيرهما من الحصون ، فأخرب عماراتها ، وشنّ الغارات على أعمالها .

---

(١) المقصود هنا أن هذه واحدة من حمر الوحش المخططة ، وقد ذكر (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ، ص ٢٢ — ٢٣) و (ابن الأثير : اللباب فى تهذيب الأنساب) أن « العتابى » نسبة إلى « العتابيين » وهى إحدى محال بغداد فى الجانب الغربى منها ، وكانت إقطاعاً لعتاب — أحد رجال بنى أمية — فسميت باسمه ، وقد اشتهرت هذه المحلة بانتاج نوع من النسيج المخطط ومن هنا كان يوصف هذا النوع من الحمير بأنه عتابى تشبيهاً له بهذا النسيج . انظر أيضاً (Dozy : *Supp Dict. Arab*).

(٢) وترسم أيضا « بلور » وهى معربة عن اليونانية « Beryllos » لحذف منها سين الاعراب ، ثم وقع فيها القلب . انظر : (ابن الأكفانى : نخب الذخائر فى أحوال الجواهر ، تعليقات الاب انستاس مارى الكرملى ، ص ٦٣ ، هامش ١) .

(٣) ويقال فيه « اليَشْب » وهو حجر ثمين قريب من الزبرجد ، ومنه الأبيض ، والأصفر والزيتى — وهو أفضلها — . انظر : (المرجع السابق ، ص ٧٢) و (البيرونى : كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر ، ص ١٩٨)

(٤) جوهر أحمر شفاف يضاهى فائق الياقوت فى اللون والرونق ، سمى هكذا نسبة إلى موطنه « بلخشان » حيث يكثر وجوده ، وأهل إيران يسمونه « بذخشان » وهو إقليم يقع فى اقصى شرقى أفغانستان . انظر : (ابن الأكفانى : المرجع السابق ، ص ١٤ — ١٥)

(٥) فى س (١٣٩) : « فقصد » .

ذكر وصول الهدية المصرية إلى نور الدين

وسيَّر الهدية إلى نور الدين، وكتب إليه بالإنشاء الفاضل : « سبب هذه الخدمة إلى مولانا السلطان الملك العادل أعز الله سلطانه، ومدَّ أبداً إحسانه، ومكَّن بالنصر إمكانه، وشيَّد بالتأييد أركانه، ونصر أنصاره وأعان أعوانه : علم المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص (١) أجنحتهم، ويفلّ (٢) أسلحتهم، ويقطع موادهم، ويخرب بلادهم ؛ وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة أن لا يبقى فى بلادهم أحد من العربان، وأن ينتقلوا من ذل الكفر إلى عز الإيمان، ومما اجتهد فيه عامة (٣) الاجتهاد، وعدَّه من أفضل (٤) أسباب الجهاد، ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص فى تبديل دارهم، إلى أن صار (٥) العدو اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلا، ولا يستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلا (٦) .

---

(١) فى الاصل : « يحض »، وقد صححت بعد مراجعة س والروضتين .

(٢) فى الاصل، وفى س (١٣٩ ا) : « يقل »، وفى (الروضتين، ج ١، ص٢٠٦) : « يفلل »، وما هنا قراءة ترجيحية يقتضيها المعنى .

(٣) كذا فى الأصل، وفى س (١٣٩ أ) : « من الاجتهاد »، وفى (الروضتين، ج ١، ص ٢٠٦) : « غاية الاجتهاد » .

(٤) كذا فى الأصل وفى س، وفى (الروضتين) : « أعظم » .

(٥) فى س : « إلى أن يصير العدو إذا نهض . . الخ » .

(٦) هذه قطعة من رسالة بقلم القاضى الفاضل أرسلها صلاح الدين إلى نور الدين ليبين له فيها القصد من خروجه لمهاجمة الكرك والشوبك، وكانت هذه أول غزوة غزاها صلاح الدين من مصر فى أوائل سنة ٥٦٨ هـ وقد أوضح (بهاء الدين بن شداد : النوادر السلطانية، ص٣٦) الغرض من هذه الغزوة وأهميتها بقوله : « وإنما بدأ بها — أى الكرك والشوبك — لأنها كانت أقرب إليه، وكانت فى الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض، وتسهل على السابلة، فخرج قاصداً لها لحاصرها، وجرى بينه وبين الأفرنج وقعات وعاد عنها ولم يظفر منها بشىء » .

ولما وصلت الهدية والرسول إلى نور الدين استقلّ الهدية واستنزرها ، ولم تقع منه بموقع ، ولكنه أظهر شكر صلاح الدين ، ووصف فضيلته ، وقال : « ما كان بنا حاجة إلى هذا المال ، وهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب فى ملك مصر وبنا فقر إلى هذا الذهب ، وما لهذا المحمول فى مقابلة ما جدنا به مقدار ، [وتمثل بقول أبى تمام (١)] :

لم يُنفِقْ الذهبَ المُرْبى بِكثرتِهِ على الحصا وبه فَقْرٌ إلى الذَّهَبِ

لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى وفور العدد من الجند ، وقد عمّ البلاء بالفرنج ، فينبغى أن تقع المساعدة والمعاونة بالأمداد » ، ثم أخذ يفكر فيما يفعله من هذا المهم .

[١٣٧] قال عماد الدين الكاتب فى البرق : « وصلت الحمارة ، وكثرت لها النظّارة ، والفيل وصل إلينا [فى سنة تسع وستين (٢)] ونحن بحلب فى الميدان الأخضر ، فأهداه نور الدين إلى ابن أخيه سيف الدين غازى بن مودود — صاحب الموصل — مع شىء من الثياب والعود والعنبر ، فسيّره سيف الدين إلى الخليفة مع تحف وهدايا (٣) ؛ وسيّر نور الدين الحمارة العتّابيّة إلى الخليفة مع هدايا وتحف سنية (٤) » .

وفى هذه السنة أغار العدو على الجَوْلاَن (٥) ونزلوا سمسكين (٦) ، وبلغ ذلك

(١) أضفنا مابين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٦) وذلك للايضاح .
(٢) أضفنا مابين الحاصرتين من : (الروضتين ، نفس الجزء والصفحة) .
(٣) فى س (٣٩ ب) : « مع هدايا وتحف سلية » .
(٤) فى س : « مع هدايا عظيمة » .
(٥) فى س (٣٩ ب) : « الحولان » ؛ والجولان قرية . وقيل جبل ، من نواحى دمشق ، ثم من عمل حوران ؛ (ياقوت ، معجم البلدان) .
(٦) كذا فى الأصل ، وفى س ، وفى (الروضتين) ، وفى : (ياقوت : معجم البلدان) : « سمكين ناحية من أعمال دمشق من جهة حوران » .

نور الدين وهو نازل بالكسوة فرحل إليهم بعساكره ، فرحلوا إلى الفوار (١) ، ثم إلى الشلالة (٢) ، ونزل نور الدين عشترا ، وبعث عسكراً إلى أعمال طبرية ، فأغارت عليها ، ولما عادت لحقتها الفرنج عند المخاضة ، فوقفت المقاتلة فى مقابلتهم إلى أن عبرت السرية (٣) ونجت ، ثم رحل نور الدين من عشترا ، ونزل بظاهر زرا ، وامتدحه عماد الدين بقصيدة أولها :

رُفِعَتْ (٤) بِنَصْرِكَ رايةُ الإيمانِ   وَبَدَتْ لِعَصْرِكَ آيةُ الإحْسَانِ
يا غالبَ (٥) الغُلْبِ الملوكِ وصائدَ الـ   ـصِيدِ الليوثِ وفَارِسَ الفُرْسَانِ
يا سالبَ التيجانِ من أرْبَابِهَا   حُزْتَ الفخَارَ على ذَوِى التيجَانِ

[ومنها يقول (٦)] :

كم وقعةٍ لك فى الفرنجِ ، حديثُها   قد سار فى الآفاقِ والبُلْدانِ
قَمَصْتَ (٧) قومَصَهُم رِدَاءً من رَدًى   وضَرَبْتَ رَأْسَ بِرِنْسِهِمْ بِسِنَانِ
وَمَلَكْتَ رِقَّ مُلُوكِهِمْ وتَرَكْتَهُمْ   بالذُّلِّ فى الأَقْيَادِ والأَشْجَانِ (٨)
وجعلتَ فى أعناقِهِمْ أغلالَهُمْ   وسَحَبْتَهُمْ هَوْناً على الأذْقَانِ (٩)

(١) فى س : « الفرات » .

(٢) فى س « اللاكه » وفى الأصل : « السلالة » ، وما هنا عن (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٧) .

(٣) فى س : « البرية » .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى س ؛ وفى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٧) : « عقدت » .

(٥) كذا فى الأصل ، وفى (الروضتين) ، وفى س (٣٩ ب) : « ياغالباً غلب الملوك » .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س ، والقصيدة كاملة موجودة فى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨) .

(٧) فى س (٤٠ ا) : « قومصت قومصهم ردى من ردى » .

(٨) فى الأصل ، وفى س : « الأسجان » ، والتصحيح من : (الروضتين) .

(٩) فى س : « الأذقانى » و « السلطانى » .

وعلى غِناءِ المَشْرَفيةِ فى الطُلى والهام رقص عوامل (١) المرّانِ
وكأنَّ بين النقْعِ لَمْعُ حَديدِهَا نارٌ تَألَّقُ فى خِلالِ دُخانِ
فى مأزق ورد الوريد مكفل (٢ فيه يرى الصّارمِ الظمآنِ ٢)

ومنها :

غطى (٥) العجاج به نجومَ سمائِه لتنوب عنه أنجُمُ الخرصانِ
أنت الذى دونَ الملوكِ وجدتُه ملآن من عُرْفٍ ومن أيمانِ (٣)
[١٣٨] فى بأس عمروٍ، فى بسالة حيدرٍ، فى نُطْقِ قُسٍّ، (٤) فى تُقى (٥) سلمانِ
سِيَرٌ لو ان الوحْىَ ينزلُ أُنْزِلَتْ فى شأنِها سُوَرٌ من القرآنِ
فاسلَمْ طويلَ العمْرِ مُمتدَّ المدَى (٦) صافى الحياة مُخلَّدَ السُلْطانِ (٧)

ذكر غزوة النوبة

وفى جمادى الأولى من هذه السنة — أعنى سنة ثمان وستين وخمسمائة — غزا الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين توران شاه بن أيوب — أخو السلطان —

(١) كذا فى الأصل وفى س ، وفى (الروضتين) : « عوالى » .
(٢) يقابل هذا فى س : « وكفل فيه يروى الصادى الضمان » .
(٣) كذا فى الاصل : وفى س ، وفى (الروضتين) : «عرفان» .
(٤) فى س « قيس »
(٥) فى الأصل : « غطا » و « تقا » .
(٦) كذا فى الاصل ، وفى (الروضتين) ، وفى س : « الندى » .
(٧) فى س : « السلطانى » .

بلاد النوبة (١) ، وفتح حصناً لهم يدعى إبريم ، وسبي وغنم ، فوجدها بلاداً قليلة الجدوى ، فجمع السبيْ وعاد به إلى أسوان ، وفرّق الغنائم فى أصحابه .

---

(١) أورد صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢٠٨ — ٢٠٩) — نقلا عن ابن أبى طى المؤرخ الحلبي — حديثاً منصلا عن حملة تورانشاه إلى بلاد اليمن ، وهذا الحديث يتضمن معلومات فريدة وهامة جداً ، ولهذا آثرنا نقله هنا ، قال : « وفيها اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة ، وخرجوا فى أمم عظيمة قاصدين ملك مصر ، وساروا إلى أعمال الصعيد ، وصمموا على قصد أسوان وحصارها ونهب قراها ، وكان بها الأمير كنز الدولة ، فأنفذ يعلم الملك الناصر ، وطلب منه نجدة ، فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبكي ، فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخربوا أرضها فأتبعهم الشجاع والكنز ، فجرت حرب عظيمة قتل فيها من الفريقين عالم عظيم ، ورجع الشجاع إلى القاهرة وأخبر بفعال العبيد وتمكنهم من بلاد الصعيد ، فأنفذ الملك الناصر اخاه شمس الدولة فى عسكر كثيف ، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة ، فسار قاصداً بلادهم ، وشحن مراكب كثيرة فى البحر بالرجال والميرة ، وأمرها بلحاقه إلى بلاد النوبة ، وسار إليها ، ونزل على قلعة إبريم ، وافتتحها بعد ثلاثة أيام وغنم جميع ما كان فيها من المال والكراع والميرة ، وخلص جماعة من الأسرى ، وأسر من وجده فيها ، وهرب صاحبها ، وكتب إلى السلطان بذلك ... ثم رجع شمس الدولة إلى أسوان ثم إلى قوص ، وكان فى صحبته امير يقال له إبراهيم الكردى ، فطلب من شمس الدولة قلعة إبريم ، فأقطعه إياها ، وأنفذ معه جماعة من الأكراد البطالين ، فلما حصلوا فيها تفرقوا فرقا ، وكانوا يشنون الغارة على بلاد النوبة حتى برحوا بهم ، واكتسبوا أموالا كثيرة حتى عفت أرزاقهم وكثرت مواشيهم ، واتفق انهم عدوا إلى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة ذبدان (؟) فغرق أميرهم إبراهيم وجماعة من أصحابه ، ورجع من بقى منهم إلى قلعة إبريم ، وأخذوا جميع ما كان فيها واخلوها بعد مقامهم بها سنتين ، فعاد النوبة إليها وملكوها ، وأنفذ ملك النوبة رسولا إلى شمس الدولة وهو مقيم بقوص ، ومعه كتاب يطلب الصلح ومع الرسول هدية — عبد وجارية — فكتب له جواب كتابه ، وأعطاه زوجى نشاب ، وقال : « مالك عندى جواب إلا هذا » ، وجهز معه رسولا يعرف بمسعود الحلبي ، وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها ، فسار الحلبي مع الرسول حتى وصل دنقلة — وهى مدينة الملك — قال مسعود : فوجدت بلاداً ضيقة ، ليس لهم زرع إلا الذرة ، وعندهم نخل صغار ، منه أدامهم » ؛ ووصف ملكهم بأوصاف منها أن قال : « خرج علينا يوماً وهو عريان ، قد ركب فرساً عريا ، وقد التف فى ثوب أطلس ، وهو أقرع ، ليس على رأسه شعر ، فأتيت فسلمت عليه ، فضحك وتفاشى ، وأمر بى أن تكوى يدى فكوى عليها هيئة صليب ، وأمر لى بقدر خمسين رطلا من الدقيق ، ثم صرفنى » ، قال : « وأما دنقلة فليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط وباقيها أخصاص » . انظر أيضا :

(P. Casanova : *Les Derniers Fatimides. Memoires de la Mission Archeologique Française du Caire. Tome VI, 3, p.p. 415-445*).

ذكر وفاة الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شاذى والد الملوك[١] — رحمه الله —

وفى يوم الاثنين الثامن عشر من ذى الحجة من هذه السنة ركب الأمير نجم الدين أيوب بن شاذى — والد الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله — بالقاهرة ، فشبَّ به فرسه وتقنطر به ، فحُمل عن فرسه ، وعاش ثمانية أيام ثم توفى يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذى الحجة من السنة ؛ وكان ولده صلاح الدين إذ ذاك غائباً فى بلاد الكرك والشوبك على ما ذكرناه ، فبلغه وفاة والده قبل وصوله إلى الديار المصرية ، فاشتد حزنه ، وتأسف حيث لم يحضر وفاته ، وكان [نجم الدين] مولعاً باللعب بالكرة وشدة الركض ، فكان كل من رآه على هذه الصفة يقضى أنه لا يموت إلا [من وقوعه[٢]] عن ظهر الفرس .

ذكر سيرته — رحمه الله[٣] —

كان رحيما جواداً ، كثير البذل ، حسن النية ، جميل الطوية ، وله صدقات ومعروف كثير ؛ واتفقت له سعادة عظيمة ، وما مات حتى رأى فى ذريته ما أحب من الملك لهم والسلطان ، ثم عظم ملكهم بعده وانتشر صيتهم ؛ ولم يملك أحد فى عصرهم مثل ما ملكوا ؛ ولما توفى دفن إلى جانب أخيه أسد الدين شيركوه فى بيت بالدار السلطانية ، ثم نقلا بعد سنتين إلى مدرسة بنيت لهما [بالمدينة[٤]]

(١) فى س : « والد الملك الناصر صلاح الدين » .
(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٩) .
(٣) هذا العنوان غير موجود فى س .
(٤) ما بين الحاصرتين عن س (٤٠ ب) .

بإزاء حجرة النبى — صلى الله عليه وسلم — وسعدا بجوار النبى — عليه السلام — فتم لهما بذلك سعادة الآخرة مضافة إلى ما نالاه [١٣٩] من سعادة الدنيا .

ولما (١) حججت سنة تسع وأربعين وستمائة وقدمت المدينة — على ساكنها أفضل الصلاة والسلام — رأيت قبريهما بهذه المدرسة .

ورثى(٢ عمارة بن على اليمنى — الشاعر — نجم الدين أيوب بقصيدة أولها ٢) :

هى الصدمةُ الأولى فمن بانَ صبرُهُ ... على هَوْلِ ملقاها تضاعفَ أجرُهُ
ولا بُدَّ من موت وَفَوْتٍ وفُرْقَةٍ ... وَوَجْدٍ بماءِ العينِ يُوقَدُ جمرُهُ
وما يتسلَّى من يموت حبيبُهُ ... بشىء ، ولا يخلو من الهمِّ فكرُهُ
ولكنَّهُ جرحٌ يعزُّ اندمالُهُ ... وكَسْرُ زُجَاجٍ لا يُؤمَّلُ جبرُهُ
أَذُمُّ صباحَ الأربعاء فإنَّهُ ... تَبَسَّمَ عن ثغرِ المَنيَّةِ فجرُهُ
أصابَ الهُدَى فى نجمِهِ بمصيبة ... تداعى سماكُ الجوِّ فيه ونسرُهُ
وأفقرَ أهلُ الأرضِ من باذلِ الغنى ... إذا قنطَ (٣) المحتاجُ واشتدَّ فقرُهُ
عَدِمنَا أبا الإسلامِ والمُلْكِ والندى ... وفارَقَنَا فَرْدُ الزمانِ وَوِتْرُهُ
فلا تعذلُونَا واعذرونا ، فمن بكى ... على فَقْدِ أيوب فقد بانَ عذرُهُ
رعى (٤) اللهُ نجماً تعرفُ الشمسُ أنه ... أبوها ونورُ البدر منها وزهرُهُ
وأبقى (٤) المقامَ الناصرىَّ فإنه ... لدولتكم كَنْزُ الرجاء وذُخْرُهُ

---

(١) قبل هذا اللفظ فى س : « قال القاضى جمال الدين » . وهذه جملة من الجمل الكثيرة المتناثرة فى هذا الكتاب والتى يعرفنا فيها المؤلف ببعض أخباره ، ومنها نعلم أنه حج إلى مكة وزار المدينة فى سنة ٦٤٩ هـ .

(٢) مقابل هذه الجملة فى س : « ورثاهما على بن عمارة الشاعر بهذه الأبيات وهى من قصيدة طويلة أولها يقول » .

(٣) فى س : « قبض » .

(٤) فى الأصل : « رعا » و « ابقا » .

أمضى على الأيامِ أحسنَ سيرةٍ　　يموتُ بها جَوْرُ الزمانِ وغَدْرُهُ
إذا كانت البلوى من الله فليكن　　من الحزمِ حَمْدُ اللهِ فيها وشُكْرُهُ (١)

ذكر المراسلة بين نور الدين وصلاح الدين
— رحمهما الله تعالى (٢) —

كان نور الدين — رحمه الله — من حين ملكت الديار المصرية يؤثر أن يقرر له حمل يحمل إليه منها يستعين به على كلف الجهاد ، والأيام تماطله ، وهو ينتظر من صلاح الدين — رحمه الله — أن يبتديه ذلك من تلقاء نفسه ، ويفعل فى ذلك ما يؤثره ويريده ، فلما حمل صلاح الدين ما تقدم ذكره استقله ولم يعجبه ، فتقدم حينئذ نور الدين إلى موفق الدين خالد بن القيسرانى متولى ديوان الاستيفاء (٣) أن يمضى إلى الديار المصرية ، ويتقاضى صلاح الدين ، ويعمل أوراقاً بارتفاع الأعمال المصرية ، ولا يترك فى النفس حزازة (٤) من [١٤٠] أمرها ؛ ثم سار الملك نور الدين إلى بعلبك ثم إلى حمص ثم إلى حلب .

---

(١) فى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٢) أبيات أخرى من هذه القصيدة .
(٢) هذا العنوان غير موجود فى س .
(٣) فى س : « الانشاء » .
(٤) فى س : « حرارة » . وابن واصل ينقل هنا عن (البرق الشامى للعماد الأصفهانى) . انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٦) ، ونص العماد يفسر معنى هذا اللفظ وهو : « وتقدم إلى الموفق خالد بن القيسرانى أن يمضى ويطلب ويقتضى ويعمل أيضاً بالأعمال المصرية جرائد ، ولا يبقى فى نفوس ديوانه من أمرها حزازة . . الخ » .

ذكر قصد نور الدين — رحمه الله — بلاد قليج أرسلان

ثم سار نور الدين إلى مملكة السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود ابن قِليج أرسلان بن سليمان [بن[١]] قُطُلْمِش السلجوقى — صاحب قونية — عازماً على حربه وأخذ البلاد منه ، وسبب ذلك أن ذا النون بن الدانِشْمَنْد[٢] — صاحب ملطية — قصده عزُّ الدين ، وأخذ بلاده منه ، فسار ابن الدانِشْمَنْد صاحب ملطية إلى نور الدين مستجيراً به ، وملتجئاً إليه ، فأكرم [نور الدين[١]] نزله ، وأحسن إليه ، وحمل إليه ما يليق أن يُحمل إلى الملوك ، وراسل[٣] قليج أرسلان يشفع فى إعادة بلاد ذى النون إليه ، فلم يجبه إلى ذلك ، فسار نور الدين وابتدأ بكيسون[٤] وبهسه ، ومرعش (٥ ومرزبان فملكها وما بينها ، وكان ملكه لمرعش فى ذى القعدة من هذه السنة ٥) ؛ ثم سَيَّر طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها .

فراسل قليج أرسلان نور الدين واستعطفه ، فوقع الصلح بينهما ، وشرط

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٤١) راجع أيضاً : (زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، ص ٢١٦ ، الترجمة العربية) .

(٢) فى الأصل — هنا وفيما يلى — : « الداشمند » وقد صحح الاسم بعد مراجعة : (زامباور : معجم الأنساب ، الترجمة العربية ، ص ٢٢٠ — ٢٢١) وابن واصل ينقل هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٦ — ١٤٧) وكذلك فعل صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢١٣ — ٢١٤) .

(٣) فى س : « وأرسل إلى » .

(٤) كذا فى الأصل ، وهى فى س : « ملسون » وما هنا عن ابن الأثير والروضتين .

(٥) ما بين الرقمين ساقط من س .

[نور الدين عليه (١)] أن ينجده بعساكر إلى الغزاة، ففعل (٢ ، وسُلِّمت سيواس إلى ذى النون ٢) ، وبقى [ذو النون] فى خدمة نور الدين إلى أن مات نور الدين ، فحينئذ عاد قليج أرسلان إلى البلاد فملكها ، وهى مع ولده إلى اليوم .

والمرتب اليوم بالبلاد وله اسم السلطنة صبي صغير (٣) ، هو ابن ركن الدين ابن غياث الدين كَيْخُسْرُو بن علا الدين كَيْقُبَاذ بن كَيْخُسْرُو بن قِليج أرْسِلان المذكور ، وكان التتر الملاعين قد استولوا على البلاد ، وأبقوا بها ركن الدين والد هذا الصبي ، وهرب أخوه عز الدين كَيْكَاوُس بن كَيْخُسْرُو إلى ملك الروم صاحب قسطنطينية وهو عنده إلى اليوم ، واستولى على ركن الدين معينُ الدين [سليمان] البِرْوَاناه (٤) ، ثم قتل معينُ الدين رُكْنَ الدين ، وقام بأتابكية ولده الصبي المذكور ، وخطب له بالبلاد ، وملك (٥ البلاد فى الحقيقة التتر ، والبرواناه نائبهم بها ٥) .

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٤١ ب) .

(٢) مقابل هذه الجملة فى س : « وتمطى سيواس وغيرها لذى النون ففعل ذلك » .

(٣) هذا الصبي الصغير هو غياث الدين كيخسرو الثالث ، وقد ولى الحكم فى سنة ٦٦٣ ﻫ وعمره سنتان ونصف سنة ، ولهذا الاستطراد أهمية خاصة فهو يحدد الوقت الذى كان المؤلف — ابن واصل — يكتب فيه هذا الجزء من الكتاب ، وواضح أنه كان يكتبه بعيد سنة ٦٦٣ ﻫ وهى السنة التى تولى فيها هذا الصبي . أنظر : (زامباور : معجم الأنساب ، الترجمة العربية ، ص ٢١٨)

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٧١ — ٥٧٢) والبرواناه لفظ فارسى معناه فى الأصل الحاجب ، وقد أطلق فى دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى على الوزير الأكبر . (تعليقات الدكتور زيادة فى نفس الصفحة من نفس المرجع) .

(٥) هذه الجملة فى س ناقصة ومضطربة المعنى ونصها : « وملك البلاد فى الحقيقة (؟) والبرواناه نايبه » .

ذكر الواقعة الكائنة بين مقدم الأرمن والروم

كان مليح بن لاون مقدم الأرمن قد التجأ إلى نور الدين ، وصار فى طاعته ، وكانت الدروب وأذنة ومصيصة [وطرسوس [1]] يحميها ملك الروم صاحب قسطنطينية [2] [١٤١] ويضبطها بجنده ، فاستولى عليها مليح بن لاوون ، وكسر الروم ، وقتل منهم وأسر ، وساق لنور الدين من مقدمى الروم ثلاثين أسيراً ، فسيّرهم نور الدين إلى الخليفة المستضىء بنور الله ، وكتب إليه كتاباً ، من جملته : و« قسطنطينية [2] والقدس يجريان إلى أمد الفتوح فى مضمار المنافسة ، وكلاهما فى وحشة [3] ليل الظلام المدلهم على انتظار صباح المؤانسة ، والله تعالى بكرمه يُدْنى قطاف الفتحين لأهل الإسلام ، ويوفق الخادم لحيازة مراضى الإمام » .

[وفى آخره [4]] : (فصل فى فتح بلاد النوبة والمغرب) : « ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ما تيسر فى هذه النوبة ، من افتتاح بعض بلاد النوبة ، والوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سنابك الخيل الإسلامية فى العصور الخالية ، وكذلك استولى عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها ، وتحكموا فى محكم معاقلها ومَصُونها ، حتى بلغوا إلى حدود المغرب ، فظفروا من السؤل بعنقاء مغرب » .

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٤١ ب) .

(٢) فى الأصل : « قسطنطانية » .

(٣) س : « وجه » ، والتصحيح عن (البرق الشامى العماد ، فى : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٥) .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن المرجع السابق ، ولاثباتها أهمية خاصة لأنها توضح أن النص التالى الخاص بفتح النوبة وبرقة جزء من نفس الخطاب المرسل إلى الخليفة . هذا وفى الروضتين قطعة أخرى من هذا الخطاب مكملة له .

ذكر دخول قراقوش التقوى بلاد المغرب (١)

وفى هذه السنة مضى قراقوش — غلام الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب — إلى المغرب فى طائفة من الترك ، وانضم إليه جماعة من العرب ، واستولى على أطرابلس الغرب وكثير من بلاد إفريقية ، وانضم إلى قراقوش مسعود بن زمام — وهو من أعيان الغرب (٢) به هناك — وكان خارجاً عن طاعة عبد المؤمن بن على — خليفة المغرب — وأولاده ، فاتفقا ، وكثر جمعهما ، وحكم قراقوش على تلك البلاد ، وصار معه عسكر كثير ، وجرت (٣) بينهم وبين المغاربة حروب كثيرة ليس هذا موضع ذكرها (٣) ، وقد ذكرتها مفصلة فى التاريخ الكبير (٤) .

(١) هذا العنوان غير موجود فى س ، وقراقوش التقوى هذا هو غلام تقى الدين عمر بن شاهنشاه ، وهو غير بهاء الدين قراقوش الأسدى السابق ذكره .

(٢) س : « العرب » . ونص (ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٦) — وهو المرجع الذى ينقل عنه ابن واصل هنا — : « مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلاط ، وهو من أعيان الأمراء هناك » .

(٣) ما بين الرقمين ساقط من س (١٤٢ ا) .

(٤) ذكرنا سابقاً ان المعروف أن لابن واصل كتاباً آخر فى التاريخ هو (التاريخ الصالحى) وقد رجعت إليه فلم أجد هذه التفصيلات التى يشير إليها هنا بشأن فتوح قراقوش التقوى فى بلاد المغرب ، وهذا يرجح أنه كان لابن واصل كتاب تاريخى ثالث ، يسميه هو هنا « التاريخ الكبير » غير أننا لا نعرف عنه حتى الآن شيئاً . أنظر مافات هنا ص ٢٠٤ ، هامش ٢ هذا والثابت من المراجع الأخرى أن غزوات قراقوش التقوى للمغرب تعددت فى السنوات ٥٧١ و ٥٧٢ و ٥٧٥ و ٥٧٦ و ٥٧٨ و ٥٨٢ ؛ وأن تقى الدين عمر بن شاهنشاه فكر أكثر من مرة فى الخروج بنفسه إلى المغرب لاقامة ملك له هناك . لهذا وذاك انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩ — ٢٧٠ و ج ٢ ، ص ١٦ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٣٨ ، ٧٠)

ذكر دخول الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين توران شاه ابن أيوب اليمن وتملكه لها (١)

وفى سنة تسع وستين وخمسمائة سيَّر الملك الناصر صلاح الدين أخاه الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين توران شاه بن أيوب إلى بلاد اليمن ليتملكها ؛ وكان السبب فى ذلك أنه كان صلاح الدين هو وأهله من حين ملكوا مصر خائفين من نور الدين أن يدخل مصر فيأخذها منهم ، فشرعوا فى تحصيل مملكة يقصدونها ويملكونها ، وتكون لهم عدة ، فإن أخرجهم نور الدين [١٤٢] من مصر ساروا إليها وأقاموا بها ، فاقتضى رأى صلاح الدين أن يسيِّر أخاه إلى النوبة ليملكها ، فسار إليها ولم تعجبه كما ذكرنا ، فلما عاد إلى مصر اقتضى رأيه أن يسيِّره إلى اليمن (٢) ،

---

(١) هذا العنوان ساقط من س .

(٢) هذا الرأى القائل بأن السبب فى فتح النوبة ثم اليمن إنما هو تخوف صلاح وأسرته من نور الدين أن يهاجمهم فى مصر ويخرجهم منها . أقول إن هذا الرأى مصدره الأول ابن الأثير ، وابن الأثير — فيما يبدو — متهم فى كثير مما يكتبه عن العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين . أنظر ما فات : ص٢٢٣، هامش٤ وأنظر أيضاً (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٥) فهو يقول عند حديثه عن مسير شمس الدولة تورانشاه إلى النوبة : « وكان سبب ذلك أن صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون أن نور الدين كان على عزم الدخول إلى مصر ، فاستقر الرأى بينهم أنهم يتملكون إما بلاد النوبة أو بلاد اليمن ، حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد ، فان قووا على منعه أقاموا بمصر ، وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التى افتتحوها » . وفى رأيى أن هذا لا يتفق مع ما ذكره ابن الأثير نفسه فى موضع آخر (ص ١٤٨) من أن تورانشاه « استأذن نور الدين فى أن يسير إلى اليمن لقصد عبد النبى صاحب زبيد لأجل قطع الخطبة العباسية فأذن فى ذلك » وقد أكد هذه الحقيقة ابن واصل هنا فى المتن بعد سطرين اثنين وإنما ذكر أن الذى استأذن نور الدين هو صلاح الدين . أما الأسباب الحقيقية لفتح اليمن فتجدها فى النصوص الكثيرة التى نقلها (أبوشامة : الروضتين، ج ١ ، ص ٢١٦ — ٢١٧ و ٢٢٠) عن العماد الأصفهانى وابن شداد ، وابن أبى طى . وفى : (بدر الدين محمد بن حاتم : السمط الغالى الثمن فى أخبار الملوك من الغز باليمن) والكتاب الأخير لازال مخطوطاً ، وتوجد منه نسخة فى دار الكتب المصرية رقم ١ : ٢٤ . =

وكان بها خارجى يقال له عبد النبى ، واسمه فيما ذكر أبو الحسن عمارة : « على بن مهدى [1] » ، [و] قد ملك زبيد ، وقطع الخطبة العباسية ، وخطب لنفسه ، فاستأذن صلاح الدين نور الدين فى أن يسيِّر عسكراً إلى اليمن ويفتتحها ، فأذن له فى ذلك .

وكان بمصر عمارة بن على اليمنى — المقدم ذكره — فحسَّن للملك المعظم قصدَ اليمن ، ووصف بلادها له ، وعظَّمها فى عينه ، فزاده ذلك رغبة فيها ، فشرع يتجهز ويُعِدُّ [2] الزوايا والسلاح ، وغير ذلك من الآلات ، وجنَّد الأجناد ، وجمع وحشد ، وكان لعمارة مدائح فى الملك المعظم ، فما امتدحه به ، وحرَّضه فيه على مُلْك اليمن قصيدته التى أولها :

العِلْمُ مُذْ كان محتاجٌ [3] إلى العَلَمِ   وشَفْرَةُ السيفِ تَسْتَغْنِى عن القَلَمِ

— هذا وقد انفرد مؤرخ يمنى آخر (بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ، ج ١ ، ص ١٢٧—١٢٨) بذكر سبب هام من أسباب الفتح الأيوبى لليمن ، وخلاصته أن بعض أمراء اليمن استغاثوا بالخليفة العباسى من اعتداءات عبد النبى بن مهدى ؛ قال : « خرج (عبد النبى بن على بن مهدى صاحب زبيد) فى أصحابه إلى جهة أبين ، فحرق أبين ، وقتل أهلها ، وذلك فى سنة ٥٥٩ ، ثم رجع إلى زبيد ، ثم خرج فى سنة ٥٦١ فى عسكر جرار نحو المخلاف السليمانى ، فقاتلهم قتالا شديداً ، وقتل منهم طائفة غالبهم من الأشراف ، وفى جملة من قتله وهاس بن غانم بن يحيى ابن حمزة بن وهاس السليمانى — أحد أمراء الأشراف وسادتهم — ، . ويقال إنه لما قتل الشريف وهاس خرج أحد أخوته إلى بغداد مستنصراً بالخليفة على عبدالنبى بن مهدى ، فيقال إن الخليفة كتب له إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بأن يجرد فى نصرته عسكراً لقتال ابن مهدى ، فجرد الملك الناصر أخاه شمس الدولة توران شاه بن أيوب ، وأن ذلك كان سبب دخول الغز اليمن . . إلخ » .

(١) المهديون أسرة حكمت زبيد بين سنتى (٥٥٤ — ٥٦٩ = ١١٥٩ — ١١٧٣) ، وحكم من هذه الأسرة ثلاثة فقط : على بن مهدى ، ومهدى بن على ، وعبد النبى بن على — وهذا هو اسمه الصحيح — انظر : (St. Lane-Poole : *Mohammadan Dynasties* p. 96)

(٢) س : « يعدل » .

(٣) فى الأصل : « محتاجا » والتصحيح عن س و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٦) (النكت العصرية ، ص ٣٥٢) .

ومنها :

نُرِى مسامعُ فخرِ الدين تَسْمَعُ ما أملاهُ خاطرُ أفكارى على قلمى ؟
فإنْ أصبتُ فلى حظُّ المُصيبِ ، وإن أخطأتُ تَصُدّكَ فاعذرنى ولا تَلُمِ
لم(١) تترك البيضَ فى الأجفانِ ظامِئةً إلى الموارِدِ فى الأعناقِ والقِمَمِ(٢)
(٢) ومُقْلَةُ الجِدِّ نحو العزمِ شاخِصَةٌ فاترك قُعُودَكَ عن إدْرَا كها وَقُمِ
فَمُلْكُ المَلِكُ المنصورُ سوّمَها من العِراقِ إلى مصر بلا سَأَمِ
أمامَكَ الفتحُ مِنْ شامٍ وَمِنْ يَمَنٍ فلا تَرُدُّ رُؤُسَ الخيلِ باللجُمِ
فاخْلُقْ لنفسِك مُلْكاً لا تُضافُ به إلى سِوَاكَ ، وأورِ(٣) النارَ فى العَلَمِ
وانهَ المُشيرِينَ إنْ لجّتْ نَصيحتُهُم أوْ إلا فأنعِمْ على العِمْيانِ بالصَمَمِ
واعْزِمْ(٤) وصَمِّمْ فقد طالَتْ وقد شمخَتْ(٥) قَضِيَّةٌ لَفَظَتْهَا أَلسُنُ الأُمَمِ
طَالَ التردُّدُ فى إبْرامِ مُنْتَقِضٍ فى(٦) هذه الحالِ أوْ فى نَقْضِ مُنْبَرِمِ

ومنها :

فَرُبَّ أمرٍ يخافُ الناسُ غايَتَهُ والأمرُ أهوَنُ فيه مِنْ يَدٍ لِفَمِ

---

(١) فى الأصل : « لا » وفى س : « لم » والتصحيح عن الروضتين .

(٢) خلط صاحب النسخة الأصلية فوضع الشطر الثانى من البيت الثانى أمام الشطر الأول من البيت الأول وبذلك جعل البيتين بيتاً واحداً بعد أن أسقط الشطرين المرقين ، وقد صححنا الوضع فيهما بعد مراجعة س (٤٢ ب) .

(٣) فى الأصل : « واورى » وفى س : « واورى » وقد صححت بعد مراجعة : (الروضتين ج ١ ، ص ٢١٧) و (ديوان عمارة ، ص ٦١٩) .

(٤) فى الأصل : « وانعم » ، وما هنا عن س (٤٢ ب) و (عمارة : النكت العصرية ، ص ٦٢٠) .

(٥) فى الأصل : « سمجت » وما هنا عن س ، والنكت العصرية .

(٦) فى الأصل : « من » وما هنا عن (س) والنكت العصرية .

هذا ابنُ تُومَرْتَ قد كانتْ بِدَايَتُهُ — كما يقولُ الورى — لَحماً على وَضَمِ
[١٤٣] والغيث وهو كما قد قيل أوَّلُهُ قَطْرٌ ، وَمِنهُ خَرَابُ السَّدِّ بالعَرِمِ
والبدر يبدو هلالاً ثم يَكشِفُ بالـ أنْوَارِ ما سَتَرَتْهُ شَمْلَةُ الظُّلَمِ
تنمو قُوَى الشيء بالتدريج إن رُزِقتْ لَظًى(١) ويقوى شَرَارُ الزَّنْدِ(٢) بالضَّرَمِ
حاسِبْ ضَمِيرَكَ عن رأيٍ(٣) أتاكَ وَقُلْ نَصِيحَةٌ وَرَدَتْ مِنْ غيرِ مُتَّهَمِ
أقْسَمْتُ ما أنتَ ممن جلُّ هِمَّتِهِ ما رَاقَ مِنْ نِعَمٍ أوْ رَقَّ من نَغَمِ
وإنما أنت مَرْجُوٌّ لِوَاحِدَةٍ بنى بها الدهرُ مجداً غيرَ مُنْهَدِمِ
كأنَّنِي باللَّيالي وهي هاتِفَةٌ مُذْ صَمَّ سَمْعُ رِجالٍ دُونَها وَعَمِي
وبالعُلَى كُلَّمَا لاقَتْكَ(٤) قائلةٌ أهْلاً بِمُنْشِرِ آمالي من الرِّمَمِ

ثم سار الملك المعظم شمس الدولة من مصر مستهل رجب من هذه السنة فوصل إلى مكة(٥) — حرسها الله تعالى — ومنها إلى زبيد ، فلما قرب منها قال عبد النبي

---

(١) فى الأصل : « لطفا » ، وما هنا عن : (النكت المصرية ، ص ٣٥٤) .
(٢) فى الأصل : « النار » وما هنا عن (س) والنكت .
(٣) فى الأصل : « أمر » وما هنا عن النكت والروضتين .
(٤) فى الأصل : « لاقيك » وما هنا عن س والنكت المصرية . هذا والقصيدة أطول مما ورد هنا بكثير ، والأبيات المكملة يوجد بعضها فى : (عمارة : النكت المصرية ، ص ٣٥٢ — ٣٥٥ و ٦١٩ — ٦٢٠) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٦ — ٢١٧) .
(٥) أورد (سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، الجزء الثامن ، القسم الأول ، ص ٣٠٠ — ٣٠١) وصفا شائقاً لما فعله توران شاه أثناء مقامه بمكة ولخطوات حملة اليمن بوجه عام ، وقد آثرنا نقل هذا الوصف هنا لأهميته ، ولأن راويه — سبط ابن الجوزى — يعتبر المؤرخ الثانى — بعد ابن واصل — المعاصر للأيوبيين ، قال : وقفت على تاريخ بمصر ، فرأيت أن شمس الدولة لما سار إلى اليمن ، وكان أعيانها قد كتبوا إلى صلاح الدين يسألونه أن يبعث إليهم بعض أهله ، فلما وصل شمس الدولة إلى مكة سمع صاحبها إلى أبى قبيس ، فتحصن عليه بقلعة بناها ، وأغلق باب الكعبة ، وأخذ المفاتيح ، فجاء شمس الدولة فطاف بالبيت ، وصلى ركعتين ، وصعد إلى باب الكعبة وقال : اللهم إن كنت تعلم أنى جئت إلى هذه البلاد لاصلاح العباد وتمهدها ، =

لأهل زبيد : « كأنكم بهؤلاء وقد حمى عليهم الحرُّ فهلكوا ، وما هم إلا أكلة رأسٍ (١) » ؛ فخرج إليهم بعسكره ، فقاتلهم الملك المعظم ومن معه ، فلم يثبت أهل زبيد وانهزموا ، ووصل المصريون إلى سور زبيد فلم يجدوا من يمنعهم ، فنصبوا السلالم ، وصعدوا السور ، فملكوا البلد عنوة ، ونهبوه وأكثروا النهب ، وأخذوا عبد النبي أسيراً وزوجته المدعوة بالحرة (٢) ، وكانت امرأة صالحة

= فيسر على فتح الباب ، وإن كنت تعلم أنى جئت لغير ذلك ، فلا تفتحه ، ومد يده لجذب القفل فانفتح ، فدخل شمس الدولة إلى البيت ، وصلى ودعا ، فلما بلغ أمير مكة ذلك نزل إلى خدمته ، وحمل المفاتيح واعتذر ؛ وقال : خفت منك ، والآن فأنا تحت طاعتك ، فقال : إذا أخذت منك مفاتيح مكة فلمن أعطيها ؟ ثم خلع عليه وعلى أصحابه ، وطيب قلوبهم . وسار إلى اليمن ، فانهزم عبد النبي بين يديه إلى زبيد ، وكان أبوه المسمى بالمهدى قد فتح البلاد وقتل خلقا كثيراً ، وشق بطون الحوامل ، وذبح الأطفال على صدورهن ؛ وكان يرى رأى القرامطة ، ويظهر أنه داعية لأهل مصر ، ويستتر باليمن ، وكان قد مات قبل دخول شمس الدولة اليمن بسنين ، وملك بعده ولده عبد النبي ، ففعل باليمن ما فعله أبوه ، وسبي نساءهم ، واستعبدهم . وكان أبوه لما مات بنى عليه قبة عظيمة ، وصفح حيطانها بالذهب الأحمر والجواهر ، ظاهرا وباطنا بحيث لم يعمل فى الدنيا مثلها ، وجعل فيها قناديل الذهب وستور الحرير ، ومنع أهل البلد من زبيد إلى حضرموت أن يحجوا إلى الكعبة ، وأمرهم بالحج إلى قبر أبيه ، وكانوا يحملون إليها من الأموال فى كل سنة مالا يحد ولا يحصى ، ويطوفون حولها مثلما يطوفون بالكعبة ، ومن لم يحمل مالا قتله ، وكانوا يقصدونها من الشحر ، فاجتمع فيها أموال عظيمة ، وأقام عبد النبي على الظلم والفسق والفجور ، وذبح الأطفال ، وسفك الدماء ، وسبي النساء إلى أن دخل شمس الدولة اليمن ، وجاء إلى زبيد ، فيقال إنه حصر عبد النبي فيها وابنه ، وقيده وقتله ... ، ويقال إنه انهزم بين يديه ، وجاء إلى قبة أبيه فهدمها ، وأخذ ما فيها من المال والجواهر والفضة ، وكان على ستمائة جمل ، ونبش القبر ، وأحرق عظام أبيه وذراها فى الريح ، ومضى إلى صنعاء ، فحلف شمس الدولة : لا ينتهى عنه حتى يقتله ويحرقه كما فعل بأبيه ، وسار خلفه ، فرجع إلى زبيد ، وعاد شمس الدولة إليها ، فظفر به ، فأخذ ما كان معه ، وقتله وصلبه وحرقه ، كما فعل بعظام أبيه » .

(١) المؤلف ينقل هنا عن ابن الأثير ، والنص فى (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٩) : « كأنكم بهؤلاء وقد حمى عليهم الحر فهلكوا إلا أكلة رام » وهو خطأ مطبعى ، وما بالمتن هنا هو الصحيح ، فقد جاء فى (اللسان) : « ويقال : ماهم إلا أكلة رأس أى هم قليل ، يشبعهم رأس واحد » .

(٢) فى الأصل : « حرة » والتصحيح عن ابن الأثير . ويبدو أن لفظ « الحرة » كان لقباً تلقب به الأسرات الحاكمة فى اليمن ، فقد ظهرت بين نساء الصليحيين باليمن قبل هذا أكثر من سيدة كانت تلقب « بالحرة » أو « بالسيدة الحرة » .

كثيرة الصدقة ، وكانت إذا حجت وجد عندها فقراء[1] الحاج صدقة دارة ومعروفاً كثيراً .

ولما أمر الملك المعظمُ عبدَ النبي بن محمد سلّمه إلى الأمير سيف الدولة مبارك ابن كامل بن منقذ[2] ، وأمره أن يستخرج منه الأموال ، فأعطاه منها شيئاً كثيراً ؛ ثم إنه دلهم على قبر كان قد صنعه لوالده ، وبنى عليه بنية عظيمة ، وله هناك دفائن كثيرة ، وأعلمهم بها ، فاستخرجت الأموال من هناك ، وكانت جليلة المقدار ؛ ودلهم [زوجته[3]] الحرة على ودائع لها ، فأخذ منها مال كثير ؛ ولما ملكت زبيد أقيمت بها . [١٤٤] الخطبة العباسية .

ثم سار العسكر إلى عدن ، وهى على البحر ولها مرسى عظيم ، وهى فرضة الهند والزَّنج والحبشة وعُمان وكِرْمان وكيش وفارس وغير ذلك ، وهى منيعة جداً من جانب البحر والبر ، وكان المتغلب عليها رجل يُقال له ياسر ، ولو[4] امتنع بها لم يقدروا على أخذها[4] ، لكنه لحينه خرج إلى العسكر ، فباشر قتالهم ، فانهزم ، وسبقه بعض عسكر الملك المعظم فدخلوا البلد قبل أهله ، وملكوه ، وأخذوا صاحبه ياسر أسيراً ، وأرادوا نهب البلد فنمهم الملك المعظم ، وقال : « ما جئنا لنخرب البلاد ، وإنما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها » .

ولما دخلوا عدن كان معهم عبد النبي [صاحب زبيد[5]] مأسوراً ، فقال :

---

(١) فى الأصل : « لفقرا » وما هنا من س (٤٣ ا) .
(٢) فى س : (. . . بن كافل بن مسعد) ، وما هنا هو الصحيح .
(٣) ما بين الحاصرتين عن س .
(٤) مقابل هذا فى س : « وقد امتنع بها ولم يقدر أحد على أخذها منه » ، وما فى الأصل يقتضيه السياق فهو الصحيح .
(٥) ما بين الحاصرتين عن س (٤٣ ب) .

« سبحان الله ! قد كُنتُ أُعلمتُ أنى أدخل عدن فى موكب عظيم ، فأنا أنتظر ذلك وأُسَرُّ به ، ولم أكن أعلم أننى أدخلها على هذه الحالة » .

ولما فرغ الملك المعظم من أمر عدن عاد إلى زبيد ، وحصر ما فى الجبل من الحصون ، فملك قلعة تعز ، وهى من أحصن القلاع ، وبها تكون خزائن صاحب (١) زبيد ، وملك الجبل وغيرها من المعاقل والحصون (٢) ، واستناب بعدن الأمير عز الدين عثمان (٣) بن الزنجبيلى ، وبزبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ ، وهلك عبد النبى [وياسر (٤)] فى أسره ، وجعل [الملك المعظم] فى كل قلعة نائباً من أصحابه ، وأحسن إلى أهل البلاد ، وعدل فيهم ، فعمرت البلاد وأمنت ، [وأما الحرة زوجة عبد النبى فبلغه كثرة صدقتها وخيرها ، فأحسن إليها وأطلقها ، وأقطعها إقطاعاً يقوم بأودها وأود من معها (٥)] .

ذكر عزم جماعة من المصريين على إقامة الدعوة المصرية
وما آل اليه أمرهم

وفى هذه السنة أراد جماعة من شيعة القصر الوثوب بمصر وإقامة الدعوة العلوية ، وردها إلى ما كانت عليه ؛ وكان منهم عمارة بن على اليمنى ، وعبد الصمد الكاتب ،

---

(١) س : « أصحاب » .

(٢) نص س : « وملك ما فى الجبل من القلاع والحصون » . وفى (ابن الاثير) : « وملك أيضا قلعة التعكر والجند وغيرها من المعاقل والحصون » .

(٣) س : « الامير عثمان عز الدين » فقط ؛ هذا ويجد القارىء وصفا تفصيليا شائقا لخط سير الحملة الايوبية فى اليمن وفتوحها هناك فيما رواه ابن أبى طى فى (الروضتين ، ج ١ ص ٢١٧) وفى مخطوطة : (السمط الغالى الثمن ، ص ٣ ا — ٦ ب) .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (٤٣ ب) .

(٥) ما بين الحاصرتين عن س (٤٣ ب) ، وهذا مثل واضح يدل على أن نسخة س — رغم عيوبها الكثيرة ، أفادت بعض الأحيان فى إقامة النص وتصحيحه وإكمال ما به من نقص .

والقاضى العويرس ، وداعى الدعاة ابن عبد القوى ، وغيرهم من جند المصريين ورجالتهم السودان ، وحاشية القصر ، ووافقهم على ذلك جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده ، فاطلعوا على أسرارهم ؛ وعينوا [١٤٥] الخليفة والوزير ، وتقاسموا الدور والأملاك ، واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية والشام إلى مصر ، ويذلوا لهم شيئاً [١] من المال والبلاد ، وكان مقصودهم وما انطوت عليه نيتهم الردية أن الفرنج إذا قصدوا البلاد وخرج إليهم صلاح الدين بنفسه ثاروا هم بالقاهرة ومصر ، وأعادوا الدعوة العلوية ، وعاد مَن معه مِنْ العسكر الذين وافقوهم عليه ، فلا يبقى لهم مقام مقابل الفرنج ، وإن كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر إليهم ، ثاروا به ، وأخذوه أخذاً باليد ، لعدم الناصر له والمساعد ، وقال لهم عمارة : « أنا قد أبعدت [٢] أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسد مسده [٣] ، وتجتمع الكلمة عليه بعده » ؛ فأرسلوا إلى الفرنج بصقلية والشام ، وتقررت القواعد بينهم ، ولم يبق إلا إتمام أمرهم ، فكان ما قدره الله من فضيحتهم وانتهاك سر نيتهم [٤] ، — لما أراده الله تعالى من سعادة صلاح الدين وظهور أمره — ، أن الفقيه الواعظ زين الدين على بن نجا [٥] أدخلوه معهم فى سرهم ، فداخلهم وأظهر لهم أنه على رأيهم ، فاطلع على جميع أمورهم ، وجاء إلى صلاح الدين وأظهره على جميع أمورهم ، وكشفها له ، وطلب

---

(١) فى الاصل : « شىء » ، وما هنا عن س .

(٢) س : « انفذت » .

(٣) س : « أن يشد عتيده » والمؤلف ينقل هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ؛ ص ١٤٩ — ١٥٠) .

(٤) س : « ستر سرم » .

(٥) هو زين الدين أبو الحسن على بن إبراهيم بن نجا الدمشقى الحنبلى الواعظ ، توفى بمصر فى رمضان سنة ٦٠٠ هـ عن إحدى وتسعين سنة ، انظر ترجمته فى : (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٨٣—١٨٤) و (ابن العماد : شذرات الذهب) .

منه ما لابن كامل [١] الداعى من الدور والعقار وكلما له من الموجود والمذخور ، فبذل له صلاح كل ما طلبه ، وأمره بمخالطتهم ومواطأتهم [٢] على ما يريدون أن يفعلوه ، وتعريفه بالمتجدد من أمورهم أولاً فأولا ، فصار يعلمه بكل [٣] ما يتجدد لهم ، ثم اتفق وصول رسول الفرنج بالساحل إلى صلاح الدين بهدية ورسالة ، وهو فى الظاهر إليه ، وفى الباطن إلى أولئك الجماعة ، فكان يرسل إليهم بعض النصارى ، وتأتيه رسلهم .

وأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال ، فوضع صلاح الدين على الرسول بعض [٤] من يثق إليه من النصارى ، فداخله ، فأخبره الرسول بالخبر على الحقيقة .

وقد ذكر فى انكشاف [١٤٦] أمرهم أن عبد الصمد الكاتب كان إذا لقى القاضى الفاضل — رحمه الله — يخدمه ويتقرب إليه ، ويبالغ فى التواضع له ، فلقيه يوما فلم يلتفت إليه ، فقال القاضى الفاضل : « ما هذا إلا لسبب » ، وخاف أن يكون قد صار له باطن مع [٥] صلاح الدين ، فأحضر [زين الدين] على بن نجا الواعظ

---

(١) هو أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل داعى الدعاة ؛ ترجمته فى : (العماد الأصفهانى : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١٨٦ — ١٨٧) و (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٣٥) .

(٢) س : « وموافقتهم » ، والمؤلف هنا ينقل عن (البرق الشامى للعماد الأصفهانى) أنظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٩) .

(٣) س : « يعلم صلاح الدين بما يتجدد لهم » .

(٤) هذا اللفظ ساقط من س ، والمؤلف يختصر هنا عن رسالة بقلم القاضى الفاضل ـ أوردها ابن أبى طى ـ مرسلة من صلاح الدين إلى نور الدين يشرح له فيها قصة المؤامرة فى تفصيل شيق هام ، انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢١) .

(٥) فى الأصل : « من » وما هنا عن س (٤٤ ب) والمؤلف يعود هنا فينقل عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٠) .

وأخبره الحال، وقال: « أريد أن تكشف الأمر لى » ، فسعى [١] فى كشفه فلم يَرَ له من جانب صلاح الدين شيئاً ، فعدل إلى الجانب الآخر ، فكشف الحال إليه ، فحضر عند القاضى الفاضل فأعلمه ، فقال له : « تحضر الساعة عند صلاح الدين وتُنهى الحال إليه » ، فحضر عند صلاح الدين وهو فى الجامع ، وذكرا الحال ، فأخذ الجماعة وقررهم ، فأقروا ، فحينئذ قبض عليهم ، وأمر بصلبهم .

وكان عمارة بينه وبين القاضى الفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها ، فلما أراد صلاح الدين صلبه قام القاضى الفاضل وخاطب صلاح الدين فى إطلاقه ، فظن عمارة أنه يُحرِّض على هلاكه ، فقال لصلاح الدين : « يا مولانا ، لا تسمع منه فى حقى » ؛ فغضب القاضى الفاضل وخرج ، وقال صلاح الدين لعمارة : إنه كان [والله [٢]] يشفع لك » ، فندم .

وأخرج عمارة ليصلب ، فطلب أن يمرّ به على مجلس القاضى الفاضل ، فاجتازوا به عليه ، فأغلق بابه ، ولم يجتمع به ، فقال :

عبد الرحيم قد احتجب   إن الخلاص من العجب

ثم صُلب هو والجماعة بين القصرين ، وذلك يوم السبت لليلتين مضتا من شهر رمضان من هذه السنة — أعنى سنة تسع وستين وخمسمائة — وأفنى [٣] [صلاح الدين] بعد ذلك من بقى منهم .

قال عماد الدين الأصفهانى : « وكان فيهم داعى الدعاة ابن عبد القوى ، وكان عارفاً بخبايا القصر وكنوزه ، فباد [٤] ولم يسمح بإبدائها ، وبقيت تلك الدفائن مخزونة ،

(١) فى الأصل : « فسعا » .
(٢) ما بين الحاصرتين عن س .
(٣) فى الأصل : «وأفنا» .
(٤) س : «فمات» .

وتلك الخزائن مدفونة (١) ، قد دفن دافنها ، وخزن تحت الثرى (١) خازنها ، إلى أن يأذن الله تعالى فى الوصول إليها ، والاطلاع عليها » .

واحتيط على ولد العاضد وغيرهم (٢) من أهله ، وأما الذين نافقوا على صلاح الدين [١٤٧] من جنده فلم يعرض لهم ، ولا أعلمهم أنه علم بحالهم ، وجمع من أموال الذين قبض عليهم ما يحمل إلى الشام ليستعين به نور الدين — رحمه الله — على الجهاد ؛ [وكان شيئاً كثيراً من الذهب والفضة وغير ذلك (٣)] .

وكان من جملة الذين أمر صلاح الدين بصلبهم قبالة القصر العوريس وكان قاضى

---

(١) س : «مخزونة» و«التراب» ، وما بالمتن يتفق ونص العماد ، أنظر : (الروضتين ، ج ١ ص ١٢٠) .

(٢) فى الأصل : «غيره» وما هنا عن (١٤٥) .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س بعد تصحيحه لغويا ، والذى نلاحظه أن ابن واصل يعتمد هنا فى حديثه عن هذه المؤامرة الخطيرة على العماد الأصفهانى ، وابن الأثير ، وأبى شامة ؛ وهؤلاء جميعاً مؤرخون سنيون . ولابن أبى طى — وهو مؤرخ شيعى — رواية أخرى تتضمن حقائق وتفصيلات جديدة هامة عن هذه المؤامرة ، ولهذا آثرنا نقل روايته هنا ، قال : «وفى هذه السنة اجتمع جماعة من دعاة المصريين والعوام ، وتآمروا فيما بينهم خفية ، وبكوا على انقراض دولة المصريين ، وما صاروا إليه من الذل والفقر ، ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيرا ، ويجمعوا هم وجماعة عينوهم من الامراء وغيرهم ، وأن يكاتبوا الفرنج ، وأن يثبوا بالملك الناصر ، وأدخلوا معهم فى هذا الأمر ابن مصال ، وأعدوا جماعة من شيعة المصريين ليلة عينوها ، وكاتبوا الفرنج بذلك ، وقرروا معهم الوصول إليهم فى ذلك الزمان المقرر ، فخانهم ابن مصال فيما عاهدهم عليه ، ونكث فى اليمين وكفرعنها ، وصار إلى الملك الناصر وعرفه بجلية ماجرى ؛ قال : فأحضرهم واحداً واحداً وقررهم على هذه الحالة ، فأقروا واعترفوا ، واعتذروا بكونهم قطعت أرزاقهم وأخذت اموالهم ، فأحضر السلطان العلماء واستفتاهم فى أمرهم ، فأفتوه بقتلهم وصلبهم ونفيهم ، فأمر بصلبهم ؛ وقيل بأن الذى أذاع سرهم زين الدين على الواعظ ، وطلب جميع مالابن الداعى (كذا) من العقار والمال ، فأعطاه جميع ذلك ؛ وكان الذين صلبوا منهم : المفضل بن كامل القاضى ، وابن عبد القوى الداعى ، والعوريس وكان قد تولى ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك ، وشبرما كاتب السر ، وعبدالصمد القشة — أحد الأمراء المصريين — ونجاح الحامى ، ورجل منجم نصرانى أرمنى كان قال لهم إن أمرهم يتم بطريق علم النجوم ، وعمارة اليمنى الشاعر» .

القضاة لهم ، فحكى لى (١) القاضى تاج الدين — المعروف بابن بنت الأعز — قاضى القضاة بالديار المصرية — رحمه الله (٢) — قال : « كان العوريس رأى فى منامه كأن المسيح عيسى بن مريم — عليه السلام — أخرج رأسه له من السماء ، فقال له العوريس : الصلب حق ؟ فقال المسيح — عليه السلام — : نعم الصلب حق ؛ فقصّ العوريس رؤياه على معبر ، فقال المعبر : الذى رأى هذه الرؤيا يُصلب ، لأن المسيح معصوم ، فلا يقول إلا حقا ، ولا يمكن كون ذلك راجعاً إلى المسيح عليه السلام ، لأن القرآن العظيم قد نصّ بأنه لم يُصلب ولم يُقتل ، فبقى أن يكون ذلك راجعاً إلى الرائى ، فهو الذى يُصلب ، فكان الأمر كما قال المعبر » .

وسيّر صلاح الدين كتابا إلى نور الدين يتضمن ذكر القضية (٣) بخط المرتضى ابن قريش ، فاتفق وصول الكتاب إلى دمشق يوم وفاة نور الدين — رحمه الله — فمنه فصل يقول فيه :

« لم نزل نتوسم من جند مصر ، ومن أهل القصر ، بعد ما أزال [الله (٤)] من بدعتهم ، ونَقَضَ من عُرى دولتهم ، وخفض من مرفوع كلمتهم ، أنهم أعداء وإن قعدت بهم الأيام ، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام » .

---

(١) المتحدث هنا هو المؤلف ابن واصل ، لأن القاضى ابن بنت الاعز لم يكن معاصرا لصلاح الدين أو لهذه المؤامرة ، إنما ولد سنة ٦١٤هـ وتوفى سنة ٦٦٥هـ . انظر أخبار هذا القاضى وترجمته فى : (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧) و (ابن العماد : شذرات الذهب ، وفيات ٦٦٥هـ) .

(٢) هذا الدعاء يدل على أن ابن واصل كان يكتب هذا الجزء من تاريخه بعد سنة ٦٦٥هـ ، وهى السنة التى توفى فيها ابن بنت الأعز .

(٣) س : « القصة » .

(٤) ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٠) ، وقد أورد أبو شامة هناك فصولا من هذا الخطاب أطول بكثير مما أورده ابن واصل هنا .

ثم ذكر مكاتبتهم للفرنج وتردد رسلهم إليهم [١] .

فصل : « والمولى عالم أن عادة أوليائه المستفادة من أدبه أن لا يبسطوا عقابا [٢] مؤلما ، ولا يعذبوا عذاباً محكماً ، وهؤلاء القوم لا يزيدهم العفو إلا ضراوة ولا الرأفة عليهم إلا قساوة [٣] ، فقبضنا على طائفة مفسدة ، وجماعة من هذا الجنس متمردة ، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة ، والسرائر المنافقة ، فكلاً أخذ الله [تعالى] بذنبه ، فمنهم من أقرّ طائعاً [١٤٨] عند إحضاره ، ومنهم من أقرّ عند ضربه ولم يقُم على إصراره ، فانكشفت لنا تقريرات مختلفة فى المراد ، متفقة فى الفساد ؛ فمنهم من أقام رجلا من بنى عم العاضد ، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد ، واختلف هؤلاء فى تعيين واحد من ولديْن له ؛ وأما بنو رُزّيك وبنو شاور فكلّ منهم أراد الوزارة لبنيهم [٤] من غير أن يكون لهم غرض فى تعيين الخليفة » .

فصل : « وفى أثناء هذه المدة كاتبوا سناناً [٥] صاحب الحشيشية بأن الدعوة واحدة ، والكلمة جامعة ، وأنه ما بين أهلها خلاف يجب به قعود عن نصره ، واستدعوا منه من يقم على الملوك غيلة ، ويثب عليه مكيدة وحيلة ، فقتل الله بسيف

---

(١) فى الأصل : « إليه » وما هنا عن س (٥٤ ب) .

(٢) فى الأصل : « عذاباً » ، وما هنا عن (الروضتين) ؛ هذا والنص يختلف هنا أحيانا عما أورده أبو شامة فى الروضتين ، لأن المؤلف هنا يختصر ، أما أبو شامة فيورد الفقرات التى ينقلها من نص الرسالة كاملة غير منقوصة .

(٣) س : « خسارة » .

(٤) س : « لبيتهم » وهو موافق لما فى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢١) .

(٥) هو راشد الدين سنان بن سلمان مقدم إسماعيلية الشام وكان يلقب بالشيخ أو شيخ الجبل ومعنى « الشيخ » هنا السيد أو الرئيس لا الرجل المسن . وقد عرفت هذه الفرقة « بالحشيشية » لأن أتباعها كانوا يتعاطون « الحشيش » . انظر : (محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية ، ص ٥٥ — ٦٠) و (Casanova : *Les Derniers Fatimides. Memoires de la Mission Archéologique Française du Caire. Tome VI, 3. P. P. 415-445.*).

الشرع المطهر جماعة من الغواة الغلاة ، الدعاة إلى النار ، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من الفجار ، وشنقوا على أبواب قصورهم ، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم ، ووقع التتبع لأتباعهم ، وشُرد طائفة الاسماعيلية ونُفوا ، ونودى أن يرحل طائفة كافة الأجناد وحاشية القصر ، وراجل (١) السودان إلى أقصى الصعيد ، وأما من فى القصر فقد وقعت الحوطة عليهم ، ورأى المملوك إخراجهم من القصر فإنهم مهما بقوا (٢) فيه بقيت مادة لا تنحسم الأطماع عنها ، فإنه قبلة (٣) للضلالة منصوبة ، وبيعة للبدع محجوجة (٤) » .

« ومما يطرف به المولى أن ثغر الإسكندرية على عموم مذهب السنة فيه ، اطلع البحث أن فيه داعيةً خبيثاً أمره ، محتقراً شخصه ، عظيما كفره ، يسمى قديداً القفّاص ، وأن المذكور مع خموله فى الديار المصرية قد فشت فى الشام (٥) دعوته ، وطبقت عقولَ أهل مصر فتنتُه ، وأن أرباب المعايش فيها يحملون إليه جزءاً من كسبهم ، والنساء يبعثن إليه شطرا [وافيا (٦)] من أموالهن ، ووُجدت فى منزله بالإسكندرية عند القبض عليه والهجوم إليه ، كتب بجردة (٧) ، فيها خلع العذار ، وصريح الكفر الذى ما عنه اندفاع واعتذار [١٤٩] [ورقاع (٨)]

(١) فى الأصل : « ورجل » والتصحيح عن : س (١٤٦) و (الروضتين ، نفس الجزء والصفحة) .

(٢) فى الأصل : « بقيوا » والتصحيح عن س والروضتين .

(٣) فى الروضتين : « حبالة » .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢١) ؛ وقد علق عليها أبو شامة بقوله : « ولعلها محجوبة » .

(٥) كذا فى الأصل ، وفى (الروضتين) ؛ وفى س (١٤٦) : « فى البلد » .

(٦) ما بين الحاصرتين عن (الروضتين) .

(٧) هذا اللفظ ساقط من (س) .

(٨) مابين الحاصرتين عن (الروضتين) .

يُخاطب فيها بما تقشعر منه الجلود ؛ وكان (١ يدعى النسب إلى أهل القصر ، وأنه خرج منه طفلا صغيراً ، ونشأ على الضلالة كبيراً ١) ؛ وبالجملة فقد كفى الإسلام أمره ، وحاق به مكره ، وصرعه كفره » .

ذكر شيء من خبر عمارة وشعره

كان عمارة بن على اليمنى من الشعراء الفحول المجيدين ، ولم يكن شيعياً ، وإنما كان فقيهاً على مذهب الإمام الشافعى — رحمه الله — وقتله وفاؤه وحسن عهده لمن أحسن إليه ، وقد ذكر مباينته لمذهب القوم من قصيدة [يقول (٢)] :

أفاعيلُهُم فى الجودِ أفعالُ سُنَّةٍ   وإنْ خالفونى فى اعتقادِ التشيُّعِ

وذكر هو عن نفسه فى كتاب صنّفه (٣) : أنه أقام بزبيد ثلاث سنين ، يُقرأ عليه (٤) مذهب الشافعى ، قال : « ولى فى الفرايض مصنف يقرأ باليمن » ؛ وذكر أنه قدم مكة بعد ذلك فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، قال : « وفى موسم هذه السنة توفى أمير الحرمين الشريف هاشم بن فُلَيْتَة (٥) ، وولى ولده القاسم بن هاشم ، وألزمنى السفارة عنه والرسالة منه إلى الديار المصرية ، فقدمتها فى شهر ربيع الأول

---

(١) هذه الجملة انفرد بها النص هنا ، ولا توجد فى (الروضتين) .

(٢) مابين الحاصرتين عن س . ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن المستشرق « Derenbourg » قد ذيل كتاب (النكت المصرية) لعمارة بمقتبسات عن عمارة وحياته وشعره نقلها عن المراجع التاريخية المختلفة ، ومن بين هذه المقتبسات صفحات من (مفرج الكروب) وينتهى فى نقله عن ابن واصل بهذا البيت من الشعر . انظر : (عمارة النكت المصرية ، ص ٦٠٧ — ٦٢٩)

(٣) الاشارة هنا إلى كتابه « النكت المصرية فى أخبار الوزراء المصرية » .

(٤) النص فى (النكت ، ص ٢٣) : « وأقمت فى زبيد ثلاث سنين وجماعة من الطلبة يقرؤون عندى مذهب الشافعى والفرائض فى المواريث » .

(٥) حكم بين سنتى ١١٣٢ و ١١٥٤ م ، وحكم ابنه القاسم بين سنتى ١١٥٤ و ١٦١١ م . انظر : (Gerald de Gaury : *Rulers of Mecca* PP. 62, 66) .

سنة خمسين وخمسمائة ، والخليفة بها يومئذ الفائز بن الظافر ، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رُزَّيك ، فلما حضرت للسلام عليهما فى قاعة الذهب [١] من قصر الخليفة أنشدتهما [قصيدة أولها [٢]] :

الحمدُ للعِيسِ بعد العَزْمِ والهِمَمِ ... حَمْدًا يقومُ بما أَوْلَتْ من النِّعَمِ
لا أَجْحَدُ الحقَّ ، عندى الركاب يَدٌ ... تمنتْ اللُّجُم فيها رتبةَ الخُطُمِ
قَرَّبْنَ بُعْدَ مَزَارِ العزِّ من نَظَرِى ... حتى رأيتُ إمامَ العصرِ مِن أَمَمِ
وَرُحْنَ من كعبةِ البَطْحاءِ والحَرَمِ [٣] ... وفداً إلى كعبةِ المعروفِ والكَرَمِ [٤]
فهل درى [٥] البيتُ أنى بعد فُرْقَتِهِ [٦] ... ماسِرْتُ عن [٧] حَرَمٍ إلا إلى حَرَمِ
حيث الخلافةُ مضروبٌ [٨] سُرادقُها ... بين النقيضيْنِ من عفوٍ [٩] ومن نِقَمِ
وللإمامةِ أنوارٌ مقـــــدسةٌ ... تجلو البغيضيْنِ من ظُلْمٍ ومن ظُلَمِ

---

(١) قاعة الذهب ، ويقال لها أيضاً « قصر الذهب » ، ذكر (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١١٣) أن الذى بناها هو الخليفة العزيز بالله ، وهى إحدى قاعات القصر الشرقى الكبير ، وكان يدخل إليه من باب الذهب ومن باب البحر . وموضع هذه القاعة الآن — تبعاً لتحقيقات المرحوم محمد رمزى ، هامش ٢ من نفس الصفحة بالمرجع السابق — مجموعة المبانى الواقعة خلف مدرسة النحاسين الأميرية التى بشارع بين القصرين بين شارع بيت القاضى وحارة بيت القاضى فى الجزء الواقع خلف المدرسة المذكورة .

(٢) مابين الحاصرتين زيادة عن : (النكت العصرية ، ص ٣٢)

(٣) س : « الحرمى » .

(٤) س : « المعروف بالكرم » .

(٥) فى الاصل : « وهل درا » ، وفى س : « فهكذا البيت » ، والتصحيح عن : (النكت ، ص ٣٢) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٥)

(٦) كذا فى الاصل وفى (النكت) ؛ ونص (الروضتين) : « زورته » .

(٧) كذا فى الاصل ، وهى فى (النكت) و (الروضتين) : « من » .

(٨) فى س (٤٦ ب) : « مضرفى » .

(٩) فى الأصل : « عمر » وفى س : « عم » ، والتصحيح عن (النكت ، ص ٣٣) (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٥) .

[١٥٠] وللنبوة آياتٌ تَنُصُّ (١) لنا ... على الخفيَّيْن (٢) من حُكمٍ ومن حِكَمِ
وللمكارم أعــلامٌ تُعلِّمُنا ... مدْحَ الجزيلين من بأسٍ ومن كَرَمِ
وللعُلى ألسُنٌ تُثني محامدُها ... على الحميدين من فِعْلٍ ومن شِيَمِ
وراية الشَّرَفِ البـذَّاخِ تَرْفَعُها ... يَدُ الرفيعين من مجْدٍ ومن هِمَمِ
أقسمتُ بالفائزِ المعصومِ معتقـداً ... فوْزَ النجاةِ ، وأجرَ البرِّ فى القَسَمِ
لقد حمى الدينَ والدنيا وأهلَهما ... وزيرُه الصالحُ الفَرَّاجُ للغُمَمِ
اللابِسُ الفخْرَ لم تَنْسِجْ غلائِلَهُ ... إلا يَدُ الصَّنعَيْن (٣) السيفِ والقلَمِ
وُجودُه أوْجدَ الأيامَ ما اقترحتْ ... وَجُودُه أعدمَ الشاكين للعَدَمِ
قد مَلَّكَتْهُ العوالى رِقَّ مملكةٍ ... تُعيرُ أنفَ الثُّرَيَّا عِزَّةَ (٤) الشَّمَمِ
أرى مقاماً (٥) عظيمَ الشأنِ أوْ هَمَني ... فى يقظتى أنها من جُمْلةِ الحُلُمِ
يومٌ من العُمْرِ لم يَخْطُر على أمَلي ... ولا تَرَقَّتْ إليه رغبةُ الهِمَمِ
لَيْتَ الكواكبَ تدنو لى فأنظمها ... عقودَ مَدْحٍ ، فما أرضى لكم كَلِمي
ترى الوَزَارةَ فيـه وهى باذلةٌ ... عند الخلافةِ نُصْحاً غيرَ مُتَّهَمِ
عواطفٌ عَلَّمَتْنا (٦) أن بَيْنَهُما ... قرابةً من جميلِ الرأى لا الرحِمِ

---

(١) كذا فى الأصل وفى س وفى (النكت) ، وفى الروضتين : « تفىء » .
(٢) كذا فى الأصل ، وفى الروضتين والنكت ، وفى س : « الحنيفين » .
(٣) فى الاصل وفى الروضتين : « الصنعتين » ، وما هنا عن : (النكت ، ص ٣٣)
(٤) فى الاصل ، وفى الروضتين ، (ج ١ ، ص ٢٢٦) : « غرة » ، وماهنا عن : (النكت ، ص ٣٣) .
(٥) فى الاصل : « مقام » والتصحيح عن س (١٤٧ ا) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٦)
(٦) كذا فى الاصل وفى (النكت) ؛ وهى فى (س) و (الروضتين) : « أعلمتنا » .

خليفةٌ ووزيرٌ مدَّ عَدْلُهما ظِلاًّ على مَفْرِقِ الإسلامِ والأُمَمِ
زيادةُ النيل نَقْصٌ عند فَيْضِهما فما عسى تتعاطَى مِنَّةَ الدِّيَمِ

قال : « وعهدى بالملك الصالح وهو يستعيدها فى حال النشيد مرارا ، والأستاذون والأمراء (١) يذهبون (٢) فى الاستحسان كل مذهب ، ثم أُفيضت علىّ الخلع من ثياب الخلافة مُذَهَّبة ، ودفع إلىّ الصالح خمسمائة دينار ، وإذا بعض الأستاذين (٣) قد خرج من عند السيدة بنت الإمام الحافظ بخمسمائة دينار أخرى ، وحُمل المال معى إلى منزلى ، وأُطلقتْ لى من دار الضيافة (٤) رسوم لم تُطلَق لأحد قبلى ، وتهادتنى أمراء الدولة [١٥١] إلى منازلهم للولائم ، واستحضرنى الصالح للمجالسة ، ونظمنى فى سلك [أهل (٥)] المؤانسة ، وانثالت علىّ صِلاتُه ، وغمرنى بِرُّه ، ووجدتُ بحضرته من أعيان أهل الأدب : الشيخ الجليل أبا المعالى بن الحُباب (٦) ، والموفَّق

(١) النص فى (النكت ، ص ٣٤) : « وأعيان الأمراء والكبراء » .
(٢) هذا اللفظ ساقط من س .
(٣) كان كبار القواد من خواص الخليفة فى العصر الفاطمى يسمون « بالأستاذين » ، يقول صاحب (صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٧٧) : « وأجلهم المحنكون وهم الذين يدورون عمائمهم على أحناكهم كما تفعل العرب والمغاربة ، وهم أقربهم إليه ، وأخصهم به ، وكانت عدتهم تزيد على ألف » .
(٤) ذكر (المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٣٨) أن هذه الدار كانت بحارة برجوان وتعرف بدار الأستاذ برجوان ، وفيها كان يسكن ، ولما قدم بدر الجمالى إلى مصر بنى هناك دارا عظيمة سكنها ، ثم سكنها من بعده ابنه المظفر أبو محمد جعفر ، فعرفت بدار المظفر ، وبعد موته اتخذت دار ضيافة برسم الرسل الواردين من الملوك ، واستمرت كذلك إلى أن انقرضت الدولة ، فأنزل بها السلطان صلاح الدين أولاد العاضد . انظر أيضا (نفس المرجع ، ص ٣٤٣ — ٣٤٤)
(٥) مابين الحاصرتين عن س و (النكت ، ص ٣٤)
(٦) هو القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبى السعدى التميمى ، سمى بالجليس لأنه كان جليس الخلفاء الفاطميين مقربا إليهم ، وهو من ذرية بنى الأغلب التميميين أصحاب إفريقية ، تولى ديوان الانشاء بالاشتراك مع الموفق بن الخلال فى عهد الخليفة الفائز ووزارة الصالح طلائع بن رزيك ، وذكر عمارة فى (النكت ، ص ٥٩) أنه دخل =

أبا الحجاج يوسف بن الخلال [صاحب ديوان الإنشاء [1]] ، والمهذب أبا محمد الحسن [2] بن الزبير ، وما من هذه الحلبة [أحد [3]] إلا ويضرب فى الفضائل النفسانية والرئاسة الإنسانية [4] بأوفر نصيب ، وما زلت أحذو على طرائقهم حتى نظمونى [5] فى سلك فرائدهم .

= اليمن . وتوفى سنه ٥٦١ هـ . انظر ترجمته فى : (العماد : الخريدة ، ج ١ ص ١٨٩ — ٢٠٠) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤١) و (ابن قلاقس : الديوان ص ١٠٠ و ١١٥) و (ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٥٧٧ — ٥٧٩) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٥١) و (ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ و ٣٧١) و (السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣٢٤) و (الدكتور محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص ٢١٥ — ٢١٨) .

(١) مابين الحاصرتين (عن عمارة : النكت ، ص ٣٥) . والموفق أبو الحجاج يوسف ابن محمد بن الخلال كان آخر رؤساء ديوان الانشاء فى العصر الفاطمى ، وعليه تخرج القاضى الفاضل ثم خلفه على رئاسة هذا الديوان . وقد لبث ابن الخلال متوليا لديوان الانشاء إلى أن طعن فى السن فلزم بيته ، وكان ذلك فى عهد وزارة أسد الدين شيركوه للخليفة العاضد . وتوفى ابن الخلال سنة ٥٦٦ هـ . انظر ترجمته وأخباره فى : (العماد : الخريدة ، ج ١ ، ص ٢٣٥ — ٢٧٥) و (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٦ ، ص ٢١٩ — ٢٢٤) و (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢١٩) و (السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣٢٤) و (الدكتور محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص ٣٤٤ — ٣٤٧) .

(٢) فى الأصل : « الحسين » والتصحيح من : س (٤٧ ب) و (العماد : الخريدة ، ج ١ ، ص ٢٠٤) . وهو المهذب أبو محمد الحسن بن على بن الزبير ، وقد كان هو وأخوه القاضى الرشيد أحمد بن على بن الزبير من أشهر شعراء مصر فى العصر الفاطمى . وموطنهما الأصلى أسوان ، وسافر كل منهما إلى اليمن . توفى سنة ٥٦١ هـ . انظر ترجمته فى : (العماد : الخريدة ، ج ١ ، ص ٢٠٤ — ٢٢٥) و (ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٩ ، ص ٤٧) و (ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٨) و (الادفوى : الطالع السعيد ، ص ١٠٠) و (الدكتور محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص ٢٠٣ — ٢١٠) .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س و (النكت ، ص ٣٤) .

(٤) هذا اللفظ ساقط من س .

(٥) س : « . . على طريقهم حتى ينظمونى » .

قال [عمارة] : وأنشدت الصالح وهو بالقبو[١] من دار الوزارة قصيدة منها [أقول[٢]] .

دعوا كُلَّ بَرْقٍ شِمْتُمُ غيرَ بارِقٍ ... يلوحُ على الفُسْطَاطِ صادِقُ بِشْرِهِ
وزوروا المقامَ[٣] الصالحيَّ فكلُّ مَنْ ... على الأرضِ يُنْسى[٤] ذِكْرُهُ عند ذِكْرِهِ
ولا تجعلوا مقصودَكُمْ طَلَبَ الغِنَى ... فتَجْنُوا[٥] على مجْدِ الزمانِ وفَخْرِهِ
ولكن سلوا منه العلى[٤] تظفروا بها ... فكل امرء يُرْجى[٦] على قَدْرِ قَدْرِهِ

قال : ولما جلس شاور فى دار الذهب قام الشعراء والخطباء ولفيف الناس إلا الأقل شاكون[٧] من بنى رزيك ، وضرغام نائب الباب ، ويحيى بن الخياط[٨] اسفهسلار[٩] ، فأنشدته :

زالتْ ليالى بنى رُزَّيْكَ وانصرمتْ ... والحمْدُ والذمُّ فيها غيرُ مُنْصَرِمِ
كأنَّ صالِحَهُمْ يَوْماً وعادِلَهُمْ ... فى صَدْرِ ذا الدَّسْتِ لم يَقْعُدْ ولم يَقُمِ
كنا نَظُنُّ — وبعضُ الظنِّ مأثمةٌ — ... بأن ذلك جَمْعٌ غيرُ مُنْهَزِمِ
فمذْ وَقَعْتَ وقوعَ النَّسْرِ[١٠] خانَهُمُ ... مَنْ كان مجتمعاً فى ذلك الرَّخَمِ

---

(١) س : « بالقرب » وماهنا يتفق مع (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٦) و (النكت ، ص ٣٥)
(٢) ما بين الحاصرتين عن س و (النكت ، ص ٣٤) .
(٣) س (٤٧ ب) : « مقام » ، وما هنا يتفق ونص الروضتين و (النكت ، ص ٣٦)
(٤) فى الأصل : « ينسا » و « العلا » .
(٥) فى س : « يقصر » ، وفى الروضتين : « فتخبوا » ، وماهنا يتفق ونص النكت
(٦) س : « يجرى » وما هنا يتفق ونص (الروضتين) و (النكت ص ٣٦) .
(٧) كذا فى الاصل ، وفى (النكت ، ص ٦٩) : « ينالون » .
(٨) انظر مافات ص ١٥٦ ، هامش ٢
(٩) انظر مافات ص ٢ ، هامش ١
(١٠) س (٤٧ ب) : « الشر » . وماهنا يتفق ونص (الروضتين) و (النكت ، ص٦٩)

ولم يكونوا عدُوًّا ذلّ جانبُه [١] وإنما غرقوا فى سَيْلِكَ العَرِمِ
وما قصدتُ بتعظيمى عداك [٢] سوى تعظيمَ شأنِكَ ، فاعذرنى ولا تَلُمِ
ولو شكرتُ لياليهم محافظةً لعهدها لم يَكُن بالعهدِ من قِدَمِ
ولو فتحتُ فمى يوماً بذمهمُ لم يرضَ فَضْلُكَ إلا أن يَسُدَّ فمى
والله يأمُرُ [٣] بالإحسانِ عارفةً منه ، وينهى عن الفَحْشاء فى الكَلِمِ

[١٥٢] قال : فشكرنى شاور وأبناؤه على الوفاء لبنى رزيك .

ذكر ورود الرسالة النورية إلى صلاح الدين

كنا قد ذكرنا [٤] أن نور الدين — رحمه الله — سيّر موفق الدين خالد بن القيسرانى إلى صلاح الدين فى معنى الحمل إلى الشام ورفع [٥] أوراق بالأعمال المصرية ، ولما وصل [٦] إلى صلاح الدين ، وأنهى [٧] إليه رسالة نور الدين أطلعه [صلاح الدين] [٨] على أحوال البلد ، وقال [٩] : « هؤلاء الأجناد ، فأعرضهم وأثبت

(١) س : « جانبهم » وما هنا يتفق ونص (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٦) و (النكت ، ص ٦٩) .
(٢) س : « عدك » وما هنا يتفق ونص (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٧) ، وفى (النكت ص ٧٠) : « سواك سوى » .
(٣) فى الاصل ، وفى س : « ماس » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٧) و (النكت ، ص ٧٠) .
(٤) أنظر مافات هنا ، ص ٢٣٢
(٥) س (١٤٨) : « ووقع » .
(٦) س : « ورد » .
(٧) فى الأصل ، وفى س : « أنها » بالألف .
(٨) ما بين الحاصرتين عن س .
(٩) ينقل ابن واصل هنا باختصار عن (البرق الشامى للعماد) أنظر نصه فى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٩) . وفى نفس المرجع والصفحة رواية أخرى لابن أبى طى ، آثرنا نقلها هنا لأهميتها وللمقارنة ، وهى : « قال ابن أبى طى : وفى هذه السنة وصل رسول نور الدين =

أخبارهم ، وما يضبط مثلُ هذا الإقليم العظيم إلا بالمال العظيم ، ثم أنت تعرف مصر وعظماءها ، وأنهم معتادون النعمة الواسعة ، وقد تصرفوا فى أماكن لا يمكن انتزاعها منهم ، ولا يسمحون بأن يُنقص من ارتفاعها » ؛ ثم أخذ [صلاح الدين](١) فى جمع مال يرفعه [إلى نور الدين](١) ، وحصل للخالد من الأموال ما لم يكن فى خلده . ثم اتفقت وفاة نور الدين — رحمه الله — فكان ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر وفاة الملك العادل نور الدين

ابن زنكى بن آق سنقر — رحمه الله تعالى —

كنا ذكرنا أن نور الدين كان قد عزم على التجهز للدخول إلى الديار المصرية لأخذها من صلاح الدين ، فإنه رأى منه فتوراً فى قصد الفرنج من ناحيته ، (٢)وكان يعلم ٢) أنه إنما يمتنع صلاح الدين من الغزو للخوف منه والاجتماع به ، وأنه يؤثر

= الوفق بن القيسرانى إلى الديار المصرية ، واجتمع بالسلطان الملك الناصر ، وأنهى إليه رسالة نور الدين ، وطالبه بحساب جميع ما حصله وارتفع إليه من النفل فصعب ذلك على السلطان ، وأراد شق العصى ، لولا ما ثاب إليه من السكينة والعقل ، فأمر بعمل الحساب ، وعرضه على ابن القيسرانى ، وأراه جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعهم ، وتعيين جامكياتهم ، ورواتب نفقاتهم ، فلما حصل عنده جميع ذلك أرسل معه هدية إلى نور الدين مع الفقيه عيسى . إلخ » . ثم نقل ابن أبى طى بعد ذلك ثبتا بمفردات هذه الهدية التى أرسلها صلاح الدين إلى نور الدين ، ولهذا الثبت أهميته لأن ابن أبى طى نقله كما ذكر من « خط الوفق بن القيسرانى » ، ثم عقب عليه بقوله : « وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل إلى نور الدين ، لانهم اتصل بهم وفاته ، فنها ما أعيد ، ومنها ما استهلك ، لأن الفقية عيسى وابن القيسرانى وضعوا عليهم من نمهم ، واستبدوا بأكثرها ، وقيل إنها وصلت جميعها إلى السلطان ، لانه اتصل به خبر موت نور الدين ، فأنفذ من ردها ، قال : وحدثنى من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالا لم يعلم مقداره » : انظر (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٩) .

(١) مابين الحاصرتين عن س .

(٢) مكان هذين اللفظين فى س : « وذلك » — والمؤلف ينقل هنا عن (ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥١) ، ولاحظ أن المصدر الأول لأخبار النفرة بين نور الدين وصلاح الدين هو ابن الاثير ، وهو يكرر الفكرة ويؤكدها كلما سنحت له فرصة .

كون الفرنج[1] فى الطريق ليمتنع بهم على نور الدين ، فأرسل نور الدين إلى الموصل وبلاد الجزيرة وديار بكر وغيرها يطلب العساكر للغزاة ، وكان عزمه أن يترك[2] العساكر مع ابن أخيه سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى — صاحب الموصل والشام[3] — ، ويسير هو بعسكره إلى مصر ، فعاقه القدر المحتوم عن قصده .

ولما كان يوم عيد الفطر من هذه السنة — أعنى سنة تسع وستين وخمسمائة — أمر نور الدين — رحمه الله — بتطهير ولده الملك الصالح إسماعيل ، فاحتفل لهذا الأمر ، وزينت دمشق أياما ، وهنأه كاتبه عماد الدين الأصفهانى بقصيدة أولها :

عيدان : فِطْرٌ وطُهْرُ　　فَتْحٌ قَرِيبٌ ونَصْرُ
كلاهما لك فيه　　حقاً هناء[4] وأجْرُ
[١٥٣] تجِلٌ على الطُّهْرِ نام　　زَكا لَهُ منك نجر[5]
محمودٌ الملكُ العادلُ　　الكريمُ الأغرُّ
وبابنه[6] الملكِ الصالحِ　　العيون[7] تقرُّ
مولى به اشتدَّ للدين　　والشريعةِ أَزْرُ
نورٌ تجلَّى[8] عياناً　　ما دونَهُ اليومَ سِتْرُ

(١) صيغة س : « وأنه يؤثر الفرنج كونهم فى الطريق » .
(٢) فى الأصل : « ينزل » والتصحيح عن المرجع الذى ينقل عنه هنا حرفيا وهو (الكامل لابن الاثير) .
(٣) فى الأصل : « بالشام » والتصحيح عن ابن الأثير .
(٤) فى الأصل ، وفى س : « حق هناك » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٧) .
(٥) كذا فى الاصل وفى الروضتين ؛ وفى س : « نحر » .
(٦) س : « ونايبه » .
(٧) فى الأصل : « للعيون » وفى س : « به العيون » والتصحيح عن الروضتين .
(٨) فى الأصل وفى س : « تجلا » .

أضحت مساعيك غُرّاً كما أياديك غُزْرُ (١)
وكلُّ قصدك رُشْدٌ وكلُّ فعلك بِرُّ
وإنَّ حبك دينٌ وإن بغضك كفرُ
لنا بيمناك يُمْنٌ كما بيسراك يُسْرُ
وللموالين نفعٌ وللمعادين ضُرُّ

[ومنها يقول] (٢) :

تَمَّ تطهيرَ (٣) مَلْكٍ له الملوكُ تخِرُ (٤)
وكيف يُعْمَلُ للطاهرِ المُطَهَّرِ طُهْرُ
يُزهى سريرٌ وتاجٌ به ودستٌ وصدْرُ
هذا الطهورُ ظهورٌ (٥) على الزمانِ وأمْرُ
وذا الختانُ (٦) ختامٌ بمسكه طاب نَشْرُ
رُزِقْتَ عُمْراً طويلاً ما طالَ للدهرِ عُمْرُ

وفى يوم العيد — وهو فى يوم الأحد — ركب نور الدين على الوسم المعتاد إلى الميدان الأخضر الشمالى بدمشق لطعن (٧) الحَلَق ، ورمى القَبَق (٨) ، وأمر فضربت

---

(١) فى الاصل ، وفى س : « غر » ، وما هنا عن الروضتين .
(٢) مابين الحاصرتين عن س ؛ وانظر القصيدة كاملة فى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٧)
(٣) س : « بتطهير » .
(٤) س : « تجر » .
(٥) فى الأصل : « طهور » وفى س : « ظهوراً » والتصحيح عن الروضتين .
(٦) س : « الختام » .
(٧) فى الأصل ، وفى س (١٤٩) : « ليطعن » والتصحيح عن الروضتين ، وقد نقل صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢٢٧) خبر هذا اليوم عن العماد الكاتب بألفاظه وجمله المسجوعة ، وابن واصل يختصر هنا نص العماد .
(٨) القبق : أو القباق — لفظ تركى ، معناه لغة نبات القرعة العسلية (une courgette) ومعناه اصطلاحا الهدف الذى كان يستعمل فى اللعبة التى عرفت فى الشرق فى العصور الوسطى =

له خيمة فى الميدان القبلى الأخضر ، وأمر بوضع المنبر ، وخطب القاضى شمس الدين ابن الفراش[(١)] — قاضى العسكر — بعد أن صلى به ؛ ثم مُدَّ السماط العام ، وأنهب على عادة الترك ، وعاد [نور الدين] إلى القلعة ، ومُدَّ خوانه الخاص .

وفى غد هذا اليوم — وهو يوم الاثنين [٥٤١] ثانى شوال — ركب فى خواصه وأصحابه ، ودخل الميدان والأمير همام الدين مودود[(٢)] — وهو من أكبر أمرائه — يسايره ، فقال لنور الدين : « هل نكون هنا فى مثل هذا اليوم فى العام القابل ؟ » . فقال نور الدين : « قل هل نكون هنا بعد شهر ؟ فإن السنة بعيدة » فجرى على منطقهما[(٣)] ما جرى به القدر السابق ، فإن نور الدين لم يصل إلى آخر الشهر ، وهمام الدين لم يصل إلى آخر العام .

= بنفس الاسم — القبق — ، وكان طريقة لعب القبق كما وصفها (Dosy: *Supp. Dict. Arab*) أن ينصب صار طويل من خشب ، يكون فى رأسه شكل قرعة من ذهب أو فضة بمثابة الهدف ، ويكون فى القرعة طير حمام ، ثم يأتى اللاعبون المباراة فى رمى الهدف بالنشاب أو السهام وهم على ظهور الخيل ، فمن أصاب منهم القرعة وأطار الحمام حاز السباق وأخذ القرعة المعدنية لنفسه ، غير أن (المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ١٨٠) وصف هذه اللعبة وصفا يختلف عن الوصف السابق بعض الشىء ، ويبدو أن وصف المقريزى هو الذى يعنيه المتن هنا ، فنص المتن : « المطعن الحلق ، ورمى القبق » . والمقريزى يقول : « والقبق عبارة عن خشبة عالية جدا ، تنصب فى براح من الأرض ، ويعمل بأعلاها دائرة من خشب وتقف الرماة بقسيها وترمى بالسهام جوف الدائرة لكى تمر من داخلها إلى غرض هناك ، تمرينا لهم على إحكام الرمى ، ويعبر عن هذا بالقبق فى لغة الترك » . ثم تحدث بعد ذلك فى نفس الجزء والصفحة عن الميدان الذى كان بالقاهرة فى العصر المملوكى لهذه اللعبة ، ويسمى « ميدان القبق » . انظر أيضا (المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٨ ، حاشية رقم ٦ للدكتور زيادة) .

(١) كذا فى الأصل ، وفى س ، وفى الروضتين نقلا عن العماد : « ابن المقدم » .

(٢) عرف به صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢٢٨) نقلا عن العماد ، قال : « وكان قديما فى أول دولته (أى دولة نور الدين) والى حلب » .

(٣) س : « منطقه » ، وما هنا يتفق ونص (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٨) وهو الصحيح كما يدل عليه المتن فيما يلى .

ثم شرع نور الدين باللعب بالكرة مع خواصه ، فاعترضه برتقش — أمير آخر — وقال له : « باش » ، فحصل عنده غيظ على خلاف عاداته فى الكرم والحلم ، فزجره وزبره ، ثم ساق ودخل القلعة ، ولم يخرج منها إلا ميتا ، وأصابته[1] علة الخوانيق ، فبقى أسبوعاً فى منزله مشغولا بالنازلة التى نزلت به ، والناس مشغولون بزينة الختان والفرح ، والبلد مزين لظهور الملك الصالح ، فما انتهت الأفراح إلا بحلول المصيبة به رحمه الله .

وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع ، وكان مهيباً فما روجع ؛ وحكى الطبيب جمال الدين الرحبى[2] الدمشقى قال : « استدعانى نور الدين فى مرضه الذى توفى فيه مع غيرى من الأطباء ، فدخلنا عليه وهو فى بيت صغير بقلعة دمشق ، وقد تمكنت الخوانيق به وقارب الهلاك ، فلا يكاد يُسمع صوته ، فقلت له : كان ينبغى أن لا يؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض إلى هذا الحد ؛ فالآن ينبغى أن تنتقل إلى مكان فسيح فله أثر فى هذا المرض ، وشرعنا فى علاجه فلم ينفع فيه الدواء ، وعظم الداء ، ومات عن قريب » .

قال عماد الدين الكاتب[3] : « كان لنور الدين — رحمه الله — صُفة[4]

---

(١) س (١٤٩) : « وكان سببه أنه أصابته .. الخ » .

(٢) هو جمال الدين عثمان بن يوسف بن حيدرة الرحبى ، ولد ونشأ فى دمشق ، وكان كما يذكر (ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٢٠١) : أوحد زمانه ، اشتغل بصناعة الطب على والده وعلى غيره ، وأتقنها إتقانا لا مزيد عليه ، وخدم فى البيمارستان الكبير الذى أنشأه نور الدين وبقى به سنين ، وكان يحب التجارة ويعانيها ويسافر بها فى بعض الأوقات إلى مصر ، ويأتى من مصر بتجارة ، ولما وصلت التتر الى الشام فى سنة ٦٥٧ هـ توجه إلى مصر وأقام فيها ، ثم مرض وتوفى بالقاهرة فى سنة ٦٥٨ هـ .

(٣) روى هذا الخبر أيضا عن العماد صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢٢٨) .

(٤) جاء فى (اللسان) : صفة البنيان طرته ، ومن معانيها فى (محيط المحيط) : المصطبة المرتفعة تستعمل للجلوس عليها ، وهذا هو المعنى المقصود هنا ، ومن هذا اللفظ أخذت الكلمة الانجليزية (sofa) فقد ذكرت المعاجم الانجليزية أنها من أصل عربى وأن معناها الأريكة أو المقعد الطويل ذى الظهر واليدين (a long seat with stuffed bottom, back. and arms) . انظر أيضا : (المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٧ ، هامش ٢ و Twentieth Century Dictionary.)

فى لدار التى على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال ، وكان جلوسه على تلك الصُّفَّة فى أكثر (١) الأوقات، فلما جاءت سنة الزلزلة بنى بإزاء تلك الصُّفَّة بيتاً من الأخشاب ، وهو يبيت فيه [١٥٤ ع] ويصبح ، ويخلو بعبادته ، فدُفن فى ذلك البيت الذى اتخذه حمى من الحمام » ؛ وكانت وفاته يوم الأربعاء حادى عشر شوال من هذه السنة — أعنى سنة تسع وستين وخمسمائة — .

وكان صلاح الدين قد استشعر بقصد نور الدين له ، فحكى عنه القاضى بهاء الدين ابن شداد — قاضى حلب رحمه الله — قال : « كان يبلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية ، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن (٢) نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نرده (٢) إذا تحقق قصده ، وكنت أنا وحدى أخالفهم وأقول : لا يجوز أن يقال شىء من ذلك ، ولم يزل النزاع بيننا حتى ورد الخبر بوفاته — رحمه الله — » .

قلتُ : ودفن نور الدين — رحمه الله — بالقلعة مدة ، ثم نقل إلى مدرسته التى أنشأها بدمشق ، ودفن بها (٣) ، وقبره بها معروف يزار .

صفته وسيرته — رحمه الله —

كان أسمر طويل [القامة (٤)] ليس له لحية إلا فى حنكه (٥) ، وكان واسع الجبهة ، حسن الصورة ، حلو العينين .

(١) س : « جميع الأوقات » ، والروضتين : « جميع الأحوال » .
(٢) الأصل : « يكاشف ويخالف ويشق عصاه ويلقى عسكره بمصاف يرده » ، والتصحيح عن (ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٧) .
(٣) هذان اللفظان ساقطان من س .
(٤) ما بين الحاصرتين عن س ؛ وهذا الوصف منقول عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٥١) ، وعنه نقل أيضا صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩) .
(٥) س : « إلا قليل شعرات فى ذقنه » ، وماهنا يتفق مع الأصل المنقول عنه ، وهو ابن الأثير ، كما أنه يتفق أيضا ونص الروضتين .

وكان مولده سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، فكان عمره قريباً من ثمان وخمسين سنة .

وأما سيرته — رحمه الله — فى عدله وزهده[1] ، وخوفه من الله تعالى ، وجهاده لعدو الدين ، وصدقاته ومعروفه وإحسانه ، وابتغائه لثواب الله تعالى ولدار الآخرة ، فهو أشهر من أن يذكر ، فإنى لا أعلم ملكا بعد الخلفاء الراشدين اجتمع فيه من الصفات الجميلة مثل ما اجتمع فيه — رحمه الله — ؛ ولنذكر ما نُقل إلينا من أخباره مما يستدل به على ما ذكرناه ، وإن كان قد بلغ فى الوضوح والشهرة إلى حد التواتر .

وأما زهده فالمشهور عنه أنه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا فيما يخصه من ملك كان قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ، ومن الأموال المرصدة لصالح المسلمين ، يُحضر الفقهاء ويستفتيهم فى أخذ ما يحلُّ له من ذلك ، فيأخذ ما يفتونه بحله ، ولا يتعداه إلى غيره ، ولم يلبس حريراً ولا ذهباً ولا فضة ، ومنع من شرب الخمر فى جميع بلاده ، ومن إدخالها إلى بلد ما ، وكان يَحُدّ[2] [١٥٦] شاربها الحد الشرعى ، وكل الناس عنده فيه سواء .

وحدّث شخص كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين أُنَر زوجة نور الدين — وكان وزيرها — ، قال : « [3] كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس فى المكان المختص به ، وتقوم فى خدمته لا تتقدم إليه إلا أن يأذن فى أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذى يختصّ بها ، وينفرد هو ، تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال ، أو مطالعة

---

(١) فى الأصل : « ورفده » وما هنا عن س (٤٩ ب) .

(٢) س : « يجلد » .

(٣) هذه الأخبار عن نور الدين وسيرته منقولة عن : (الروضتين ، س ٦ وما بعدها) . انظر أيضاً : (ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥١ — ١٥٢) و (سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٠٧ وما بعدها) .

كتاب أتاه ويجيب عنه، ويصلى ويطيل الصلاة، وله أوراد فى النهار، فإذا جاء الليل وصلى العشاء ونام يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بكرة، فيظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة» قال: فإنها قلّت عليها النفقة، ولم يكفها ما كان قرره لها، فأرسلتنى إليه أطلب منه زيادة فى وظيفتها، فلما قلتُ له تنكّر واحمر وجهه ثم إنه قال: من أين أعطيها، أما يكفيها مالها(١)؟ والله لا أخوض نار جهنم فى هواها، وإن كانت تظن أن الذى بيدى من الأموال هو لى فبئس الظن، إنما هى أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم، ومعدة لفتق إن كان من عدو الإسلام؛ وأنا خازن(٢) عليها فلا أخونهم فيها، ثم قال: لى بمدينة حمص ثلاثة(٣) دكاكين ملكا(٤) قد وهبتها إياها، فلتأخذها؛ وكان يحصل منها قدر قليل».

وكان(٥) له صديق بالجزيرة من الصالحين، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله، فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة، فكتب إليه يقول له: «ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذّب الخيل لغير فائدة دينية»! فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول له: «والله ما حملنى على اللعب بالكرة اللهو والبطر؛ إنما نحن فى ثغر، والعدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب فى الطلب، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً، شتاء وصيفاً، إذ لا بد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً لا قدرة لها على إدمان

(١) فى الأصل: «ما يكفيها» والتصحيح عن س بعد مراجعة الروضتين.
(٢) كذا فى الأصل، وفى س (٥٠ ب) وفى الروضتين: «خازنهم».
(٣) فى الأصل: «ستة»، والتصحيح عن س، و(الروضتين، ص ٦) و (مرآة الزمان، ص ٣٠٧).
(٤) فى الأصل، وفى س: «ملك» والتصحيح عن الروضتين.
(٥) قبل هذا الخبر فى س: «وقال أيضا هذا الشخص، وكان رضيع زوجة نور الدين ووزيرها»، مما يفيد أنه ينقل هذا الخبر عن رضيع زوجة نور الدين، أما صاحب الروضتين فيرويه منسوبا إلى ابن الاثير وإنما مع اختلاف يسير فى النص.

السير فى الطلب ، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف فى الكر والفر فى المعركة ، فنحن نركبها ونروّضها بهذا اللعب ، فيذهب عنها جماحها ، وتتعود [١٥٧] سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها فى الحرب ، فهذا والله هو الذى يبعثنى على اللعب بالكرة ».

وحمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة ، فلم يحضرها عنده ، فوُصفت له ، فلم يلتفت إليها ، وبينما هم معه فى حديثها إذ قد جاءه رجل صوفى ، فأمر بها له ، فقيل له : « إنها لا تصلح لهذا الرجل ، ولو أُعطى غيرها كان أنفع له (١) » ، فقال : أعطوها له ، فإنى أرجو أن أُعوض عنها فى الآخرة » ، فسلمت إليه ، فسار بها إلى بغداد ، فأباعها بستمائة دينار مصرية (٢) ، أو سبعمائة دينار (٣) .

وأما (٤) عدله فذكر أنه كان بدمشق يلعب بالكرة فرأى إنسانا يحدّث آخر ويشير بيده (٥) إليه ، فأرسل إليه وسأله عن حاله ، فقال : « لى مع الملك العادل حكومة ، هذا غلام القاضى ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمنى على المِلْك الفلانى » ،

(١) كذا فى الأصل ، وفى الروضتين ، وفى س : « كان أصوب » .
(٢) كذا فى الأصل ، وفى س ؛ وفى الروضتين : « أميرى » .
(٣) وقد عقب صاحب الروضتين (س ٦) على هذا الخبر بقوله : « قلت : قرأت فى حاشية هذا المكان من كتاب ابن الأثير بخط ابن المعطى إياها ، قال أعطاها لشيخ الصوفية عماد الدين أبى الفتح ابن حموية بغير طلب ولا رغبة ، فبعثها إلى همذان فبيعت بألف دينار » . انظر أيضاً : (مرآة الزمان ، س ٣٠٨) .
(٤) روى صاحب الروضتين (س ٧) هذا الخبر وغيره منسوبا إلى ابن الأثير ، وقد رجعنا إلى تاريخه الكامل فلم نجد هذه الأخبار به ، والأرجح أنها نقلت عن كتاب آخر لابن الأثير عن نور الدين ودولته عنوانه « الباهر » فقد قال ابن الأثير عند ترجمته لنور الدين فى الكامل : « وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ، ولا أكثر تحريا منه للعدل ، وقد أتينا على كثير من ذلك فى كتاب (الباهر) من أخبار دولتهم ، ولنذكرها هنا نبذة لعل يقف عليها من له حكم فيقتدى به . . . إلخ » . والذى أرجحه أن (الباهر) عنوان آخر لكتاب ابن الأثير المعروف « تاريخ أتابكة الموصل » .
(٥) كذا فى الأصل ، وفى س « به » ، والتصحيح عن (الروضتين) .

فعاد إليه ، ولم يتجاسر يعرّفه ما قال ذلك الرجل ، وكتمه ذلك الأمر ، فلم يقبل منه [نور الدين] غير الحق ، فذكر له قوله ، فألقى الجوكان (١) من يده ، وخرج من الميدان ، وسار إلى القاضى ، وهو إذ ذاك كمال الدين بن الشهرزورى ، وأرسل [نور الدين] إلى القاضى يقول له : « إنى قد جئت محاكماً ، فاسلك معى مثل ما تسلكه مع غيرى » ، فلما حضر ساوى خصمه وحاكمه ، فلم يثبت عليه حق ، وثبت الملك لنور الدين ، فقال نور الدين حينئذ للقاضى ولمن معه : « هل ثبت له عندى حق ؟ » . فقالوا : « لا » ، قال : « اشهدوا أنى قد أوهبته هذا الملك الذى حاكمنى عليه ، وهو له دونى ، وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندى ، وإنما حضرت معه لئلا يظن أنى ظلمته ، فحين ظهر أن الحق لى وهبته له » .

وذكر (٢) أنه دخل يوماً إلى خزانة بيت المال ، فرأى فيها مالاً أنكره ، فسأل عنه ، فقيل : إن القاضى كمال الدين أرسله ، وهو من جهة كذا ، فقال : « إن هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال فى هذه الجهة شئ » ، وأمر بردّه وإعادته إلى كمال الدين ليردّه إلى صاحبه ، فأرسله متولى الخزانة إلى كمال الدين ، فردّه إلى الخزانة ، وقال : « إذا سألك الملك العادل عنه فقل (٣) له عنى إنه له » ، فدخل نور الدين إلى الخزانة مرة أخرى ، فرآه ، فأنكره على النوّاب (٤) ، وقال : « ألم أقل

---

(١) الجوكان كلمة فارسية معناها المحجن أو العصا أو الصولجان الذى تضرب به الكرة فى اللعبة التى كانت تعرف باسم «الكرة والصوالجة» والتى تعرف الآن باسم « البولو Polo » ؛ وكانت الجوكان عصى مدهونة طولها نحو من أربعة أذرع ، وبرأسها خشبة مخروطة معقوفة تزيد نصف ذراع . وكان حامل الجوكان للسلطان يسمى « الجوكندار » . أنظر : (أحمد تيمور باشا : لعب العرب ، ص ٥٥) و (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٨) و (المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٥ ، هامش ١) و (Dozy : *Supp. Dict. Arab*) .

(٢) هذا الخبر يرويه أبو شامة فى (الروضتين ، ص ٧) أيضا عن ابن الأثير ، ولا وجود له فى الكامل .

(٣) فى الأصل : « فقول » .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى الروضتين ، وفى س : «على متولى الخزانة» .

لكم إن المال [١٥٨] يعاد إلى أصحابه ؟ فذكروا له قول كمال الدين ، فرده إليه ، وقال للرسول : « قل لكمال الدين : أنت تقدر على حمل هذا ، وأما أنا فرقبتي رقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدى الله تعالى ؛ يُعاد ، قولاً واحداً » . فأعاده [1] .

ونور الدين — رحمه الله — أول من بنى دار الكشف ، وسماها دار العدل ، وكان سبب بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق ، وأقام [بها] [2] أمراؤه — وفيهم أسدالدين شيركوه بن شاذى، وكان قد عظم شأنه حتى صار كأنه شريك له فى الملك — ، فاقتنوا الأملاك ، وأكثروا ، وتعدى كل واحد منهم على من يجاوره فى قرية أو غيرها ، فكثرت الشكاوى إلى القاضى كمال الدين ، فأنصف بعضهم من بعض ، ولم يقدم [3] على الإنصاف من أسد الدين شيركوه ، فأنهى الحال إلى نور الدين ، فأمر حينئذ ببناء دار العدل ، فلما سمع أسد الدين بذلك أحضر نوابه جميعهم ، وقال : « اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببى وحدى ، وإلا مَنْ هو الذى يمتنع على كمال الدين ؟ والله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لاصلبنّه ؛ فامضوا إلى من كان بينكم وبينه منازعة فى ملك [4] ، فانفصلوا الحال معه وأرضوه بأى شىء أمكن ، ولو أتى ذلك على جميع ما أملك » ، فقالوا له : « إن الناس إذا علموا بهذا اشتطوا فى الطلب » ، فقال : « خروج أملاكى عن يدى أسهل علىّ من أن يرانى نور الدين بعين أنى ظالم ، ويساوى بينى وبين آحاد العامة فى الحكومة » ، فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم ، وأرضوا خصماءهم ، وأشهدوا عليهم .

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى الروضتين ، وفى س (٥١ ب) : « فأعاده الى القاضى ، فرده القاضى على من أخذ منه » .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٨) ، وقد ذكر صاحب الروضتين أنه نقل هذا الخبر عن ابن الأثير .

(٣) كذا فى الأصل ، وفى الروضتين ، وفى س : « يقدر » .

(٤) فى الاصل : « ذلك » وما هنا صيغة س (٥١ ب) ، والروضتين .

فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل [الحكومات و] (١) الخصومات ، وكان يجلس فى الأسبوع يومين (٢) وعنده القاضى والفقهاء ، وبقى كذلك مدة فلم يحضر أحد يشكو من أسد الدين ، (٣ فقال نور الدين لكمال الدين : « مالى لا أرى أحداً يشكو من شيركوه ؟ » فعرّفه الحال ٣) ، فسجد شكراً لله تعالى ، وقال : « الحمد لله الذى جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا » .

وحكى (٤) معين الدين محمد بن أحمد بن خالد بن محمد بن القيسرانى ، قال : « انكسر على ضامن (٥) دار الزكاة [١٥٩] مال جم ، وكان الضامن المذكور يُعرف بابن شمام (٦) المحالى ، فحُبس ، فباع ما كان يملكه من عقار بما مبلغه ثمانية آلاف دينار صورية (٧) ، وحمله إلى الخزانة ، وبقى فى الحبس مطالباً بما بقى عليه .

(١) فى الأصل : « لفصل الخصومات » ، وفى الروضتين « لفصل الحكومات » وماهنا صيغة س.

(٢) النص فى : (سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١) : « فكان نور الدين يقعد فى دار العدل فى كل أسبوع أربعة أيام أو خمسة ، ويحضر عنده العلماء والفقهاء ، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب ، ويوصل إليه الشيخ الضعيف والعجوز الكبيرة ، ويسأل الفقهاء عما أشكل عليه » .

(٣) ما بين الرقمين ساقط من س ، وإنما اختصره بقوله : « فعلم الحال ، فسجد شكراً . . . الخ » .

(٤) أوجز صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ١١) هذه القصة فى كلمات قليلة جدا ، قال : « ورأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسرانى الشاعر فى منامه أنه يغسل ثيابه ، وقص ذلك عليه ففكر ساعة ، ثم أمره بكتابة إسقاط المكوس ، وقال : هذا تفسير منامك » . وهذا مثل يجمل لمفرج الكروب مكانة خاصة لما يرويه من أخبار مفصلة عن مراجع سابقة لم تصلنا ، وقد أهملت المراجع المطبوعة ذكر هذه الأخبار أو نقلتها باختصار لا يفيد الباحث كثيراً .

(٥) انظر التعريف بوظيفة الضامن فى : (ابن مماتى : قوانين الدواوين ، طبعة الوطن ، ص ١٠) .

(٦) فى س : (٥٢ ا) « شمام » .

(٧) لعل المقصود بالدينار الصورية : الدينار الصورى ، وقد عرفها (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٣٧) بأنها دنانير يؤتى بها من البلاد الافرنجية والروم ، وهى دنانير مشخصة على أحد وجهيها صورة الملك الذى تضرب فى زمنه ، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين ، ويعبر عنها أيضا : بالافرنتية — جمع إفرنتى — ، وربما قيل « إفرنجة » .

قال [معين الدين] (١) : وكان جدى خالد بن محمد قريب المنزلة من نور الدين إلى الغاية ، وإليه استيفاء دواوينه بأسرها ، وكتابة الإنشاء ، وإمرة مجلسه (٢) ، وهو المشير والوزير ، والأمور كلها عائدة إليه ، فاتفق أنه حضر بين يدى نور الدين — رحمه الله — يوما بدمشق ، وقال : يا مولانا ، رأيت البارحة فى نومى كأن المولى قد نزع ثيابه ودفعها إلىَّ ، وقال : اغسلها ، فأخذتها وغسلتها ، قال : فأطرق (٣) طويلا ، ولم يرفع رأسه إلىَّ ، فندمت على ما قلت ، وخفت أن يكون قد تطيَّر منى ، وتوهم من منامى ، فخرجت من بين يديه وأنا كئيب ضيِّق الصدر ؛ فبقيت بعد ذلك ثمانية أيام لا يطلبنى ولا يسأل عنى ، فساء [عند ذلك] (٤) ظنى ، وفرح من كان يحسدنى ، وظن العدو أنه قد ظفر بى ؛ فدخل على نور الدين رجل من خواصه يعرف بالشيخ إسماعيل المكبس (٥) ، وكان نور الدين يحبه ويقربه كثيرا ، فقال : يا مولانا ، قد حضر مَنْ زاد فى دار الزكاة خمسة آلاف دينار فى السنة ، فانتهره ، وقال : قد أصبحت على سجادتى بعد أداء فريضتى أذكر الله تعالى ، واستفتحت أنت النهار تبشرنى بزيادة مكس ؛ فوجم الشيخ إسماعيل وبقى ساكنا ، ثم قال : اطلبوا لى خالدا ، قال : فحضرت لديه (٦) ، فالتفت إلىَّ متبسما ، وقال لى : قد تفسَّر منامك ؛ فقلت بخير إن شاء الله ، فقال [هو خير (٧)] لا تظن تركى لك وعدم استحضارى إياك فى هذه الأيام لموجدة عليك أو لوهم حصل عندى من منامك ، بل كنت مفكراً فى المنام حتى فتح الله سبحانه وتعالى علىَّ بتأويله ، اعلم أن غسل

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س .
(٢) فى س : « وأمره بمجلس نور الدين نافذ » .
(٣) س : « فأطرق نور الدين ساعة لما سمع هذا المنام ساعة طويلة » .
(٤) مابين الحاصرتين عن س (١٥٢ ا) .
(٥) فى س : « الملبس » .
(٦) فى س (٥٢ ب) : « لحضرت بين يديه وأنا خايفا » .
(٧) مابين الحاصرتين عن س (١٥٢ ا) .

الثياب غسل أوساخ الذنوب، ولا ذنب أوسخ(١) من تناول أموال المكوس، فلا تترك من يومنا هذا فى بلد من بلادى مكساً ولا درهماً تعلم أنه يؤخذ بغير حق إلا أسقطته، واكتب بذلك تواقيع تكون مخلدة فى البلاد المذكورة، والتفت إلى الشيخ إسماعيل وقال له: مر أطلق ابن شمام المحالى من محبسه، ومر(٢) بإعادة كل ما أخذ منه إليه واسترجاع أملاكه، [ففعل ذلك(٣)] ولما عرف ابن شمام المحالى بذلك [١٦٠] اقترح بأن يحمل الذهب الذى أخذ منه فى أطباق ويُزَفّ بالطبول والبوقات والمغنيين فى الأسواق، ليعلم الناس كلهم ذلك، وقيل ذلك لنور الدين فأجابه إلى ملتمسه، وأن يخلع عليه، فلبس الخلعة، وزُفّ المال بين يديه على ما اقترح.

قال معين الدين: وكتب جدى خالد بذلك تواقيع، وجهزها إلى البلاد، ونسختها كلها:

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله فاتح أبواب الخيرات بعد إغلاقها، وناهج سبل النجاة لطلّابها وطُرّاقها، وفارج الكربات بعد ارتاجها(٤) وإطباقها، الذى منح أولياءه التوفيق وأوضح لهم دليله، ونصر أهل الحق وأعان قبيله، نحمده على جزيل مواهبه وجليل رغائبه، وبالغ هدايته وسابغ وقايته، ونسأله أن يصلى على سيدنا محمد الذى أوضح الطرايق، وفرج المضايق، وأنجب(٥) المحجة، وأوجب الحجة، وخفّفَ الله بيمنه كل إصر، وجعل أمته خير أمة وعصره خير عصر، وعلى آله الأكرمين ما أسفر بدر وأنار فجر.

---

(١) س: « أقبح ».
(٢) س: « وأمر ».
(٣) ما بين الحاصرتين عن س.
(٤) فى الأصل: « ارتجاجها »، وما هنا صيغة س.
(٥) س: « وأوضح ».

وبعد ، فقد اتضح على الأفهام ، وصح عند الخاص والعام ، ما نفاديه ونراوحه ، ونماسيه ونصابحه ، ونشتغل به عامة أوقاتنا ، ونعمل فيه رويتنا وأفكارنا ، ونستنفد بالاهتمام به ساعاتنا ولحظاتنا من الاجتهاد فى إحياء سنة حسنة (١) ، يكون لنا أجرها وأجر من عمل بها ، وإماتة سنة سيئة نخاص من عظيم وزرها ووخيم خزيها ، وإزالة مَظْلَمَةٍ مُظْلِمَةٍ وَطَّد الجورُ أساسَها ، ومحو سيرة مؤلمة أبرم الحيفُ أمر اسمها ، ليعم الرعايا لِباسُ (٢) الفضل والامتنان ، ويفيض على البرايا سجال العدل والإحسان ، ليصبحوا من حياض الأمن دارعين (٣) ، وفى رياض الدعة وادعين ، لا يجدون للنعم عندهم تبديلا ولا تغييرا ، ولا يرون لصافى شربهم تصريداً ولا تكديرا ولا يُظلمون نقيرا ، فما يسفر صبح ، ولا يعتكر جنح ، إلا ولله علينا نعمة لا نستطيع الإحاطة بشكرها ، ولا نطيق قدرها حق قدرها ، فيما يوفقنا له من فعل الخيرات ، ويلهمنا إياه من إزالة المنكرات ، ويهدينا إليه من الأعمال الصالحات ، وينقذنا به من الموارد المهلكات ، ويوضحه لنا من الطريق إلى رضاه (٤) ، ويبعثنا (٥) به على الجد فى عبادته [١٦١] وتقاه ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

وقد علمتم معاشر الرعايا — وفقكم الله ورعاكم — ما كان مرتبا من المظالم المجحفة بأحوالكم ، والمكوس المستولية على شطر أموالكم ، والرسوم المضيِّقة عليكم فى أرزاقكم ، والمؤن التى (٦) تساهمكم فى منافع أملاككم ، واستمرار ذلك عليكم

(١) هذا اللفظ ساقط من س .
(٢) س : « بالناس » .
(٣) س : « كارعين » .
(٤) س : « لنا إلى طريق ضارة » .
(٥) س : « ويميلنا به على عبادته ونعماه » .
(٦) س : (٥٣ ب) : « الذى » .

إلى أن فوّض الله عز وجل إلينا تدبير أموالكم (١) ، واسترعانا على كبيركم وصغيركم ، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولا فأولا ، ولم نبتغ فى إقراره على وجوهه شبهة ولا تأولا (٢) ، وقد كان بقى من رسوم الظلم ومعالم الجور فى سائر الأعمال بولايتنا ما أمرنا بإزالته الآن ، وأضفنا ذلك إلى ما كنا أسقطناه أولا (٣) ، رأفة بكم ولطفا ، وتخففاً عليكم وعطفاً ، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ؛ وسنذكر ما أزلناه من المظالم والمكوس أولا وآخرا (٣) من سائر أعمال ولايتنا — عمرها الله — فى هذا السجل من الديوان » .

قال : ثم كتب بقلم دقيق ما صورته :

« ذكر ما أطلق من الرسوم والمؤن والمكوس والضرائب فى سائر أعمال الولاية المحروسة — عمرها الله — شاميها وجزيرتها فى تواريخ متقدمة (٣) وفى تاريخ هذا السجل ؛ ورسم إطلاق ذلك كله ، وتعفية آثاره ، وإخماد ناره .

ومبلغ ما يحصل من ذلك كل سنة : خمسمائة ألف وستة وثمانون ألفاً وأربعمائة وسبعون ديناراً نقداً ، الشام ، فمن ذلك :

دمشق — بتواريخ متقدمة [ماهى فى هذا الإطلاق (٤)] : مائتا ألف ، وعشرون ألفا ، وخمسمائة وثلاثة وثمانون ديناراً .

دمشق — فى تاريخ هذا الكتاب — : خمسون ألفاً ، وسبعمائة وثلاثون ديناراً .

---

(١) س : « أموركم » .

(٢) فى الأصل : « تأويلا » وما هنا عن س .

(٣) لهذا السجل أهمية بالغة إذ لم أجد له ذكراً فى المراجع المعاصرة الأخرى ، وقد تضمن بيانا تفصيليا هاما بالمكوس التى أسقطها نور الدين فى سنوات حكمه المختلفة ، وقد وردت فى الروضتين إشارات متعددة لحركة إسقاط المكوس سنة بعد أخرى فى عهد نور الدين ، انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١١ ، ١٥ ، ١٦) .

(٤) مابين الحاصرتين عن س (٥٣ ب) .

تَدمُرُ : [1] خمسمائة دينار .

صَرْخد : سبعمائة وخمسون ديناراً .

القَرِيَتان [2] والسُّخْنَة : خمسمائة دينار .

بانياس : ألف ومائتا دينار .

بعلبك وأعمالها : ستة آلاف وتسعمائة [3] وعشرون ديناراً .

حمص وأعمالها : ستة وعشرون ألفاً وأربعمائة وعشرون ديناراً .

حماة وأعمالها : ستة وعشرون ألفاً ، واثنان وتسعون [4] ديناراً .

حلب وأعمالها : ستة وتسعون ألفاً ، ومائة [5] وستة وثمانون ديناراً [6] .

سَرْمين [7] : ألفان ، وثلاثمائة وستون ديناراً [6] .

معرّة النعمان : سبعة آلاف دينار .

[١٦٢] كَفَرْطَاب [8] : ألفا دينار .

---

(١) هكذا ضبطها (ياقوت : معجم البلدان) وقال إنها مدينة قديمة مشهورة فى برية الشام بينها وبين حلب خمسة أيام .

(٢) قال (ياقوت) هى قرية كبيرة من أعمال حمص فى طرف البرية ، بينها وبين سُخْنَة وأرَك ، وبينها وبين تدمر مرحلتان .

(٣) س : « سبعماية » .

(٤) س : « وسبعون » .

(٥) س : « ومايتى » .

(٦) فى الأصل : « دينار » .

(٧) هكذا ضبطها (ياقوت) ولم يعرفها بأكثر من قوله : هى بلدة مشهورة من أعمال حلب .

(٨) بلدة بين المعرة ومدينة حلب (ياقوت) .

عَزَاز (١) : ستة آلاف ، وخمسمائة دينار .

تل باشر (٢) : ألف وخمسمائة دينار .

عين بَاب : تسعة وثمانون دينار .

بَالِس (٣) : أربعة آلاف دينار .

مَنْبِج (٤) وأعمالها : ثمانية عشر ألفاً ، وخمسمائة وستة وستون ديناراً (٥) .

بُزاعة (٦) والباب : ثلاثة آلاف دينار .

قلعة نَجْم (٧) : ثلاثمائة دينار .

قلعة جَعْبَر (٨) : سبعة آلاف ، وستمائة وستة وتسعون (٩) ديناراً .

الرقَّة : ستة وعشرون ألفا ، وسبعمائة وثلاثة وستون ديناراً .

الرُّها : ثمانية آلاف ، وخمسمائة دينار .

---

(١) انظر مافات هنا ، ص ٤٠ ، هامش ٢

(٢) انظر مافات هنا ، ص ٤٣ ، هامش ١

(٣) عرفها (ياقوت : معجم البلدان) بقوله : « هي بلدة بالشام بين حلب والرقة ، كانت على ضفة الفرات الغربية ، فلم يزل الفرات يشرق عنها قليلا قليلا حتى صار بينهما في أيامنا هذه أربعة أميال » .

(٤) انظر مافات هنا ، ص ١٥٣ هامش ٢

(٥) في الأصل : « دينار » .

(٦) انظر مافات هنا ص ١٥٥ هامش ١

(٧) عرفها (ياقوت) بأنها قلعة حصينة مطلة على الفرات نحو جبل تحتها ربض عامر ، وعندها جسر يعبر عليه ، وهي المعروفة بجسر منبج ، ويعبر على هذا الجسر القوافل من حران الى الشام وبينها وبين منبج أربعة فراسخ .

(٨) انظر مافات هنا ، ص ١٧ ، هامش ٥

(٩) س : (١٥٤ ا) : « وسبعون » .

حرّان : ستة عشر [١] ألف ، وستّمائة واحد وسبعون ديناراً .

سِنْجار [٢] : سبعة آلاف ، وثمانية دنانير .

المَوْصِل وأعمالها : ثمانية وثلاثون ألفاً ، ومائة وستة وأربعون [٣] ديناراً .

نصيبين : عشرة آلاف ، وأربعمائة وستة [٤] وثمانون ديناراً .

عَرَبان [٥] : خمسة آلاف وسبعمائة دينار .

بُطْنان [٦] — من أعمال الخابور [٧] — : مائتان وخمسون ديناراً .

تِبْنين [٨] والارسل [٩] : سبعمائة وخمسون ديناراً .

السمسمانية [٩] — من أعمال الخابور — : ألف دينار .

---

(١) س : « ستة آلاف » .

(٢) انظر ما فات هنا ، ص ١١٨ ، هامش ١

(٣) س : « الوصل وأعمالها : ثلاثون ألف دينار ، وستة وأربعون دينارا » .

(٤) س : « وأربعمائة وثمانون دينار » .

(٥) فى الأصل : « عرابان » ، وهذا الرسم والضبط عن (ياقوت) حيث عرفها بأنها بليدة بالخابور من أرض الجزيرة .

(٦) فى الأصل : « بطانات » ، وهذا الرسم والضبط عن (ياقوت) حيث قال إنه اسم واد بين منبج وحلب وبينه وبين كل واحد من البلدين مرحلة خفيفة ، فيه أنهار جارية وقرى متصلة ، قصبتها بزاعة .

(٧) الخابور كما ورد فى (ياقوت : معجم البلدان) اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ، ولاية واسعة وبلدان جمة غلب عليها اسمه ، فنسبت إليه ، من بلاد : قرقيسياء ، وماكسين ، والمجدل ، وعربان .

(٨) فى الأصل : « تنينين » ، والتصحيح عن (ياقوت) حيث ذكر أنها بلدة فى جبال بنى عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور .

(٩) كذا فى الأصل ، ولم أجد لها ذكرا عند ياقوت .

قَرقيسياء (١) : ألفا دينار .

السُّكَيْر (٢) : مائتا دينار .

ماكِسين (٣) : خمسة آلاف دينار .

المِجْدَل (٤) : ثلاثة آلاف وخمسة دنانير .

الُحصَيْن (٥) — بالخابور — : ستمائة وخمسة وثلاثون ديناراً .

الَجْحِشيَّة (٦) — بالخابور — : مائة (٧) دينار .

المحولية (٨) — بالخابور — : مائة وثلاثة وستون ديناراً .

الرَّحْبَة (٩) : ستة عشر ألفاً ، وسبمائة (١٠) وأربعون ديناراً .

[وغير ذلك ما عيناَّه خوفاً من الإطالة (١١)] » .

---

(١) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت) حيث ذكر أنها بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك ابن طوق على ستة فراسخ ، وعندها مصب الخابور فى الفرات ، فهى فى مثلث بين الخابور والفرات .

(٢) اسمها عند (ياقوت : معجم البلدان) : « سكير العباس » ، وهى بليدة صغيرة بالخابور فيها منبر وسوق .

(٣) أنظر مافات هنا ، ص ١١٨ ، هامش ٢

(٤) أنظر الصفحه السابقة ، هامش ٧

(٥) هكذا ضبطها (ياقوت) : وقال إنها بليدة على نهر الخابور ، ولم يزد .

(٦) هكذا ضبطها (ياقوت) وقال إنها قرية كبيرة كالمدينه من قرى الخابور ، بينها وبين المجدل نحو أربعة أميال .

(٧) س : « مايتا » .

(٨) كذا فى الأصل ، ولم يذكرها (ياقوت) .

(٩) ذكر (ياقوت) أن هذا اللفظ يطلق على أكثر من مكان ذكرها جميعا فى معجمه ، ويتضح من وصفه أن الرحبة المذكورة هنا هى رحبة مالك بن طوق ، وقد حدد موقعها بقوله : بينها وبين دمشق ثمانية أيام ، ومن حلب خمسة أيام ، وإلى بغداد مائة فرسخ ، والى الرقة نيف وعشرون فرسخا ، وهى بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات ، أسفل من قرقيسيا .

(١٠) س : « وتسماية » .

(١١) مابين الحاصرتين عن : س (١٣٥٤)

ثم كتب بعد ذلك بالقلم الجافى :

« تحقيقاً للحق ، وتمحيقاً للباطل ، ونشراً للعدل ، وتقديماً للصلاح الشامل ، وإيثاراً للثواب الآجل على الحطام العاجل ، وتأميلا لحسن الخلف من الله الكافى الكامل ، وتخليصاً للذمة من دَرْك المظالم ، وتنزيهاً للنفس من دَرَن المآثم ، واستعفاء من تحمل الأوزار ، واستغناء بما أولاه الله من سابغ المدرار (١) ، وشكراً لما أولاه من الفضل الجسيم والمنح العميم ، وهداية إلى الصراط المستقيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

فاعلموا رعاكم الله ما أمرناه ، واسكنوا إلى ما قرّرناه ، واشكروا الله على ما سهّله وسنّاه ، وأجزله من فضله وأسناه ، [١٦٣] وأيقنوا أن ذلك [الإنعام] (٢) العام مستمر على الدهور ، وباقٍ إلى يوم النشور ، « وَكُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ واشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (٣) » ، وسبيلُ كل واقف على هذا المثال من الولاة والنواب والأصحاب والأعمال (٤) والعمال — أعزّهم الله — حذفُ ذلك كله ، وتعفيَة رسومه ، ومَحْو آثاره ، ودَحْض أوزاره ، وإزالة أوضاره ، وصَوْن جمال الدولة عن شَيْن عاره ، وإطلاقه على الإطلاق من غير تبديل يحل عقده ، ولا فسخ يكدّر ورده ، « فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥) » .

والتوقيع الأعلى : « حُجَّةٌ لمضمونه ومقتضاه ، وليمتثل الأمرُ فيه إن شاء الله .

---

(١) س (٥٤ ب) : « سابغ الادرار والمدار » .

(٢) مابين الحاصرتين عن س .

(٣) السورة ٣٤ (سبأ) ، الآية ١٥ (ك) .

(٤) هذا اللفظ ساقط من س .

(٥) السورة ٢ (البقرة) ، الآية ١٨١ (م) .

وكتب بالمشافهة الكريمة — شرفها الله تعالى — فى مستهل شهر الله الأصب رجب سنة سبع وستين وخمسمائة ».

قال معين الدين — رحمه الله — : « وكل بلد من البلاد المذكورة فُصِّلَ فى التوقيع جهات ما أُطلق من مكوسه [1]، ولكننى اقتصرت على ذكر الجمل طلباً للاختصار ».

وأما [2] شجاعته وبسالته : فكان من أقوى الناس بدناً وقلباً ورأياً ومكيدة ؛ وذكر أنه لم يُرَ على ظهر فرس أشد منه ، كأنما خُلق عليه ، لا يتحرك ولا يتزلزل ، وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة ، يجرى الفرس ويتناولها بيده فى الهواء ويرميها إلى آخر الميدان ، وكانت يده لا ترى والجوكان [3] فيها ، بل تكون فى كم قَبائه [4]، استهانة باللعب ، وكان إذا حضر الحرب أخذ قوْسَيْن وتَرْكَشَيْن [5]

---

(١) حبذا لوكان معين الدين هذا قد أورد تفاصيل المكوس التى ألغيت ولم يكتف بالجمل ، فإنه كان يقدم للباحثين وثيقة من أندر وأقيم الوثائق لدراسة هذا النوع من الضرائب فى الشام قبل عصر نور الدين .

(٢) وردت أخبار شجاعته أيضا فى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٨ وما بعدها) مع اختلاف يسير ، تقديما أو تأخيرا ، إيجازا أو إطنابا ؛ وفى (سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٠٩ — ٣١٠) .

(٣) أنظر ما فات ص ٢٦٧ ، هامش ١

(٤) جاء فى (محيط المحيط) أن القباء ثوب يلبس فوق الثياب ، وقيل يلبس فوق القميص ، ويتمنطق عليه ، جمعه أقبية ؛ والقباء القدار ، وقد كان فخر الدين بن شيخ الشيوخ — أحد كبار رجال الدولة فى عهد الملكين الكامل والصالح الأيوبيين — أول من ترك لبس العمامة ولبس الشربوش والقَباء . انظر أيضا : (المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٦١) و (المقريزى : نحل عبر النحل ، نشر الشيال ، ص ٨٥ هامش ٥) .

(٥) كذا فى الأصل ، وهى فى س (١٥٥) : « تركاشين » ، والرسمان صحيحان : « تَرْكَش » و « تركاش » ، والجمع « تراكيش » . والتركش لفظ فارسى معناه الجعبة أو الكنانة التى توضع فيها النشاب أو القسى . انظر (Dozy : *Supp. Dict. Arab*) و (المقريزى : السلوك ، تعليقات الدكتور زيادة ، ج ١ ، ص ٣٧١) . ويقال أيضا « جنود متركشة » أى يحملون جعبات النشاب .

يباشر القتال بنفسه ، فكان يقول : « طالما تعرّضتُ للشهادة فلم أدركها » ؛ وسمعه الفقيه قطب الدين النيسابورى يقول ذلك ، فقال له : « بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين ، فإنك عمادهم ، ولئن أصبت والعياذ بالله فى معركة ، لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف ، وأخذت البلاد والإسلام » . فقال له : « يا قطب الدين ، ومَنْ محمود حتى يقال له هذا ؟ قبلى من حفظ البلاد والإسلام ؟ ذلك الله الذى لا إله إلا هو » .

ومن آرائه الحسنة ما كان يعتمده فى أمر أجناده ؛ فإنه كان إذا توفى أحدهم وخلّف ولداً ذكراً أقرّ الإقطاع عليه ، فإن كان الولد كبيراً استبد بنفسه ، وإن كان صغيراً رتّب معه رجلا عاقلا يثق إليه ، فيتولى أمره إلى أن يكبر ، فكان الأجناد يقولون : [١٦٤] « هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عليها » ، وكان ذلك من أعظم الأسباب لصبر الجند فى المشاهد والحروب بين يديه ؛ وكان أيضاً يثبت أسماء أجناد كل أمير فى ديوانهم : دوابهم وسلاحهم خوفا من حرص بعض الأمراء وشحه أن يحمله ذلك على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العُدَد ، وكان يقول : « نحن كل وقت فى النفير ، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملى العُدَد دخل الوهن على الإسلام »[1] .

(٢) وأما صدقاته ومعروفه وإحسانه فذكر عماد الدين الكاتب ، قال : « حسبنا ما تصدق به على الفقراء فى شهر فزاد على ثلاثين ألف دينار » ؛ وكانت عادته فى الصدقة أن يحضر جماعة من أماثل البلد من كل محلة ويسألهم عمن يعرفون فى جوارهم

(١) هذا نص هام وقيم لدراسة نظام الاقطاع ونظام الجيش فى دولة الأتابكة بوجه عام ، وفى دولة نور الدين بوجه خاص .

(٢) وردت أخبار صدقاته وإحسانه فى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١١) نقلا عن العماد الكاتب وابن الأثير ؛ وفى (سبط ابن الجوزى ، المرجع السابق ، ص ٣١٢) .

من أهل الحاجة ، ثم يصرف إليهم صدقاتهم ، وكان يرسم نفقته الخاصة[1] في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطاس مصرية[2] في كسوته ونفقته وحوائجه المهمة ، حتى أجرة خياطه ، وجامكية طباخه ، ويستفضل منه ما يتصدق به في آخر الشهر .

وأما ما كان يهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم ، فإنه كان لا يتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير ، بل كان إذا اجتمع منه شيء يصرفه ، ويخرجه إلى مجلس القاضي ، فيحصل ثمنه[3] ، ويصرف في عمارة المساجد المهجورة ؛ وتقدم بإحصاء ما في محال دمشق من المساجد [الخراب][4] فأناف على مائة مسجد ، فأمر بعمارة ذلك كله ، وعيّن له وقوفاً ، ولما أسقط نور الدين الجهات المحظورة[5] والمكوس — غير السجن — وقال لكمال الدين القاضي : « انظر أنت في ذلك ، فاحمل أمور الناس فيها على الشريعة » ؛ ولم يكون نور الدين يحاسب القاضي كمال الدين على شيء من الوقوف ، ويقول : « أنا قد قلّدته أن يتصرف فيها بما يجب ، ثم ما فضل من مصارفها وشروط واقفيها يصرف في بناء الأسوار وحفظ الثغور » .

وبنى[6] — رحمه الله — أسوار بلاده جميعها وقلاعها ، فمنها : حلب ، وحماة ، وحمص ، ودمشق ، وبارين ، وشيزر ، ومنبج ، وغيرها من القلاع والحصون ، وحصّنها

---

(١) في الأصل : « نفقة الخاص » والتصحيح عن (مرآة الزمان ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣١٢)
(٢) هذا اللفظ غير موجود في س ولا في الروضتين .
(٣) س (٥٥ ب) : « فيبيعه ويحصل ثمنه » .
(٤) ما بين الحاصرتين عن س ، وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ١١) و (مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣١٢) : « المساجد المهجورة » .
(٥) في الأصل ، وفي س : « المحضورة » وما هنا عن الروضتين .
(٦) أخبار ما بناه من الحصون والقلاع واردة في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٩ — ١٠) نقلا عن ابن الأثير .

وأحكم بناها، وأخرج عليها الأموال [١٦٥] الجليلة ، وبنى المدارس الجليلة للحنفية والشافعية ، فمن ذلك :

المدرسة النورية[١] بدمشق التى فيها قبره[٢] .

وكذلك بحلب[٣] وبحمص[٤] ، وبحماة[٥] له مدرستان : إحداهما للحنفية ، والأخرى للشافعية .

وبنى الجوامع فى أكثر البلاد . فجامعه بالموصل[٦] فى نهاية الحسن والاتقان .

---

(١) ذكر (النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٦٠٦) هذه المدرسة باسم المدرسة النورية الكبرى مميزاً لها عن مدرسة أخرى أنشأها نور الدين كذلك فى دمشق، وتعرف باسم المدرسة النورية الصغرى (ص ٦٤٨) . وذكر النعيمى أن نور الدين بنى المدرسة الكبرى فى سنة ٥٦٣ هـ ثم عقب على ذلك بقوله : « وفيه نظر ، إنما أنشأها ولده الملك الصالح إسماعيل ، ثم نقله من القلعة بعد فراغها ، ودفنه بها » . وقال ناشر الكتاب الأستاذ جعفر الحسنى فى تعليقاته إن هذه المدرسة لا تزال عامرة إلى يومنا ، وهى فى سوق الخياطين ، وفيها ضريح نور الدين . انظر أيضاً : (محمد كرد على : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ٩٧) و (Souvaget: *Monuments Historiques de Damas. p. 53*).

(٢) وصف (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٨٤) مدرسة نور الدين وقبره وصفاً طريفاً ، قال : « ومن أحسن مدارس الدنيا مدرسة نور الدين — رحمه الله — ، وبها قبره — نوره الله — وهى قصر من القصور الأنيقة ينصب فيها الماء فى شاذروان وسط نهر عظيم ثم يمتد الماء فى ساقية مستطيلة إلى أن يقع فى صهريج كبير وسط الدار ، فتحار الأبصار فى حسن ذلك المنظر ، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين — رحمه الله — » .

(٣) كانت مدرسته فى حلب تعرف كذلك باسم « النورية بناها سنة ٥٤٤ هـ (كرد على : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٠٥) وأنظر أيضاً : (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٣) .

(٤) ذكر (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٨) أنه لم يكن بحمص أثناء زيارته لها غير مدرسة واحدة فلعلها هذه .

(٥) انظر (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٧) و (كرد على . خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٢٧) .

(٦) قال (ابن جبير ، ص ٢٣٥) عند كلامه عن الموصل : « وللمدينة جامعان ، احدهما جديد ، والآخر من عهد بنى أمية » .

و بنى الجامع (١) الذى على شط العاصى بحماة — وهو جامع حسن — وإلى جانبه بيمارستان (٢) من إنشائه .

و بنى بدمشق وحلب بيمارستانين(٣) فى غاية الحسن، ووقف عليهما الوقوف الجليلة.

و بنى الربط والخانقات للصوفية فى جميع البلاد ، وأدرّ عليهم الإدرارات الجليلة الكثيرة ، وكان يُحضر مشايخ الصوفية ويقربهم ويُدنيهم ويتواضع لهم .

و بنى أيضاً الخانات فى الطرق ، فأمن الناس ، وحفظت أموالهم ، و باتوا فى الشتاء فى كن من المطر .

و بنى أيضاً الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ، ومعهم الطيور الهوادى ، فإذا رأوا من العدو أحداً أرسلوا الطيور ، فأخذ الناس حذرهم ، واحتاطوا لأنفسهم ، ولم يبلغ العدو منهم غرضاً .

وكان — رحمه الله — عنده أهل العلم فى محل عظيم ، وكان يجمعهم عنده للبحث والنظر ، واستقدمهم إليه من البلاد الشاسعة ، فمن جملة من قدم عليه : الفقيه قطب الدين الشافعى ، فبالغ فى إكرامه والاحسان إليه ، فحسده بعض الأمراء عنده ، فنال منه [يوما عند نور الدين] (٤) ، فقال له نور الدين : « ياهذا إن صح ماتقول فله حسنة تغفر له كل زلة تذكرها ، وهى العلم والدين ، أما أنت وأصحابك ، ففيكم أضعاف ما ذكرت ، وليست لكم حسنة تغفرها ، ولو عقلت (٥) لشغلك عيبك

(١) انظر وصف هذا الجامع فى (كرد على : خطط الشام ، ج ٦ص ٦١) .

(٢) قال (كرد على ، ج ٦ ، ص ١٦٦) عند كلامه عن هذا البارستان : « وهو الآن شبيه بالمندرس يستعمله بعضهم للسكنى ، وذهبت أوقافه إلا قليلا » .

(٣) أنظر وصف البيمارستان النورى بدمشق فى المرجع السابق (ص ١٦٢) ، ووصف البيمارستان النورى بحلب فى نفس المرجع (ص ١٦٥)

(٤) مابين الحاصرتين عن الروضتين ، وقد أضفناه للايضاح .

(٥) فى س : « ولو تثبت » .

عن غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا تحتمل سيئة هذا إن صحت مع وجود حسنته ؟ مع أنني والله لا أصدقك فيما تقول ، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء [١] لأوذينك » فكف عن أذيته .

وبنى بدمشق داراً للحديث [٢] ، وأوقف عليها وقوفا كثيرة ؛ وهو أول من بنى داراً للحديث فيما سمعنا به .

وبنى فى كثير من بلاده مكاتب للأيتام ، [١٦٦] وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة .

وبنى مساجد كثيرة ، ووقف عليها وعلى من يقرأ [بها] [٣] القرآن [وقوفا جليلة] [٤] .

وحكى ابن الأثير [فى تاريخه الكامل] [٤] : أنه أحصيت أوقاف نور الدين فكانت فى كل شهر تسعة [٥] آلاف دينار صورية ، ليس فيها غير ملك صحيح شرعى باطنا وظاهرا ، وأنه وقف ما انتقل إليه [من إرث والده] [٦] أو وزن ثمنه ، أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه .

[٧] وكان مع هذه الفضائل شديد الوقار ، عظيم الهيبة ، ضابطاً لناموس الملك مع أصحابه وأجناده إلى غاية لا مزيد عليها .

(١) هذا اللفظ ساقط من س .

(٢) أنظر أخبار هذه الدار فى (النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٩٩ وما يليها) .

(٣) مابين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٠)

(٤) مابين الحاصرتين عن س (٥٦ ب) ، وانظر أيضا : (ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٢) .

(٥) كذا فى الأصل ، وفى : (ابن الاثير ، نفس الجزء والصفحة) ، وفى (الروضتين ص ١٠) ، أما س نفيها : « تسع عشر ألف دينار مصرية » .

(٦) مابين الحاصرتين عن س ، ولا وجود له فى ابن الاثير أو فى الروضتين .

(٧) وردت أخبار هيبته ووقاره فى الروضتين (ص ١٠) نقلا عن ابن الاثير ، ولا وجود لها فى الكامل.

وكان إذا جلس لا يجلس أحد إلا بإذن ، إلا الأمير نجم الدين أيوب بن شاذى — رحمه الله — ، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه ، ومجد الدين بن الداية ، وغيرهما ، فإنهم كانوا يقفون بين يديه إلى أن يتقدم إليهم بالقعود ؛ وكان[1] مجلسه — فيما روى — كصفة مجالس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مجلس حكم وحياء ، وهكذا كان مجالسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين ، وأحوال[2] الصالحين ، والمشورة فى أمر الجهاد ، وقصد بلاد العدو .

ولو أخذنا نعدد ذكر مناقبه[3] ومآثره لطال الكلام واتسع الشرح ، وفيما أوردناه من ذلك كفاية .

ولما توفى نور الدين — رحمه الله — رثاه عماد الدين الكاتب بقوله :

عجبتُ من الموت كيف اهتدى[4] ... إلى مَلِكٍ فى سَجايا مَلَكْ !
وكيف ثوى الفَلَكُ المستديرُ ... فى الأرضِ ، والأرضُ وَسْطَ الفَلَكْ ؟!

وبقوله :

يا مَلِكاً أيامُه لم تَزَلْ ... لِفَضْلِهِ فاضلةً فاخرة
غاضتْ بحورُ الجودِ مذْ غُيِّبَتْ ... أَنْمُلُكَ القابضةُ الزاخرة
ملكتَ دنياك وخلَّفتَها ... وسِرْتَ حتى تملك الآخرة

---

(١) وردت فى هامش س (٥٦ ب) بخط مخالف لأحد قراء النسخة هذه الجملة : « أخطأ الناقل لهذا اللفظ ، فان مجالس الأنبياء أجل وأعظم من أن تشبه بمجالس الملوك » .

(٢) س : « أقوال » .

(٣) توجد ترجمة طويلة وافية لنور الدين فى (النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٦٠٦ — ٦١٦) وقد اعتمد فيها المؤلف على كثير من المؤرخين السابقين له ومنهم ابن واصل فى كتابه هذا مفرج الكروب .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى س ، وفى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٨) : « أتى » .

وبقوله من قصيدة :

لفقـــدِ الملكِ العا ... دلِ يبكي المُلْكُ والعَدْلُ
وقـــد أظلمتْ الآفاق ... لا شمسٌ ولا ظِـــلُّ
ولما غابَ نورُ الديـــن عنا أظلَمَ الحفْلُ
[١٦٧] وزالَ الخِصْبُ والخيـــرُ وزاد الشرُّ والمحْلُ
ومات البـــأسُ والجـــودُ وعاش اليأسُ والبُخْلُ
وَعَزَّ النقصُ لمـــا ها ... نَ أهلُ الفضلِ والفَضْلُ
وهل ينفق ذو العلـــمِ إذا ما نَفَقَ الجهْلُ
وما كان لنـــور الديـــن لولا مَجْلُهُ(١) مِثْلُ

---

(١) كذا في الأصل، وفي: (الروضتين، ج ١، ص ٢٣١)؛ وفي س (١٥٧): «فقده».

فهرس الموضوعات

للجزء الأول

من

كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب

لابن واصـــل

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

